البراديم گولن

فتح الله گولن ومشروع الخدمة

على ضوء نموذج الرشد

د. محمد باباعمي

دار النيل

البراديم كولن

فتح الله كولن ومشروع الخدمة

على ضوء نموذج الرشد

copyright©2011 Dar al-Nile
copyright©2011 Işık Yayınlari

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

تصميم

أسيد الصالحي

غلاف

مراد عرباجي

رقم الإيداع: ISBN: 978-975-315-385-0

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye
Tel: +90 216 5221144 Faks: +90 216 5221178

Baskı ve Cilt Pasifik Ofset

Cihangir Mah. Güvercin Cad. No:31/ Baha iş Merk. A.Bolk K.2
Haramidere/İstanbul. Tel:02124221700 Fax: 02124458464

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

The Gulen Paradigm

البراديم كولن

فتح الله كولن ومشروع الخدمة

على ضوء نموذج الرشد

تأليف

د. محمد باباعمي

دار النبيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس الكتاب

تمهيد ٣

الفصل الأول

نموذج الرشد، والمنظومة المعرفية الرشيدة..... ١١
من النموذج التفسيري إلى نموذج الرشد..... ١١
نموذج الرشد..... ١٣
أمثلة من الواقع..... ١٤
الشروط الأساسية للرشد..... ١٧
دعوة إلى فقه الرشد..... ١٨
حول المنظومة المعرفية الرشيدة..... ١٩
فما هي المنظومة المعرفية الرشيدة إذن؟..... ١٩
خاطرة رمزية: الحفر بحثا عن المنظومة..... ٢١
في البدء كان الحفر..... ٢١
سمفونية الحفر..... ٢٢
إنه هو ٢٣

الفصل الثاني

مشكلتا التصنيف والحد الفاصل في "البراديم كولن"..... ٢٩
مدخل..... ٢٩
معالم في الحدِّ الفاصل..... ٣٢
الصور المجازية..... ٣٧
١. نموذج النمل..... ٣٨
٢. نموذج المهندس..... ٤٠
٣. نموذج الشمس والظل..... ٤٢
٤. نموذج القماش الزاهي..... ٤٣
٥. نموذج المجانين..... ٤٦

العبارات الموجزة العميقة (الحِكَم).. ٤٩
١. العابد والمعبود.. ٥٠
٢. العقيدة: بين الحفظ، والفهم، والفعالية.. ٥١
٣. ضرورة التخطيط، وأسباب الحضارة.. ٥٢
٤. الإنسان والدولة والزمن.. ٥٣
٥. القلم.. ٥٤
٦. الإنسان.. ٥٧
التصرفات العفوية، والسلوك الواعي.. ٦٠
١. من العزلة إلى المخالطة.. ٦٠
٢. اقبلني يا رسول الله.. ٦٣
٣. سلَّم الاحترام، لا سلَّم التسلُّط.. ٦٥
٤. المذهبية فقه لا عصبية.. ٦٦
٥. للعالَمين: الهجرة للدعوة.. ٦٨

الفصل الثالث

البعد الحركي للدلالة والتعريف في "البراديم كولن".. ٧٣
مدخل.. ٧٣
نماذج من تعريفات كولن.. ٧٧
١- الورع.. ٧٧
٢- المراقبة.. ٨١
٣- الدعاء.. ٨٢
نحو موسوعة للمصطلحات والمفاهيم والتعريفات.. ٨٥

الفصل الرابع

المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك، في البراديم كولن.. ٨٩
مدخل إبستمولوجي.. ٨٩
نظرية التعليم في قصة الخضر وموسى عليهما السلام:.. ٩١
المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك.. ٩٥
١. معرفة الحق سبحانه حق المعرفة.. ٩٥
٢. انتقال المعرفة من المداخل إلى المخارج عبر العقل.. ٩٦

٣. حركيةٌ من اللسان مباشرة إلى الجنان والقلب ٩٦
٤. تحرُّك آلة السلوك والجوارح ٩٦
٥. تحوُّل السلوك والأحوال إلى لسان ناطق بتصديق الحقِّ ٩٧
٦. بُدُوُّ ذلك في الأسلوب الإيمانيّ الإيجابيّ للفرد والمجتمع ٩٨
٧. ميلاد حضارة إسلامية هي حضارتنا الذاتية ٩٨
معالجات في أصول المعرفة والسلوك ١٠٠
العلاقة بين المعلم والمتعلم، وأهمية الخبرة والتجربة ١٠١

الفصل الخامس

أسباب الرشد وموانعه ١٠٧
مدخل ١٠٧
الأسباب القلبية الإيمانية ١٠٩
أولا: الإخلاص ١٠٩
ثانيا: البكاء همًّا وهمَّة ١١٤
الأسباب العقلية المعرفية ١٢١
أولا: الحركية والفكر ١٢١
ثانيا: المعيَّنية، أو التناسب بين السبب والنتيجة ١٢٩
الأسباب الدعوية الحضارية ١٣٩
أولا: سرُّ الدعوة، أو قلوب تشرَّبت المحبَّة ١٣٩
ثانيا: التخطيط وفن استشراف المستقبل ١٤٤
أ- التخطيط والقدر الجبري ١٤٥
ب- إنسان التخطيط ١٤٧
ج - التخطيط في مستوى الفرد ١٤٨
د - التصرف الحركي والتخطيط المحكم ١٤٩
هـ - "خَضِرُ" التخطيط ١٥٠
الأسباب الفنية الجمالية ١٥٣
أولا: الفن، المفتاح السحري للحضارة ١٥٣
ثانيا: الأدب والبيان والشعر ١٦٠

الفصل السادس

مقالات فاتح القسطنطينية/١ .... ١٦٩

مِن "سما" حيث الفكر سما ١٦٩

مقالات فاتح القسطنطينية/٢ .... ١٧٦

جنازة في مدينة الإسلام ١٧٦

مقالات فاتح القسطنطينية/٣ .... ١٨١

"كِرْكْلاَرْأَلِي": قرية آوت ونصرت ١٨١

مقالات فاتح القسطنطينية/٤ .... ١٨٩

وقف الكتاب والصحفيين أو: من إسلام القوة، إلى قوة الإسلام ١٨٩

مقالات فاتح القسطنطينية/٥ .... ١٩٤

"زمان" و"جيهان" حين يصير الإعلام نظيفا ١٩٤

مقالات فاتح القسطنطينية/٦ .... ١٩٨

"فَمْ" لصناعة الإنسان ١٩٨

مقالات فاتح القسطنطينية/٧ .... ٢٠٣

"جوشكن": مدارس من العالَم الملائكي! ٢٠٣

مقالات فاتح القسطنطينية/٨ .... ٢١٠

طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين! ٢١٠

طبَّاخة العجين ٢١٢

طبَّاخ البنين ٢١٤

طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين ٢١٧

مسرد المصطلحات والمفاهيم المعرفية الواردة في الكتاب ٢١٩

المشاريع العلمية المقترحة ٢٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

"أفضل الرجال مَن لا تَضيق به الأمور، ولا تمحّكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلَّة، ولا يحصر مِن الفيء إلى الحقِّ إذا عرفه، ولا تُشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه،... أوقفُهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلُّهم تبرُّما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشُّف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم... ممَّن لا يزدهيه إثراء، ولا يستمليه إغراء... وأولئك قليل"

(الإمام علي كرَّم الله وجهه، بتصرُّف)

تمهيد

"**البراديم كولن**" هو مصطلح جديد، له قدرة تفسيرية عالية، ذلك أنَّه يساعدنا في الخروج من الثنائيات الاختزالية: الأستاذُ والأتباع، القمَّة والقاعدة، التخطيط والتنفيذ... ويحلُّ بديلا عن هذه الثنائيات صورا شاملة كونيَّة مركَّبة، تلج إلى النصوص بعمق، وتستنطق المؤسَّسات بروية، وتتخطَّى السرد الزمني النمطي؛ فمشروع "كولن" -في تقدير هذا البحث- ليس مشروعا كلاسيكيا تقليديا معتادًا، ولذا يكون من الظلم حشره في هذه الخانة وضمن هذا الإطار، ويستحيل فهمُه من هذا المنطلق وبهذه المقدِّمة.

"**البراديم كولن**" ليس مفهوما مرادفا "للأستاذ كولن" بشخصه وفكره، وبخصوصياته وميزاته؛ لكنَّه يرمز إلى الصيغة المركَّبة بين "فكر الأستاذ" و"مشاريع الأستاذ"، بين "النموذج النظري" و"تطبيق النموذج فعليًّا" فالأستاذ كولن في هذا البراديم هو المحور طبعا، وهو القلب، وهو المحرِّك؛ غير أنه ليس الدائرةَ كلَّها، ولا الجسدَ جميعَه، ولا الآلةَ برمَّتها... هكذا كان، وهكذا ينبغي أن يُعرف ويعرَّف.

"**البراديم كولن**" ينبِّه إلى حقيقة عميقة، وهي أنَّ الأستاذ في مسيرته وكتاباته وتوجيهاته، لم يكن يرسم التفاصيل ويصوِّر الجزئيات واحدةً واحدةً، ولم يكن يُدافع عن تراتبيَّة قاتلةٍ لمعنى الحياة ولمدلول الإنسان، شأنَ بعض التجارب الحركية التي تصنع قوالب بشرية متشابهة، متنكِّرة لذاتية الإنسان ولخصوصياته، وضاربة عرض الحائط اختلاف البيئات والأنساق الاجتماعية والفكرية والحضارية؛ فالأستاذ كان بمثابة "المرشد"،

و"الموجِّه"، و"المنبه"، و"الراسم للخطوط العريضة"، تاركا كلَّ إنسان يُعمل عقله التوليديَّ، ويبدع في فهم النصوص بمراميها ومقاصدها، ويتفنَّن في تطبيق ذلك على واقع الحياة، حسب تخصُّصه، ومداركه، وطاقته... ولهذا، وبسببه، تحوَّلت كلمات قليلة -نسبيا- إلى مؤسَّسات لا تُعدُّ ولا تحصى، ولا تزال تولد كلَّ يوم، في كلِّ مكان، وبكلِّ شكل، في سلسلة رياضية متسارعة.

ولقد ساعد العمق الفكري، وشمولية النظرة، والقدرة البلاغية... الأستاذَ على تخطي عقبة الاختزال والنمطيَّة والتجزيئيَّة؛ فكلُّ نصوصه التي قرأتُها بالعربية، وبخاصَّة مقالات "ترانيم روح"، و"نحن نقيم صرح الروح"، و"مقدمات حراء"، وكتاب "النور الخالد"... لا تُقرأ قراءة واحدة، ولا تموت عند دلالة فريدة ومعنى يتيم، بل هي حاملة لشحنة من "**النماذج**"، و"**الرؤى الكونية**"، التي هي بمثابة الخميرة، والرمز، واللبِّ...

فعوض أن يعتني الباحث بسرد النصوص، وبتتبع الجزئيات، وبالوصف العشوائي، كان لزاما عليه أن يسبِر أغوار "الفكر"، ويقرأ بين ثنايا السطور، ويحلِّل المشاريع والمؤسَّسات، ويستمع إلى الأفراد والجماعات... المصنَّفة ضمن "**البراديم كولن**" ليستخرج جملة من الإجابات على سؤال واحد هو: **كيف استطاع الأستاذ كولن أن يحوِّل فكره إلى فعل؟**

والغرض من "**البراديم كولن**"، هو توجيه الفكر الإسلاميِّ في العالم العربي بالخصوص، وتنبيهُه إلى أبرز مميزات تجربة "كولن"، والدفاع عن كونها تجربة بنائية شمولية حضارية متكاملة، قادرة على تجاوز المطبَّات التي وقع ويقع فيها الفكر الإسلاميُّ المعاصر، من مثل: الحَرْفية، والإقصائية، والتجزيئية، واللافاعلية، والادعائية... الخ. والهدف هو

التحرُّر من "المستحيل" إلى "الممكن"، من "المثال التاريخي التعجيزي" إلى "النموذج الواقعي البشري"...

ويمكن تلخيص أهداف هذه الدراسة في النقاط الآتية:

١- مواصلة البحث في فكر الأستاذ، من مدخل **المنظومة المعرفية الرشيدة**، التي تركِّز على مرحلة ما بعد المعرفة.

٢- إعطاء هذه التجربة حقَّها ومستحقَّها، عوض الاكتفاء بالوصف والإشادة، ذلك أنها -في تقديري- تجربةٌ قابلة للتعميم والانتشار في البلاد الإسلامية قاطبة، بل وفي سائر بلاد العالم المعاصر؛ فمِن الخطأ أن نحشرها في إطار محليٍّ وطنيٍّ واحد: تركيا، رغم أهمية هذا الإطار.

٣- فتح الباب أمامَ باحثين آخرين، بطرح إشكالات جديدة، واقتراح مواضيع جديرة، من مداخل مختلفة، مثل: التاريخ، والفكر، ونظرية المعرفة، وعلوم التربية، والدعوة... الخ.

٤- اكتشاف المفاهيم والنظريات، والمناهج والآليات، والمراحل والخطوات، والوسائل والتقنيات، والعراقيل والمعيقات... التي رسمت خطَّ المسير والمصير في فكر الأستاذ كولن، سواء من خلال ما كَتب، أو ما كتِب عنه، أو من خلال شهادات الأقران والأبناء والصحبة، أو من خلال المشاريع والمؤسسات والمنجزات.

٥- الاستفادة من التجربة في الحقل المعرفي والحضاري الذي أمارس فيه العمل (ابتداء من المدارس العلمية، ومعهد المناهج، والدوائر الأخرى التي أعمل ضمنها في العالمين العربي والإسلامي)، مع مراعاة الحال والمآل، واعتبار الفروق والبيئة والمرحلة.

* * *

ولقد نحوتُ في بداية هذا البحث إلى الشكل المنهجيّ الأكاديميِّ العميق، فخطَّطتُ لمشروع موسوعيّ تحليليٍّ قد يستغرق عدَّة أجزاء، لكنَّه مع ذلك سيستهلك سنواتٍ من العمل الجادِّ المتفرِّغ؛ وهو أمر لا يتسنى لي في هذه المرحلة الراهنة، من جهة. ومن جهة ثانية، لا يحقِّق الغرض الذي أصبو إليه من هذه الدراسة؛ ولذا فضَّلتُ -في الأخير- شكلَ المقالات الحدسية الوجدانية التحليلية العفوية، ذلك أنَّها تولَد من ثنايا التأمُّل، وتستجمع الأطراف المتباعدة بين الفكرة والكلمة والمؤسَّسة... أي بين ما ولد في فكر الأستاذ -ابتداء- وما تحوَّل إلى إنجاز حضاريٍّ لدى جماعة الخدمة -انتهاء-.

وإني لأدافع عن فكرة تفريغ ثلَّة من الباحثين الجادِّين، من تركيا ومن مختلف البلاد الإسلامية والعربية، للتفكير في مشروع موسوعيٍّ تكامليّ، يحوي مختلف الطاقات، ويلج إلى التجربة من باب التخصُّصات المتعددة، أي ما أسمِّية بـ"المطيافية"، معتبرا في ذلك توزُّع المواهب والهبات بين الكتَّاب، وبين الفنون، وبين اللغات... فالمطلق ليس من سمات العمل البشريِّ، والكمال ليس من خصائص الفعل الإنسانيِّ.

ولقد ساعدني، في تحقيق الغرض من هذه الدراسة، التفرُّغ في إستانبول لصائفة كاملة، بعناية خاصَّة من مؤسَّستي "برج"، و"الأكاديميا"؛ وإني لأسجِّل فضل الإخوة والأساتذة: مصطفى أوزجان، وحميد أولكون، وجمال ترك، ونوزد صواش، وأنس أَرْكَنه، وأجير إيشيوك... وآخرين، ممَّن لم يأل جهدا في إفادتي بكلِّ ما يخدم الهدف، وبجميع ما ييسِّر بحثي. فجزاهم الله تعالى خير الجزاء، ولا أجد أكثر من الدعاء لهم بالقبول والتوفيق والرضا، من الله العليِّ الكريم، الذي لا يضيع

أجر من أحسن عملاً. سبحانه وهو القائل: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(الأعراف:٥٦).

ولا يعني التركيز على التحليليّ الموجز أن نؤول إلى التبسيط المخلّ، ولا إلى الاختزال الظالم، ومن ثَمَّ كان لزاما علينا شرح خطر القراءة الاختزالية "**للبراديم كولن**"، شرحا موجزا.

القراءة الوصفية، وخطر الاختزال:

عندما يتعرَّض قارئ لنص أدبي يجد نفسه أمام سيل من القراءات، التي لا آخر لها، لكنَّ الأمر يتعقَّد عند قراءة فكر شمولي أو مشروع حضاريّ من مثل تجربة كولن؛ ومن ثَمَّ فإنَّ الكثير من هذه القراءات لا تتجاوز مرحلة الوصف، ثم تقفز مباشرة إلى الأحكام العامَّة، سواء أكانت سلبية أم إيجابية، وتختزل المقدِّمات لتستعجل النتائج، فتنتهي بنظرة تبسيطية تسطيحية عقيمة.

والقراءة الاختزالية تسطِّح النصوص والوقائع، وتنفي عنها صفة التركيب، كما تنفي عن صاحبها مَلكة الإبداع والتوليد، وتجرِّده عن محيطه وبيئته ومجتمعه، كأنَّه ببغاء في سرب الببغاوات، لا شخصية له، ولا خصوصية، ولا ذاتية، ولا تاريخا، ولا معتقدا، ولا ذوقا، ولا قبولا ولا رفضا...

يعرِّف عبد الوهاب المسيري النموذج الاختزالي بأنه "النموذج الذي يختزل الواقع إلى عدَّة عناصر بسيطة، مستبعداً كثيراً من العناصر والأبعاد مصدر تركيبية الظاهرة (وخصوصاً العناصر الإنسانية المركَّبة). ويتجه هذا النموذج نحو تفسير كلِّ الظواهر (الطبيعية المادية والإنسانية) في يقين كامل وبطريقة شاملة تبسيطية بالغة من خلال سبب واحد أو عدة أسباب"

(موسوعة اليهود، نسخة رقمية، مادة نموذج اختزالي).

ومن عيوب هذا النموذج أنَّه دوغماتي، ينتهي إلى اعتقادات راسخة ثابتة لا تتغير، ولا تناقَش، كأنَّه عقيدة قطعيَّة مطلقة، وبالتالي فهي لا تدَع مجالا للإمكان، ولا للصِّفة البشرية، ولا للنسبية، وإنما هي أقرب إلى الاستحالة، والتأليه، والتعميم.

والنموذج الاختزالي نموذج غبيٌّ وكسول، لا يبذل جهدا في التنقيب عن العلاقات، ولا في سبر أغوار الحقيقة، ولا يستنطق جميع العناصر بتوأدة وذكاء، لكنَّه ينثر المعلومات والتفسيرات كما تنثر حبات القمح على الأرض فرُطا، لا يجمع بينها جامع، ولا يوحِّد بينها موحِّد؛ والنتيجة هي تشتيت الذهن، ودفعه إلى الاسترخاء، وبعثه على الانبهار أو التنكر، وإلى القبول المطلق أو الرفض المطلق، بلا تمييز ولا تدقيق.

وكلُّ هذه النهايات لا تعنينا في بحثنا هذا...

الفصل الأول

نموذج الرشد،
والمنظومة المعرفية الرشيدة

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾

(سورة الجن:١-٢)

نموذج الرشد،
والمنظومة المعرفية الرشيدة

بما أنني سأقرأ "**البراديم كولن**" ضمن **نموذج الرشد**، وهو نموذج طوَّرته ليبحث في مجال معرفيٍّ واحد، وهو: **العلاقة بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل**؛ كان لزاما عليَّ أن أعرِّف للقارئ هذا النموذج، حتى أضعه على الصورة.

من النموذج التفسيري إلى نموذج الرشد

"النموذج التفسيري" مصطلح من إبداع عبد الوهاب المسيري، ولقد استطاع من خلاله اختراق الثنائية الكلاسيكية: "الموضوعية والذاتية"، أو بالأحرى "إمَّا موضوعي وإمَّا ذاتي"؛ يقول المسيري ناقدا الفكر العربي المعاصر: "وفي تصوُّري، إنَّ إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال فكرا مضمونيًّا، أي يتعامل مع المضامين المباشرة، ولا يصل إلى العلاقات المجرَّدة الكامنة، أو إلى **النماذج المعرفية**" (الموسوعة).

ولا ينبغي أن نفهم أنَّ المسيري يقف إلى صفِّ "البنيوية" في مرحلتها المتأخِّرة، والتي تجرِّد النص من أيِّ مضمون، وتحوِّله إلى بنية لغوية مجرَّدة، يلوكها القارئ كما يلوك العلك، ويعطي لها المدلول الذي يريد، حسب مزاجه، وهواه، ومستواه... غير أنَّ المسيري كذلك لا يدافع عن التحليل المضموني الكلاسيكي، الذي يُعنى بالمضمون المباشر، ضاربا

عرض الحائط كلَّ إطار من أيِّ نوع كان، وكلَّ سياق مهما بدا بريئا أو غير بريء، وكلَّ علاقة مهما كانت متينة أو هشَّة.

هنا يدخل **الواقع** معطًى أساسيا في عملية التحليل، حيث تلتصق المدرسة المضمونية **بالواقع** -اللفظي، أو التاريخي، أو حتى الآني- ولا تحاول تجاوزه، فتختزل المعنى في ملاحظات جزئية آنية ظرفية محضة، ولا تتجاوزها إلى الكلِّ، ولا إلى العلاقات الشمولية، ولا إلى الرؤى الكونية، إلا لماما وعرَضا...

وفي سياق التعامل مع النص النبوي الشريف، قدَّم المسيري مثالا توضيحيا بليغا، فقال: "ولنتخيل عالما إسلاميا يتعامل مع الأحاديث الشريفة من منظور المضمون وحسب، لا شكَّ أنه سيفشل في ربطها مع المفاهيم الكلية الإسلامية الأخرى"، ولنقل مثل ذلك عن تفسير القرآن الكريم، من منطلق المضمون، وهو الغالب -للأسف-.

ولا بدَّ من التنبُّه إلى أنَّ العلاقة بين الفكر والواقع، وبين النصِّ والواقع، وبين النموذج والواقع... ليست علاقة بسيطة اختزالية؛ لكنَّها متشابكة معقَّدة لا نهائية، لا تلغي منظور الإنسان ولا "ماقبلياتِه" ولا معتقداته، وإنما تستحضرها وتعتبرها، ولا تخضع كلية لها.

ولسائل أن يسأل: وماذا عن العلاقة بين "النموذج التفسيري" و"الواقع"؟

إنَّ العلاقة بينهما علاقة حلزونية، تذكِّرنا بمدرسة "بحوث الفعل"، التي تجعل العلاقة بين البحث والفعل علاقة حلزونية، وصفتها: "أتَّنا ننحت النموذج الافتراضي عن طريق معايشتنا لواقع ما، وعن طريق تأمُّلنا فيه، وعن طريق قراءتنا وتمحيصنا. وبعد نحت النموذج نُعمل فيه الذهن والفكر لنولِّد علاقات افتراضية، تكثِّفه وتصقله. ثم نعود إلى الواقع فيُنيره

لنا. ولكنَّ الواقع، في كثير من الأحيان، يتحدَّى النموذج فيعدِّله ويزيد كثافته وصقلَه" باختصار، "فالحركة إذن: من الواقع إلى العقل، ومن العقل إلى الواقع".

وهذه الحركة في مجملها هو ما اصطلحنا عليه **بنموذج الرشد**.

نموذج الرشد

يقوم نموذج الرشد على فكرة "النضج"، التي تفترض أنَّ لكلِّ شيء ظروفه الفطرية والطبيعية لكي يصل مرحلة النضج، سواء أكان ذلك ماديا أم معنويا، طبيعيا أم بشريا... ولعلَّ هذا الذي يفسِّر كون الله تعالى خلق الخلق في زمن محدَّد، وهو القادر سبحانه أن يخلقه في أقلَّ من ذلك، أو حتى خارج دائرة الزمن.

خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ويخلق الإنسان في تسعة أشهر، وينضج الثمرة في حول... الخ.

وحكمة هذا الخلق من الله سبحانه تكمن في إعداد ذلك المخلوق لظروف ولسنن يسير تحت إطارها، ولا يخرقها، وهذا لا يعني بالطبع أنَّ هذه الأسباب لها إرادة أو قدرة، أو أنها خارج تصرُّف الله وأمره، تعالى الله عن ذلك.

بل إنَّ الأسباب والمسببات كلَّها من خلق الله وحده، لا تندُّ عن إرادته ولا تقهره، ولا تتصرف خلاف حكمه وحكمته.

وقد يبدو الرشد أو النضج في النباتات والحيوانات وجميع المخلوقات غير العاقلة أمرا بدهيًّا، فتتخذ الوسائل، وتعدُّ العقول لتقبُّل تلكم الظروف والشروط؛ ولكنَّنا لو انتقلنا إلى عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم

المعتقدات، وعالم الأنفس، وعالم الجماعات... فإننا نصطدم بصعوبة إدراك مدلول الرشد، ومعنى الرشد، فنخلط بين الأسماء والمسميات، وبين الحقائق والاحتمالات... ونتيه في كهوف من الأوهام وسقم الأفهام، وقد لا ندرك ذلك، أو قد ندركه ولا ندرك المخرج منه.

يعرِّف الشيخ الشعراوي الرشد، بأنه: "**حسنُ التصرف في الأشياء، وسداد المسلك في علَّة ما أنت بصدده**"(خواطر إيمانية، تفسير سورة الكهف)، وبالتأمل في سورة الكهف عموما، وفي قصَّة ذي القرنين بالخصوص، عرَّفنا الرشد بأنه "**ذاتية اتباع الأسباب**". لقوله تعالى: "وآتيناه من كلِّ شيء سببا، فاتبع سببا" وفي روايةٍ "فأتبع سببا".[1]

أمثلة من الواقع

المثال الأوَّل: خرجت من المسجد في فجر يوم من الأيام، بعد صلاة طيِّبة، بآيات من كتاب الله حكيمةٍ، ومباشرةً عند الباب، حيث كان الناس يلتقطون أحذيتهم، رأيت رجلا وقورا، تبدو عليه ملامح الهدوء والوقار... غير أنه ما لبث أن غير هذه النظرة في ذهني، حيث ألقى بنخامته أرضا، ولم يحسَّ أي تقزُّز أو ذنب أو مخالفة لمبدأ من مبادئ الشرع.

السؤال هو: كيف نصف هذا الانفصام عند هذا الرجل، بين صلاة الفجر جماعة، والإخلال بخلُق عظيم من أخلاق الإسلام، وبخاصَّة أنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا لم تنهه صلاته عن خلق منكر، ومخالفة حضارية؟

هل نقول عن الرجل: "إنه ليس مؤمنا"، أو "ليس مسلما"؟

لكن النصوص لا تُواتِينا، ولا تسمح لنا بذلك؛ فالرجل مبدئيًّا لم

١ للتوسع، انظر المراحل السبعة، في هذا الكتاب.

يقترف جُرما عقديا، أو مخالفة فقهية، فهل نُخرجه من دائرة الحكم، كما هو معتاد في سياق الفكر العام؟

هناك اقتراح ثالث، وهو أن نعبر عن هذا الموقف بنموذج "الرشد"، فهذا الرجل لما يبلغ بعد مستوى الرشد والرشاد، ولم يدرك بعد مرتبة النضج والحكمة، فهو مسلم غير راشد، مؤمن غير ناضج... ولعلَّ هذا الحكم أقرب ما يكون إلى ما يعرف "بخوارم المروءة" عند علماء الحديث، في "علم الجرح والتعديل".

المثال الثاني: في كندا شاهدت موقفا هالني، ذلك أنَّ الناس جبلوا على النظافة، وعلى احترام الأماكن العمومية، فهم من هذه الجهة -أي النظامية الخلقية الجمالية- بلغوا مرتبة الرشد الحقيق، ومن بين الكنديين الآلاف من العرب والمسلمين، جلُّهم من الإطارات الراقية الواعية العالمة، صاحبة المناصب المرموقة في شتى مجالات الحياة...

لكن، في المطار، وأنا متوجِّه إلى بلد عربي، شاهدتُ شبابيك التسجيل للسفر إلى هذا البلد، فإذا أمامها أوراقٌ وأوساخ مرمية تُفسد جمال المطار، وتُذهب رونقه، وتخدش نظافته...

تساءلت: ما الذي دهاهم، وما الذي دفع هؤلاء وهم في هذه البيئة، إلى أن يتصرَّفوا بهذه الطريقة الغريبة الخرقاء؟

أننفي عنهم صفة الإسلام، أو نلغي عنهم حكم الإيمان؟

طبعا، لا، ولكن كيف نفهم المفارقة أنَّ شبابيك بلاد ملحدة، وشبابيك بلاد لائكية... بل كلّ شبابيك العالمين في المطار تتميز بنظافة الأرض حولها، إلا شباك هذا البلد المسلم، ولعلنا لا نستثني بلادا عربية مثيلة؟

هل نظلم الدين؟ أو نشك في الإسلام؟ أو نقول: إنَّ الإسلام دين جاء ليضمن الآخرة، ولا شأن له بالدنيا، كما يحلو لبعض الأفكار والاتجاهات والحركات أن تُفهمنا؟

لا هذا، ولا ذلك... بل إنَّ هؤلاء المهاجرين، رغم أنهم غادروا بلادهم، وتأقلموا مع بلاد متحضِّرة، راشدة ماديا، لكنهم للأسف لم يغيروا "نماذجهم الإدراكية"، فالذي يضبطهم هو النظام والقانون والصرامة، فإذا ما أحسُّوا بالأمن من هذه المهدِّدات تحوَّلوا إلى مناظيرهم وطبائعهم التي تطبَّعوا عليها.

إذن، إنهم لم يرشدوا بعد، والبيئة وحدها لا يمكن أن تحوِّل الإنسان من فرد غير راشد إلى شخصية راشدة ناضجة واعية...

المثال الثالث: بعد سنوات من تولِّي الرئيس الفرنسي جاك شيراك خدمة بلده، وبعد تنحِّيه من السلطة، بدأت فضائح تزويره وخداعه للشعب وللقانون وللأخلاق تطفو على السطح، وتنشر في وسائل الإعلام، وتحدث ضجَّة عالمية عجيبة.

فبماذا نفسِّر هذا التصرف من أعلى نقطة في هرم أحد أعرق البلدان حضارة؟

إننا نقول أولا: إنَّ الرجل لم يؤمن بما كان ينضبط به، لكنه مرغما ومقهورا كان يأتي ما يأتي ويذر ما يذر.

ونقول ثانيا: إنه لم يرشد خُلقيا، وعاطفيا، ودينيا... فهو -على مكانته- قد بقي مراهقا إلى آخر يوم في حياته، ولذا لم تنفعه أي روادع، ولا مواثيق، ولا قسَم بالأيْمان... ولا مراقبة إعلامية لصيقة... لم يمنعه كلُّ ذلك؛ لأنَّه كان قادرا على إخفاء ما يريد، وكان فوق القانون، وفوق

العيون... وكان مع ذلك دون مستوى الرشد... وكم من مسؤول سامٍ، يُحسب له ألف حساب، تجده في هذه الحال من عدم الرشد، وما كتاب "فضائح رؤساء العالم"، و"نساء يدرن دواليب الحكم"... إلخ، إلا دليلا آخر على ما ذهبنا إليه.

الشروط الأساسية للرشد

الرشد حسب النص القرآني، بعد تأمُّل السياق، والتفكُّر في المقدمات، والتدبر في الخواتم، له شروط واضحة بينة، إذا توفَّرت اكتمل بدوُّه، وإذا اختلَّت، أو اختلَّ جزء منها، انهار بناء الرشد كلية، ومن هذه القواعد:

أنَّ ثمة رشدا شاملا لكلِّ مناحي الحياة، ورشدا جزئيا لمجال معيَّن دون آخر، فالراشد -مثلا- في إدارة المال، قد لا يكون راشدا في بناء أسرة، أو في الانضباط أمام الشهوات.

• أنَّ الرشد الشامل هو منتهى الديانات، ومبلغ الرسالات، فالإسلام رشد كله، والرشد جميعه من روح الإسلام ومن طينته، وبهذا نفهم قوله تعالى على لسان الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

• أنَّ الله تعالى هو الذي يهب الرشد لكلِّ من اتخذ أسبابه، فالذي يتخذ الأسباب ليكون راشدا في التطور المادي -مثلا- يوهب ثمرة رشده، ويبلُغ مبتغاه، ما دام قد اتخذ لذلك أسبابه ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢٠).

• أنَّ الرشد منه فرديٌّ ومنه جماعيٌّ، منه نفسيٌّ ومنه اجتماعيٌّ، منه مدنيٌّ ومنه حضاريٌّ... ولا بدَّ من التمييز بين كلِّ نوع، حتى لا نقع في الخلط والخطأ.

• الرشد لا يكون إلا بالصبر، ولا يأتي إلا بعد الصبر والمصابرة...

• الرشد يأتي باتخاذ الأسباب بعد إدراكها، وبالولوج إلى البواطن، وعدم الاختصار على الظواهر.

• الرشد يهيئه الله لعباده بعد أن يستنفدوا كلَّ الوسائل، ويجتهدوا الاجتهاد كلَّه، ويجاهدوا الجهاد جميعَه... فهو ثمرة لجهد، وليس كلأً مباحا للكسالى والمتلكئين.

دعوة إلى فقه الرشد

دافع المسيري عن فقه التحيُّز، وأحدث به ثورة معرفية نادرة المثال، وكان في معرض الحوار بين الغرب والشرق، بين الإسلام والإمبريالية، بين كلِّ ما هو إنسانيٌّ وكلِّ ما هو ضدَّ الإنسان... أمَا وإننا في سياق مختلف، وفي منظومة تعالج إشكاليات الحضارة من زاوية مغايرة، هي زاوية العلاقة بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل، فإننا نقترح إنشاء فقه جديد هو: "فقه الرشد".

ومن خصائص هذا الفقه أنه يعالج أسباب الحضارة، ويقترح مراحل النمو والنماء والتحوُّل من التخلف إلى التحضر، ومن العجز إلى القدرة، سواء في ذلك المستوى الفردي أم المستوى الجماعي.

ففقه الرشد هو امتداد لنظرية القابلية للاستعمار، التي طوَّرها مالك بن نبي، والتي نرى أنها وصفت المشكلة بما لا يدع مجالا للريب، لكنها توقفت عند هذا الحد، ولم تتمكن من عرض الحلول، لا أقول لفظيا أو نصيا، ولكن أقول: حلولا عملية، مجرَّبة، أعطي لها صفة النضج والرشد، فأنزلت إلى الميدان، ثم لوحظت، ثم قيس الفارق بين "ما ينبغي أن يكون"

وبين "ما هو كائن"، بين "المأمول" و"المعمول"... معتمدين في ذلك على الشكل الحلزوني الذي يصقل الطرح ويختبره.

هذا الذي لم يعرضه مالك بن نبي، وله فضل السبق، ولعلَّ منظومة الرشد تتخطَّى هذه العقبة، وتنزل إلى الواقع، ثم تراقَب منهجيا وفكريا وعمليا... إلى أن يحين أوان رشدها، وتسلَّم بعد ذلك لمن أراد أن يبلغ مبلغها، لا على أنها هي الحلُّ الأمثل النهائي، لكن على أنها طريق واضحُ المعالم، ومنهج بيِّن الخطوات، على السالك أن يسلكه بذاته ولذاته، ولا يمكن لأحد أن يطرقه في مكانه ونيابة عنه...

حول المنظومة المعرفية الرشيدة

ليست "المنظومة المعرفية الرشيدة" مدرسة فكرية، ولا مذهبا دينيا، ولا حركة اجتماعية؛ وإن كانت تتقاطع مع كلِّ أولئك فتوافق وتخالف، وتتبنى وترفض، بناء على رؤية فكرية متناسقة...

فما هي المنظومة المعرفية الرشيدة إذن؟

إنها محاولة فكرية معرفية لفهم الواقع والتفاعل مع أحداث العصر، وهي من جهة أخرى تأصيل لأفعال وأعمال فردية واجتماعية من منطلقات متجاوزة متعالية مطلقة، أساسها كلام الله تعالى وكلُّ ما له ارتباط وثيق به؛ لكنَّ نفس التأصيل في مستوى التطبيق يلبس لبوس التجربة البشرية النسبية المحتملة للخطأ، والمدركة لحدود المعرفة الإنسانية القصيرة والقاصرة.

فالمنظومة في مجملها خطٌّ واصل بين الفكر والفعل، ورحلةٌ شاقة من العلم إلى العمل، تجتهد في الإجابة على سؤال طالما ردَّده المفكِّرون والعلماء والفلاسفة، من مختلف الأجناس والمشارب، ألا وهو:

ما العلاقة بين أفكار الإنسان وأفعاله؟

أي: كيف تتحول المعلومات إلى معرفة، والمعرفة إلى سلوك؟

بل إنَّ المنظومة اجتهاد في فهم قوله تعالى بأسلوب السؤال الإنكاري: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، وسعيٌ لإدراك أغوار الحكم الحازم الجازم الذي أعقب السؤال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(الصف:٣).

والمنظومة، من جهة ثانية، محاولةٌ لتطبيق دعاء رسول الرحمة محمد ﷺ، وهو يسأل ربه بقلب خاشع خاضع: "اللهمَّ إني أسألك علما نافعا".

فما هو العلم النافع؟

وما هي أساليب تفعيل المعارف؟

وما هي أسباب القصور في تحويل القرآن الكريم إلى حضارة عالمية في عصرنا هذا؟

وأين يكمن الخلل في كل ذلك؟

أحسب أنَّ الإجابة النظرية لا تسمن ولا تغني، ذلك أنَّ الحاجة ماسَّة إلى نماذج فاعلة فعَّالة تجيب على هذا السؤال العميق، والبراديم كولن، الذي نحن بصدده، هو نموذج من بين هذه النماذج، وتجربة ضمن هذه التجارب، لها خصوصياتها ومواصفاتها، ولها مقدِّماتها ونتائجها. فلنحاول تلمُّس هذه الخطوط الذهبية الرقيقة، مستعينين بالله تعالى. وهو ولي التوفيق.

خاطرة رمزية: الحفر بحثا عن المنظومة

في البدء كان الحفر

منذ أمد وأنا أحفر بحثا عن "منظومة معرفية رشيدة"، فكنتُ كمن تاهَ في بيداء قفر قاحلة، لا يملك من أدوات الحفر إلاَّ يديه؛ فعِوض أن يستسلم للأمر الواقع، أو يكتفي برفعهما إلى السماء، راح يقلِّد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يوم جمعا بين الفعل والدعاء: "وإذ يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيلُ"، هذا هو الفعل، والعمران، والبناء..."ربنا تقبل منا"، وهذا التوكل، والمراقبة، والدعاء... أمَّا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٢٧)، فهو الإيمان بالله، والثقة في حكمته وحكمه...

وهكذا انتظمت الأسبابُ الظاهرة والباطنة، بخيط ذهبيّ رفيق، فآتت أكلها، ولم تظلم منه شيئا، إلى أن بُلِّغت البشرية آمالها في "ربَّنا وابعث فيهم رسولا منهم...".

كان قلبي -وأنا أحفر تحت مخالب الشمس المحرقة- يرنو إلى السماء، لا ليستمطر المُزن فتُلقي عليه الماء، لكن ليلهج إلى ربِّ الأرض والسماء، وربِّ السحب والماء، أن يُعينه على تحمُّل المعاناة واللأواء، بصبر كصبر أيوب... علَّه يحفر "بئرا" دائمة العطاء، تسقيه وتسقي مَن بعده إلى يوم الدين.

سمفونية الحفر

واليوم، وبعد أزيد من عام كامل طوى في الحفر والتنقيب عن "منظومة معرفية رشيدة"، اهتديتُ إلى ثلة من خيار الأمَّة هنا وهنالك في أطراف الصحراء، كأنهم نزلوا من السماء أو نبتوا من الأرض، حتى اكتملت "سمفونية الحفر"، تُزيل النوم عن الجفون، فتندفع القلوبُ راقصة طربا وشوقا، مُعلنة عهد التمكين لدين الله، ولو كره الكافرون.

• انظر أخي... هنالك... من جهة اليمين... رجلٌ مِن قومي، أعرِفه كما أعرف نفسي أو أشدَّ... إنه "مالك بن نبي"... جبينُه يتفصَّد عرقا، وهو يبحث في "مشكلات الحضارة" ويشخص "أدواءها"...

• قريبا منه "عبد الوهاب المسيري"، وأنفاسه تكاد تختنق لهاثا، فهو يُجهد نفسه في التنقيب عن "نماذج تفسيرية" تمكِّنه من فكِّ شفرة "اليهودية والصهيونية... والحداثة وما بعد الحداثة"...

• ترى، من يكون ذلكم الشيخ الفاره القامة، الأزرق العينين، الذي يقف شامخا شموخ جبال "الألب"... وهو ينظر ويعيد النظر، ويتأمَّل ويكتب، ويُغربل وينقِّب في فهم "ثنائيات الحياة": "المادة والروح، الدين والسياسة، العلم والفن..." فيخلص إلى نتائج لم يسبقه إليها سابق...؟

آهٍ... نعم، عرفته... إنه "علي عزت بيجوفيتش"... العالِم العامل، والرئيس الفيلسوف...

• التفتُّ وجهة اليسار، فإذا بعينيَّ تقعان على رجل آسيَوي الطالع، يلبس لباسا مختلفا، ينطق بلغة مختلفة... رأيته وهو يضمُّ الماء إلى

التراب، ويعصر الفكر بالفعل، فتُبعث من بين أنامله أمَّة كاملة من أجداثها... وتخطو خطواتها الأولى فوق صحراء الفكر والحضارة، لتصوغ النموذج لأوَّلِ دولة مسلمة متحضِّرة لم نعرف مثيلا لها منذ أمد... من لا يعرفه؟ إنه "محمد مهاتير"، وإنها ماليزيا... طبعا.

• الحفَّارون بحثا عن الحقيقة كُثرٌ، لا أملك ذكرهم بالاسم، ولا تشخيصهم بالرسم... فمِن الصدر إلى عدون، ومن النامي إلى الغزالي... وبين هؤلاء وأولئك قامات تطول وتقصُر... إنهم جميعا مهُوسون بالحفر، ومنشغلون في إيجاد "الحل" و"المنفذ" و"شعاع الأمل" لأمَّة طال سُباتها، وبدا -يقينا- قربُ استيقاظها لصلاة الفجر: "حي على الصلاة، حي على الفلاح..."

إنه هو ...

في أمسية ربيعية هادئة، كنت جاثما على حفرتي، لعلِّي أزيدُ مترا أو أكثر لعمقها... ألقيتُ بيدي اليمنى دون أن أراها، تماما مثل طفل يحفر خندقا على شاطئ البحر وعيناه إلى السماء... فجأةً، لمستُ يداً، تحسَّستُها، توجَّستُ خيفة... ثمَّ أعدتُ لمسها، فسَرَت قشعريرةٌ في جسدي، وغمرتني طمأنينة وسكينة... قلتُ: "لا بدَّ أنَّ لهذه اليد رأسا، وأنَّ للرأس قلبا... ترى من يكون صاحبُ هذه اليد المباركة؟" لفرط حيرتي تخيَّلته بعيداً عن يديه، لعلِّي أسأل عنه العفاريت، أو لعلَّه سيظهر مع المهدي، آخر الزمان، ولو بعد حين...!

لكن، ما إن خفضتُ عَينَيَّ، ونظرتُ جنبي، حتى شعَّ عليَّ نور جبينه، ورمقتُ عينيه الغائرتين، فإذا بالدموع تهراق فوق وجنتيه، أسفل نظارتين

خفيفتين[1]... وسمعت صوتا خافتا يغمره البكاءُ، وعباراتٍ متقطِّعة لم أفكَّ شفرتها...

استويتُ على ركبتيَّ، ووضعتُ يديَّ -والتراب يعلوهما- فوق ركبتيه، فناشدته الله أن يقول لي: مَن هو؟، لماذا يبكي؟ أيَّ لسان يتكلم؟ وعمَّاذا يبحث في هذه الصحراء المقفرة، إلاَّ بوجوده ووجود أترابه من الباحثين عن الحقيقة، المنقِّبين عن المخرج؟ سرعان ما حوَّل كلامه إلى اللسان العربي المبين، وإذا به يقول: "مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثورون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة..." إلى أن وصل إلى الدعاء: "يا ربِّ، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أما أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا ربِّ يا ربِّ..." فأجهش ببكاء قارَب النحيب، أمدا طويلا، أمَّا أنا فاستمطرتُ عينيَّ بلا جدوى، وعصتني دموعي، ثمَّ جمَّلت بالصبر نفسي، وما أنا بأكثر صبرا منه، لكني -تحقيقا- أقل إدراكا للأعماق، وأضعف وعيا بحال الأمة ومآلها، وأعجز وصفا لخلاصات العشق والأشواق...

التفتَ إليَّ، وكأنَّه لم يرني إلاَّ اللحظة، وقال: "لقد غابت عن واقعنا منذ قرون، منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية، تعتمد على الحركيات الإسلامية التي تشكِّل جذور المعنى لثقافتنا المِلِّية... فتشتَّتنا شذر مذر، نحن وعالمٌ كبير مرتبط بنا... كم أتمنى أن نتجاوز السلبيات كلَّها، وأن نطوِّر نظاما فكريا وفلسفة ملّية تتغذّى من مصادرنا الذاتية".

قاطعتُه باحترام شديد، وحياء كاد يقتلعني، فقلت له: "عجبا، أنا -ولست

---

١ الأستاذ عادة لا يضع نظارات، إلا إذا كان منهمكا في القراءة أو الكتابة؛ ولذا قليلة هي الصور التي تظهره بنظارات- لاحظ: understanding Fethullah Gulen, p٦٢.

إلاَّ تلميذا بين يديك- أبحث منذ شهور عن "منظومة معرفية رشيدة"، ولقد عرَّفتُ الرشد بأنه "ذاتية اتباع الأسباب"، مستنبطا التعريف من أواخر سورة الكهف، من قوله تعالى في شأن ذي القرنين، صانعِ الحضارة: "إنا مكنا له في الأرض، وآتيناه من كلّ شيء سببا، فاتبع سببا"، واليوم أجدني أمام طود شامخ، قطع العقود والسنين، وهو يحفر بحثا عن هذه "المنظومة الذاتية الرشيدة"، فطوى المسافاتِ، وحقَّق انتصارات تتلو انتصارات... أفلا تأذن لي أن أكون جنديا في كتيبتك، وطالبا في مدرستك؟"

كأنَّ "الأستاذ" لم يسمع قولي، ذلك أنه استرسل قائلا: بنيَّ... "يعيش قسمٌ من البشر من غير ممارسة للفكر، وقسمٌ آخر منهم يفكِّر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة. أمَّا ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكِّر، وأن يبتكر أنماطا فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتَّح على آفاق مركَّبات فكرية مختلفة".

أعلنتُ يومها، بصوت عالٍ، يلج إلى أغوار قلبي، ومنها إلى مَن حولي وما حولي: "سبحان الله، ها قد وقعتُ في البئر الذي وددتُ حفره من جديد، لكنَّه بئر قد شقَّ طريقه إلى غد مديد، ووفَّر الماء الزلال للملايين معلنا بزوغ فجر وليد... فما الفائدةُ من إعادة اكتشاف البارود؟ أليس من الحكمة أن أغرف من هذه البئر الطيبة المباركة، لأسهم في سقي العطشى من العالَمين؟"

وما إن انتهيتُ من ندائي، وشرعتُ أتمتم وأحدِّث نفسي حديثا قلقا... و"الأستاذ" أمامي، ركبتاي فوق ركبتيه... حتى شاهدتُ الآلاف بل الملايين من البشر -كأنه يوم إشهاد الذرِّ على نفسها- جاءت من كلّ حدَب وصوب، ووفدت من كلِّ فجٍّ عميق، بعضُهم يحمل دلوا، وبعضهم

يجر خزّانا، وآخرون يضخُّون بالمحرِّكات العملاقة... وفيهم من لا يملك سوى يديه -مثلي تماما-... ولمَّا سألتُ عنهم، وقلت: "من هم؟"، قيل لي: "إنهم شباب الخدمة"، وهم بإذن الله تعالى "أجيال الأمل" و"وارثو الأرض"...

غرفت بيديَّ سلافة الحضارة والتمكين، وشربتُ حتى ارتويتُ، ثمَّ التحقتُ بالركب، قطرةَ ماء في بحر، وذرَّة تراب في فلاة، وأنا أردِّد بصوت عالٍ، ما علَّمنيه أستاذي الساعةَ:

"اليوم يوم الفعال، إن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري... اليوم يوم الفعال، اليوم يوم الفعال..."

فشمَّرت عن ساعديَّ، وواصلت عملية الحفر، ولا أزال...[1]

---

١ خاطرة بمناسبة اختبار طلبة من المناهج في أنقره فتح الله عليهم، وفتح بهم، وجعلهم خلائف للفاتح. ٩ مايو ٢٠١٠م. وقد يسر الله تعالى فوزهم جميعا في الاختبار بامتياز، وهم حاليا يدرسون في تركيا المضياف.

الفصل الثاني

مشكلتا التصنيف والحدِّ الفاصل في "البراديم كولن"

(أو نحو موسوعة لنماذج كولن)

"القرآن الكريم كتاب يعنى بالعمل أكثر مما يعنى بالرأي"

(محمد إقبال، إصلاح الفكر الديني)

مشكلتا التصنيف والحد الفاصل في "البراديم كولن"

مدخل

تعالج نظرية المعرفة مشكلة الحدِّ الفاصل[1]، وعلى إثرها مشكلة التصنيف؛ ويعتقد كارل بوبر أنها أبرز مشكلة في الفكر الفلسفي المعاصر (منطق الكشف العلمي، ص٦٩)، وقد شارك في تحليلها أبرز الأسماء والجماعات العلمية: كانط، وحلقة فيينا، وراسل... وهي تحاول أن تُظهر الحدَّ الفاصل بين العلم بمدلوله الاستقرائي والعلوم الميتافيزيقية التي ترفضها المنظومة الوضعية، لكونها استنباطية.

ولعلَّنا نستعير من حقل الفلسفة المبدأ المنهجيَّ لهذه المشكلة، ونعتمده في تحليل ودراسة "البراديم كولن"، ونتساءل بناء على ذلك:

ما هو الحدُّ الفاصل بين "البراديم كولن" وغيره من التجارب الفكرية والحركية؟

أو، ما هي أبرز الأفكار والأطر الفكرية والعلمية والعملية التي تقع في الحدِّ الفاصل بين "البراديم كولن" وغيره؟

---

١ يقول كارل بوبر: "سنطلق اسم مشكلة الحدِّ الفاصل على مهمَّة إيجاد معيار نستطيع معه رسم الحدود الفاصلة بين العلم التجريبي من جهة، والرياضيات والمنطق من جهة أخرى، ثم بينها وبين النظم الميتافيزيائية" (منطق الكشف العلمي، ص٦٩).

أو، متى يُعتبر الإنسان عضوا في الخدمة؟ ومتى يعدُّ خارجا عن إطارها؟

وأسئلة أخرى كثيرة....

تميل بعض الفرق والجماعات إلى إحياء طقوس الالتحاق، يُعلن فيها مريد الانتماء إليها ولاءه وإخلاصَه لها، مِن يومها يصير فردًا من أفرادها، وجنديًّا في صفّها، منسوبا إليها، معدودا في حسابها.

وتفضِّل حركات أخرى جملة من المبادئ أو القواعد، مَن التزم بها كان منها، ومن لم يفعل لا يعدَّ ضمنها، ومثال ذلك "الأصول العشرون لحسن البنا"، التي هي أساس حركة الإخوان المسلمين، وكذا "المبادئ الستة" لجماعة الدعوة والتبليغ، التي يتبناها كل عضو تبنيا كاملا.

لكن، هل لدى أبناء مؤسَّسة الخدمة قواسم مشتركة، وصيغة لإعلان الانتماء والولاء؟

ويزداد السؤال إلحاحا في مستوى عامَّة الناس، الذين لا يستوعبون الأفكار العميقة، ولا يطالعون المؤلفات الطويلة، ولا يدركون أبعاد النصوص الدقيقة... ومن ثمَّ يتعيَّن هذا السؤال: هل مثل هؤلاء أعضاء ومنتمون للخدمة؟ بماذا؟ وكيف؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، ينبغي أن ننبه إلى جملة من الملاحظات الجوهرية التي نحتناها بمطالعة المصادر المكتوبة، وبمعاينة الوقائع اليومية لحركة الخدمة، منها:

١- أنَّ فتح الله لم يصرِّح يوما أنَّه يريد تأسيس حركة معيَّنة، أو جماعة مخصَّصة؛ وإنما نشاطه الدعويُّ، وإخلاصه الإيمانيُّ، وتبحُّره العلميُّ... كلُّ ذلك دفع الناس إلى تقبُّل منهجه، والسير على إثره. يعرض فتح الله في

"الموازين" طريقة ميلاد ونمو كلِّ مشروع، فيقول: "يبدأ كلُّ تقدُّم بفكرة معيَّنة وتصوُّر معيَّن، ثم يتمُّ قبول هذه الفكرة من قِبل الجماهير، ثم تتحقَّق بجهود الأفراد المتكاتفين معاً في هذا السبيل. ولكن إن لم يكن للعلم نصيب في تخطيط هذه الفكرة، أو لم يُسمح للعلم بذلك، فكلُّ جهد وكل تعبئة عامَّة لإنجاحها محكوم عليها بالفشل"(ص٨٩). وبشيء من التأمُّل نجد أنَّ الأستاذ كان صاحب تلك الفكرة والتصوُّر، وأنَّ الجماهير تحوَّلت بعد القبول إلى الخدمة.

٢- أنَّ أبرز صفة في مؤسَّسة الخدمة هي "المرونة والليونة، والتحرُّر من القوالب والأنماط"؛ ولذا فإنَّ "البراديم كولن" راعى الظروف والأحوال مراعاة كاملة، فتطوَّر ونما، وغيَّر في الوسائل والأدوات، ولم يتحجَّر داخل قالبٍ واحد، شأن بعض الجماعات والحركات.

٣- أنَّ الأستاذ كولن ليس زعيما روحيًّا، بما تحمله هذه الصفة من معان إيجابية وسلبية؛ فلم يقبل يوما أن يُعدَّ كذلك[١]، لكنَّه "مرشد"، و"موجِّه"، و"نذير"، و"مجتهد في رسم الخطط والمقترحات"... تاركا لكلِّ منتمٍ إلى الخدمة مساحةً كبيرة للحرية والإبداع في الحركة والتطبيق... مُعتبرًا في ذلك اختلاف المواهب والقدرات، وتباينَ المدارك والعطاءات...

٤- إذا اعتبرنا النقاط السابقة فإنَّ الخدمة لا تصدق عليها الأسماء المعهودة والمألوفة، من مثل: الجماعة، والحركة، والمؤسَّسة... بل تتجاوزها إلى "تحوُّل في البراديم" (أوغلو، تحول البراديم)، أو إلى "براديم

١ عنوَن حسين كولرجه (Hüseyin Gülerce) مقالا له عن الأستاذ بعبارة دالة على ما ذكرنا، وهي عبارةٌ قالها الأستاذ عن نفسه، في لقاء خاص، قال فيها: "ما أنا إلا فتح الله، ابن رامز"، وزاد في المقال: "أنا إنسان عاديٌّ، ولست مختلفا بأيِّ شيء عن الآخرين" (وكالة جيهان، أكتوبر ٢٠١٠).

جديد" (كوهن، بنية الثورات العلمية)، وليد إرهاصات ومعاناة طالت حقبة تاريخية برمَّتها؛ ولعلَّ أبرز دليل على هذا الحكم أننا وجدنا أقرب المصادر إلى الأستاذ، وأكثر المستوعبين لفكره[١]، وأنشط العاملين في الخدمة، لا يتَّفقون على صفة معيَّنة، ولا مصطلح بعينه؛ ونحن نعتقد أنَّ هذه السعة نقطة قوَّة للمشروع، وسبب من أسباب المدِّ الحركيِّ الفعليِّ...

٥- أنَّ أقرب وصف إلى مؤسَّسة كولن، إذا ما غضضنا الطرف عن مصطلح البراديم، الذي قد يصعب استيعابه، هو كونها: مشروعا حضاريا شموليا عالميا، منطلقه أخلاقي تربوي، فهو ليس حزبا سياسيا، ولا جماعة دينية، ولا مدرسة فلسفية، ولا طريقة صوفية.

معالم في الحدِّ الفاصل

والآن بعد رسم المعالم الكبرى لتصنيف الخدمة، ووضع المشروع في خانته اللائقة، نعاود الكرَّة في طرح السؤال عن الحدِّ الفاصل في الانتماء، ونقرِّر جملة من النقاط، هي:

١- كلّ المنتمين إلى الخدمة مُجمعون على كون الأستاذ هو المؤسس، وأنَّ فكره هو المنطلق، وأنَّه صاحب المخطَّط النظريِّ، وهو الراعي للتطبيق والإنزال إلى أرض الميدان، ولا يزال. فليس في هذه النقطة جدال ولا اختلاف.

٢- لا يختلط على أحد كون أبناء الخدمة مختلفين جدًّا، وليسوا قالبا وشكلا واحدا، سواء في لباسهم، أو رؤاهم، أو مستوياتهم... مع وجود

---

١ في حوار مع الدكتور إحسان يلمز، المتخصِّص في فكر الأستاذ، بجامعة فاتح، أكَّد لي هذا الحكمَ، وتحدَّث عمَّا سماه بدار الخدمة، إضافة إلى دار الإسلام، ودار الكفر. ثم إننا اتفقنا على أنَّ مصطلح "الخدمة" وحدَه، مجرَّدا من أيِّ إضافة، قد يكون دالاًّ على الحركة دلالة ممتازة.

قاعدة اتفاق، سنحاول الكشف عنها باستنطاق النصوص، والمؤسسات، والأشخاص، والحوادث، والإشارات.

٣- لم نسجل لفظية[١] في كلام أبناء الخدمة، فليست ألفاظهم وعباراتهم من قبيل المحفوظات والمكرَّرات، ولا هي واحدة في كلِّ مكان، وعند أيِّ إنسان... ولقد تتبعتُ حركةً من قبل، لها شأن ومكانة في بلدها، غير أنَّ أعضاءها على كثرتهم يُعيدون نفس الكلام الذي صاغه المؤسِّس، لا يزيدون ولا يُنقصون، فيدفعون إلى الملل، ويُعطون إشارة إلى قتل المواهب والفروقات...

٤- يظهر الحدُّ الفاصل -ابتداء- بين الخدمة وغيرها، في الميزات الآتية:

أ- السمت الإيمانيِّ التربويِّ الأخلاقيُّ.

بـ- مصدرية القرآن الكريم والسنة النبوية

جـ- كثرة الذكر والفكر، بناء على محور "أسماء الله الحسنى".

د- الحبُّ الشديد للرسول ﷺ، والاجتهاد في اتباع سنته.[٢]

حـ- الفهم الشموليُّ الكونيُّ العميق للإسلام.

ط- الحركية وإرادة الخدمة والنفع، والتفاني في زرع الخير والبر، بلا هوادة، بناء على مقولة الأستاذ: "اعملْ الخيرَ ثم انْسَه، ثم انسَ أنَك نسيتَه".

---

١ عن مشكلة اللفظية في الحركات الإسلامية، انظر- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. ص٣٩ وما بعدها.

٢ يذكر أنَّ الأستاذ فتح الله ألف كتاب "النور الخالد"، وطبع منه أكثر من مليون نسخة، ثم ترجم إلى عدَّة لغات. وقد التقيت بشاب من شباب الخدمة، له كتاب مبسط في السيرة النبوية، في جزأين، نشر منه في السنة الأولى مائة ألف نسخة، وفي السنة الثانية أربعمائة ألف نسخة. ولهذه الأرقام دلالتها ومعناها.

يـ- الجمع بين القلب والعقل والجوارح، أو بين الوجدان والفكر والعمل.

كـ- الاستعداد غير المشروط للحوار والتسامح وتقبُّل الآخر.[١]

لـ- عدم التعلُّق بشكل الأمور ومظهرها، مع الاهتمام الشديد بالمحتوى والفحوى.

مـ- العناية الفائقة بالتفاصيل والذوق الجماليَّ والفنَّ الراقي.

لعلَّ أصول هذه الحدود الفاصلة وهذه المعالم الذهبية السبك، تطلب من مؤلفات الأستاذ كولن: التلال، والموازين، وصرح الروح، والترانيم، والنور الخالد... وتصقل مع الوقت من خلال مقدَّمات مجلتي "الرشحة"، و"حراء"... ولا شكَّ أنَّ دروسه السمعية تحتل مكانة عالية في مصادر الأستاذ، لكن لكونها باللغة التركية حرمنا من خيرها وأثرها العميق.

وتتبع النماذج التي تعتبر عنوانا ودليلا على "البراديم كولن"، وتعدُّ رمزا ومؤشِّرا للحدِّ الفاصل بينه وبين غيره، يحتاج إلى إعمال العقل التوليديِّ، ويستوجب العزوف عن القراءة الوصفية المرتجلة، ويفرض علينا الاعتراف أنَّ ما نقوم به في هذا السبيل، وفي هذا البحث بالذات، ما هو إلاَّ مقدِّمة، ومدخل، ومحاولة؛ لعلَّ الإنجاز يكتمل بعد سنين، وفي إطار فريق للبحث، إن شاء الله تعالى.

والميزات التي سردتُها تباعا، ستجد التحليل والتطبيق في ثنايا فصول هذا البحث، مع ملاحظة أنَّ تشكُّل هذه النماذج يأتي بصيغ شتى، لا بصيغة واحدة. من أبرز هذه الصيغ:

١- **الصور المجازية**: وهي من أصدق الملامح إلى الرؤية الكامنة في

---

١ انظر: John L. Esposito and Ihsan Yilmaz: ISLAM and Peacebulding.

ذهنية الكاتب، ومن أحسن الوسائل للولوج إلى عمقه وإلى ماورائياته، وبخاصَّة عندما يكون المؤلِّف لهذه الصور واعيا بها وعيا تامًّا، دقيقا في توظيفها دقَّة بالغة، نابعة من ذاته لا من محفوظاته، ونحسب كولن من هذا الصنف، وهو الأديب المفكر، والعالم العامل.

يقول المسيريّ في بيان أهمية هذه الصور: "الصور المجازية منبع خصب للوصول إلى النماذج التحليلية أو الكامنة، فالصورة المجازية ترجمة مباشرة غير واعية أحياناً لطريقة تنظيم النص. ولذا، لا بدَّ وأن يحاول الباحث رصد التعبيرات المجازية وتحليلها؛ لأنَّه سيصل من خلالها إلى الأنماط الكامنة في النص"(الموسوعة، ج١).

٢- **العبارات الموجزة العميقة (الحِكَم)**: ولم نجد كاتبا اهتمَّ بهذا النوع من العرض في الأدب والفكر أكثر من كولن، فأغلبُ المفكِّرين والكتَّاب والعلماء يميلون إلى المقالات الطويلة، وقد تُستخرج من بين ثنايا هذه المطوَّلات جواهر ولآلئ تضيء سبيل الفهم، وتنوِّر طريق الإدراك؛ لكنَّ كولن عمد إلى صناعة ما يشبه "الكابسولات" المغذية للروح والفكر، وبناءِ النماذج المؤسِّسة للحركية والفكر؛ وذلك منذ بدايات مسيرته في السبعينيات، وهو في الثلاثين من عمره؛ ذلك أنَّه كان يودِعها دفاتر خاصَّة،[1] إلى أن شاء الله تعالى إصدار مجلَّة "الرشحة"، فصار يُخرجها جوهرةً جوهرة، وعمد الناشرون من شباب الخدمة إلى ترصيع صفحات المجلَّة بها، باسم مستعارٍ أحيانا، وبغير اسم الكاتب أخرى، ثمَّ جُمعت وأودعت كتاب "الموازين أو أضواء على الطريق" والعنوان دالٌّ على الغرض والمطلوب (جمال ترك، وأنس أركنه، حوار خاص).

١ أهدى لي الأستاذ جمال ترك، مأجورا، نسخةً من هذه الدفاتر، مصوَّرة من الأصل، مكتوبة باللغة التركية، بحرفها العربي العثماني، لا بالحرف اللاتيني.

ثمَّ إنَّ "حراء" راحت -بخطواتها الوثابة- تنشر "صورا معبِّرة" عليها تعاليق، على شكل أصداف أدبية يبدعها الأستاذ من محض خياله، ثمَّ يجمع بينها وبين اللون والحركة والزمن في نسيج عجيب، يقول الدباغ: "ولغة الروح التي يعرفها الأستاذ فتح الله جيِّدا، قراءةً وكتابةً، هي التي تُملي عليه أفكارَه فيقيِّدها في المتن القصير والعبارة الموجزة، هذه المتون والعبارات والحكم قد يستغرق شرحها عدَّة صفحات"(ألوان، المقدِّمة).

ولقد ازداد إعجابي يوم سألت رئيس تحرير حراء عن العلاقة بين الصورة والعبارة، وعن أيهما أسبق؟ فقال: "في الغالب، نحن نعطي للأستاذ صورة فوتوغرافية أو لوحة فنية، ويقوم هو بالتعليق عليها" (نوزاد صواش، لقاء خاص). وما من شكٍّ أنَّ الأستاذ كان يُطيل التفكير والتأمُّل ليخلص إلى أبلغ معنى في أوجز مبنى؛ وقد أحسن الإخوة إذ أودعوا هذه النماذج كتابا بعنوان "ألوان وظلال، في مرايا الوجدان"، ترجمه الدباغ إلى العربية ترجمة موفَّقة.

هذه النماذج المودَعة نصوصا قصيرة مقصودة لذاتها، يمكن أن يضاف إليها نماذج تستخرج من مقالات مطوَّلة، بإمعان وروية.

٣- **التصرُّفات العفوية، والسلوك الواعي**: ومصدر آخرُ للنماذج في "البراديم كولن"، يمكن نحته بتأمُّل تصرُّفات الأستاذ، وكذا تصرُّفات أبناء الخدمة في سلوكهم اليوميّ، وفي حركاتهم وسكناتهم، وفي عالمهم الجماليِّ والفنيِّ؛ فمثل هذه التصرُّفات غير المتكلَّفة هي "جينوم الفكر"، أو هي "الخريطة الجينية الإدراكية للمؤسَّسة"، يرتسم عليها كلُّ تفصيل حول المنهج، ولا يخطئ أبدا، يقول كولن في هذا المعنى: "كلُّ إنسان يعكس طبيعته وأخلاقه بتصرُّفاته وسلوكه"(الموازين، ص٢٠). والشرط الوحيد

في التوفيق إلى اكتشافها هو أن تتمَّ المعاينة برهافة وحدس صادقٍ، وأن لا تختلط بالأمثلة المشوّشة الفردية التي لا تعبِّر عن الضمير الجمعيِّ للمشروع.

وهذه التصرُّفات تلاحظ وتستنتج بمعاشرة الإخوة في الخدمة معاشرة صافية بريئة، لا بغرض تصيُّد الزلاَّت والهنات، ولا بمنطلق الانبهار والملائكية الزائفة؛ فأبناء الخدمة بشرٌ، بكل ما تحمل كلمة البشر من شحنة ومعنى؛ فالنظر إلى الغالب والنسبي، لا إلى الكليِّ والمطلق.

وقد سهَّلت لي أسفاري العديدة، وكذا تفرُّغي في الأكاديميا، مهمَّة الكشف عن هذه الإشارات والدلائل على التصرُّفات العفوية، والسلوك الواعي؛ غير أنَّ المعاينة والمعاشَرة كلَّما كانت أطول، كانت أقرب إلى الحقيقة والمبتغى.

هذه مصادر ثلاثة لاستنباط نماذج "البراديم كولن"، وهي باختصار:

الصور المجازية.

العبارات الموجزة العميقة (الحكم).

التصرُّفات العفوية، والسلوك الواعي.

وسنعرض أمثلة لكلِّ مصدر، على أن ندفع إلى استكمال خطِّ الفهم بتأليف موسوعة كاملة شاملة لنماذج "البراديم كولن"، ونرجو أن تكون موسوعة بديعة، جديدة ومفيدة.

الصور المجازية

سنقتصر على عرض عنوان النموذج، والنصِّ الذي استخُرج منه، والعناوين القصيرة البارزة التي تشكِّل النموذج، تاركين التحليل الموسَّع

لمناسبة أخرى، ذلك أنَّ كلَّ صورة مجازية تصلح "عملا أدبيا" للأطفال، أو حتى للكبار، وتصلح في ذات الوقت مقالا فكريا فلسفيا للمتخصصين؛ لكنَّ أفضل شكل يمكن إيداعه فيها هو المقرَّر التربويُّ في مختلف الفنون، وبمختلف المستويات؛ وكولن مربٍّ قبل كلِّ شيء.

١. نموذج النمل:

ورد في افتتاحية حراء، العدد الثامن عشر، بعنوان "رسالة الإحياء"، هذا النص:

"الواجب علينا الآن -مع وضع هذه السلبيات نصب أعيننا-، أن نضع أمامنا أهدافا سامية نتخذ في سبيل تحقيقها قيمنا الذاتية أسسا لصياغة سياسات ومشاريع مستقبلية، حتى يتحقق الاستقرار في سياساتنا... وإذ يتحقَّق الاستقرار في السياسات، نتمكَّن من استخدام هاتين القوَّتين في الاتجاه عينه، من غير السماح للصِّدام بينهما. ونقول "من غير الصدام بينهما"، لِعلمنا بأنَّ أيَّ نشاط أو حركة معيَّنة، مهما تمثَّلت بمشاعر مخلصة، قد لا تكون بنّاءة دائماً. إنَّ النية الخالصة جديرة بالتقدير باعتبارها بُعداً معنويا في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسه البتَّة إذا كانت وصفاً من أوصاف العمل الخاطئ. إنَّ أيَّ حركة من الحركات قد تكون بنَّاءة أو هدَّامة حسب أنماط عرضها. وإذ يفيد العقل والمنطق والمشاعر قيمة في أيِّ مخطط أو مشروع، فإنَّه من المهمّ جداً وجودُ تمثيل سليم ومتين له، إلى جانب انعدام الثغرات العاطفية. وأحيانا قد تُبيد الأعمال بعضها بعضاً بـ"التعارض" و"التساقط"، وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيراً وصالحاً؛ فعندما يحاول أفراد النمل أن تنقل مادة إلى خليتها، فتتشوّش بموجات الحسِّ المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها

الانسياقي المشترك، يَسحَبُ بعضُها إلى جهة وبعضُها إلى جهة أخرى... فتبدَّد طاقتها كلّها ثم لا تتقدَّم إلى الهدف. كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومثُل عليا، أو وُجِدت ولم تمتلك معهما جاهزية ذهنية تناسبهما، تجدها تتحرَّك باستمرار، لكنَّها لا تقطع شوطًا؛ لأنَّ قطع الأشواط يتطلَّب -منذ البداية- تعيينَ هدف سام يوقِّره الوجدان ويُرغِّب فيه الانسياق الذاتي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة".

هذا النصُّ -الذي يصعب بترُه- دستورٌ لعمل الجماعات، ومنهج متكامل لضمان نجاحها، ونموذج "حسَّاس مرهف" في فهم ما يحدث في فكر كولن، وفي أفكار أبناء الخدمة، وهم يصوغون أفكارهم ويمارسون مشروعهم في مختلف الميادين. وأبرز عناوينه:

وضع السلبيات نصب الأعين.

صياغة أهداف سامية.

القيم الذاتية أساس لكل سياسة ومشروع مستقبليٍّ.

الاستقرار في السياسة مطلب ومبتغى.

لا يُسمح بالصدام بين القيم والوسائل.

النية الخالصة ضرورة، لكنها لا تكفي وحدها، بل يجب أن يكون العمل صائبا كذلك.

نمط العرض (How) محدِّد أساس لقيمة الحركية سلبا وإيجابا.

إنَّ أيَّ مخطَّط يحتاج إلى: العقل والمنطق والمشاعر، وإلى التمثيل السليم والمتين له، إلى جانب انعدام الثغرات العاطفية.

خيرية الأعمال لا تضمن لوحدها عدم التعارض والتساقط.

أبرز أسباب التعارض والتساقط: موجات الحسِّ المؤقَّت، واختلاف الأهداف... فالواجب السير بناء على إيقاع ضمن برنامج انسياقي مشترك.

الجاهزية الذهنية والانسياق الذاتي "في نشوة كنشوة العبادة" سرُّ تطوُّر المؤسَّسات.

على قيادة كلِّ مشروع أن تصوغ منظومة سليمة وتفعِّلها، معتبرة الظروف والبئية (مبدأ التصريف).

لا مناص من تسخير التراكم العلميِّ والمعرفيِّ والتجربة والطاقة الكامنة لصياغة المنظومة.

٢. نموذج المهندس:

وفي "رسالة الإحياء" نموذج آخر، يضبط مسؤولية مهندسي المشاريع والمجتمعات، فيقول الأستاذ:

"ينبغي أن يكون الهدف السامي، الذي يلهب الحماس في صدور الناس ويدفعهم إلى التحرك، هدفا منضبطا بضوابط معينة، ومرتبطا بنظام معين. فإن كنتَ مهندساً، فعليك أن تُعِدّ العدَّة قبل البدء بإنشاء صرح، فتتفحص متانة عناصره وسلامتها، وانسجام آحادها فيما بينها ومشاركتها في جماله ومظهره. وهل يتحقَّق الكمال من غير توافر التوافق والمواءمة والانسجام في الأجزاء كلِّها!؟ إنَّ الهمم والحملات الفردية، إنْ لم تنضبط بالحركة المشتركة ولم تنظَّم تنظيماً حسنا، ستؤدِّي إلى تصادم بين الأفراد

لا محالة... فيختلُّ النظام، وتنهض كلُّ حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتُنقص كلُّ عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر، كما في حاصل الضرب لكسور الأرقام ببعضها في الحساب. وكما أشرنا سابقا، ينبغي أن لا تُطفأ جذوة طاقةٍ فردية البتة، باحتساب ضرر قد تسببه. بل على العكس، تجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، وتوجَّه إلى مجرى الغاية المأمولة المعينة والهدف المنشود، ويزاح خُلُق المصادمة في النفوس ويقَرَّ عقل التوافق بدلاً عنه، بل الأحسن أن يُطَبَّع كل إنسان بهذا الطبع".

وردت هذه الفقرة في نفس سياق "نموذج النمل"، وفي نفس المقال، ولكنها تحمل دلالات إضافية على الحدِّ الفاصل في "البراديم كولن"، وتتوجَّه إلى القيادة قبل توجُّهها إلى القاعدة، ويمكن استنباط معالم موجزة من النصِّ، تسهم في فهم النموذج، وقد تتكرَّر قاعدة أو عبارة فتدلّ بتكرارها على عمقها في فكر الأستاذ، وعلى ضرورتها في حركة الخدمة.

من هذه القواعد نذكر:

- ضرورة انضباط الهدف السامي بضوابط معيَّنة، وارتباطه بنظام معيَّن.

- على المهندس أن يعدَّ العدَّة قبل البدء.

- من بديهيات إعداد العدَّة: تفحُّص متانة العناصر وسلامتها، وانسجام الآحاد فيما بينها، ومشاركتها في جمال الصرح ومظهره.

- كمال المشاريع منوط بالتوافق، والمواءمة، والانسجام.

- الحملات الفردية التي لا تنضبط بالحركة المشتركة، ولا تنظَّم تنظيما حسنا، تؤدِّي إلى التصادم حتما.

- إذا حدث التصادم اختلَّ النظام، ونهضت كلُّ حركة عكس الأخرى، وقرب الناتج من الصفر.

- لا يجوز إطفاء جذوة طاقة بأيّ مبرِّر كان.

- الواجب توجيه الطاقة نحو غاية عالية وهدف.[١]

- على القائد العمل على إزاحة خلُق الصدام من النفوس، وإحلال عقل التوافق في النفوس، بالتربية لا بالشعارات.

- الأحسن أن يصيَّر عدم التصادم طبعا في نفوس الناس، بالتطبيع والتربية؛ حتى لا يأتي تكلُّفا.

٣. نموذج الشمس والظل:

في مقال "المؤمن لا يسقط وإن اهتزَّ" يَعرض الأستاذ المنهجَ السحريَّ الذي يتلقَّى به المؤمنُ جميع العراقيل والمشاكل، وكيف أنَّ غيره غالبا ما يسقط في وهدات اليأس والقنوط. فيقول:

"إن الصورة الحالية للأوضاع صورة مرعبة، ولكنّ تجاوز هذه الأوضاع وتخطِّيها بالإيمان والأمَل والتوجُّه إلى الله ليس مستحيلاً. فإن سار الإنسان نحو الشمس أو طار فإنَّ ظلَّه سيكون خلفه، ولكن إن أدار ظهره للشمس فإنّه يبقى خلف ظلِّه. لذا يجب أن تكون عيوننا مصوَّبة على الدوام إلى المنبع اللانهائي للضوء. أجل، إنَّ كل شيء كما عبَّر عنه الشاعر التركي

---

١ يذكر المؤرِّخون أنَّ القائد الفذَّ "محمد الفاتح" لما تولى الإمارة، جاءته القبائل والبطون تشتكي من سوء حالها، ومن تدهور العلاقات بينها... فعوض أن ينشغل القائد بإطفاء الحرائق، فكَّر في تسطير هدف كبير، ودفع الجميع إليه؛ فكان الهدف هو "فتح القسطنطينية"؛ وكانت النتيجة ذوبان المشكلات الصغيرة، وبروز قضية واحدة، كبيرة عظيمة. فصدق فيهم حديث المصطفى ﷺ "نعم الأمير أميرها، ونعم الجيش جيشها". كذلك فعل فتح الله مع أبناء الخدمة، فحققوا ما حققوا.

"محمد عاكف" مرتبط بـ"الاستناد إلى الله، والتوسل بالسعي، والاستسلام للحكمة""(حراء، عدد ١٧).

لا ريب أنَّ هذه الصورة المجازية التي أبدع الأستاذ في رسمها، تُبهر العيون، وتدفع القلوب إلى احتباس أنفاسها، وتدعُّ العقول دعًّا نحو الحكمة والبصيرة؛ وأبرز ميزة في هذه الصورة أنها ذات تمثل فزيائيّ دقيق، لا يدركه إلاَّ من اكتملت الصور المعرفية في عقله؛ ونكاد نجزم أنَّ هذه الصورة البلاغية أساسها قول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾(الفرقان:٤٥). ولكنَّ الجديد عند الأستاذ هو هذا التوجيه الحركيُّ الحضاريُّ، الذي يشدُّ الفكرة إلى الفعل بميثاق غليظ، ويولِّد فهما جديدا متجدِّدا لكلام الله تعالى، وللحكمة المطلقة في كتابه الكريم.

ومن القواعد التي نصوغها لِصقل النموذج وتكثيفه، نذكر ما يلي:

- الاعتراف بأنَّ الوضع الحاليَّ مرعب ومقلق.

- الإقرار أنَّ تجاوز هذا الوضع ممكن وليس مستحيلا.

- ولا يكون التجاوز إلاَّ بشروط ثلاثة: الإيمان، والأمل، والتوجه إلى الله وحده.

- حتى يكون الظل (المشاكل والعقبات) خلفنا، يجب أن نتوجَّه دوما إلى المنبع اللانهائي للضوء (الله تعالى).

- كلُّ شيء في الوجود مرتبط بـ: الاستناد إلى الله، والتوسل بالسعي، والاستسلام للحكمة.

٤ . نموذج القماش الزاهي:

الإسلام شيءٌ، وفهم الإسلام شيءٌ آخر؛ فقد يرتقي الفهم ويلج بابَ

الحقيقة كاملةً، وليس ذلك إلاَّ للأنبياء والمعصومين، وقد يسمُو الفهم إلى علياء الحقيقة، ويغترف منها غَرْفا تَرويه وتسقي مَن حوله، وهذا حظُّ الأولياء والأصفياء والمقرَّبين؛ وهكذا يبهتُ خطُّ الفهم ويسَّاقط حتى يتدنَّى إلى بئرٍ لا قعرَ لها، وذلك حين يقع الدين ضحية بين أنياب الدجَّالين، بالفكر أو بالفعل، فينهشوه نهشًا، ويُخرجوه قيئًا تعافُه البهائم وذوات المخالب.

وكولن شموليُّ الفكر والفهم لكُنه الإسلام، أوتي حظًّا وافرًا من سعة الأفق وبُعد النظر؛ حتى إنَّ أحد المحللين الشباب قال: "فكرُ الأستاذ شموليٌّ لا يدركه إلاَّ من كان شموليًّا مثله، وإلاَّ لم يدرك منه إلاَّ كما يُدرك الأعمى من حقيقة جسد الفيل" (جمال ترك، بتصرف).

وفي آخر مقال بعنوان "أثناء استكشافنا خطَّ السير"، يصوغ فتح الله نموذجا في هذا السياق، مما جاء فيه:

"إنَّ الإسلام، إذ ينظِّم بالكتاب والسنَّة حياة الدنيا والعقبى للمؤمن، وحال اعتقادِه وعمله، وكيفية عبادته وأخلاقه، يهمس في الوقت نفسه من خلال الأسطر بأشياء أخرى من عالم الامتداد إلى الأبعاد، في أذن دنيا الإنسان الروحية والعقلية والقلبية والوجدانية والحسية، مولِّداً في أغوار ذاته أنساماً أخروية ومشاعر لاهوتية التلوُّن، ليحييه في كلِّ آن مرَّة أخرى في بُعدٍ آخر. يُحييه، ليجد الإنسانُ نفسه في موقع خلافة الله تعالى، وحالِ المداخلة في الأشياء، ومقامِ الفهم والاستقراء لأسرار سنَّة الله. ثم يَرى ويستشعر في كتاب الكائنات النابع من مصدر الإرادة والمشيئة، وبيانه المبين المترشح من نبع كلامه تعالى، كأنهما وجهان لواحد... ويوازن تصوَّرَه وفكرَه، وحياتَه وتصرفاتِه، وملاحظاتِ دنياه

وأخراه، بالموازنة التي في الأرض والسماء.

نعم، إنَّ الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمَّة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق. ولئن تقدَّم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أيٍّ منهم أن يصوِّر الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبِّر عنه"(ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٣).

أبرز القواعد والمبادئ التي تشكل نموذج القماش الزاهي، تتمثل في الآتي:

- الإسلام ينظِّم بالكتاب والسنة حياة الدنيا والعقبى، معاً. وينظِّم الاعتقاد والعمل، سويًّا. وينظِّم كيفية العبادة والأخلاق، في آن واحد.

- الإسلام يدفع -علاوة على ما تقدَّم- إلى التوجُّه نحو الأبعاد الممتدَّة اللانهائية: نحو الأنسام الأخروية، والمشاعر اللاهوتية التلوُّن.

- يهمس الإسلام في كلِّ أذن من آذان الإنسان: الروحية، والعقلية، والقلبية، والوجدانية، والحسّية... خارج دائرة الصراع بين العقليين، والحسيين... الخ.

- الإنسان -بنداء الإسلام المتكامل- خليفة لله في الأرض.

- بِذَات النداء يصل الإنسان حالَ المداخلة في الأشياء، ومقامَ الفهم والاستقراء لأسرار سنة الله (والمقام لا يستلزم الإطلاق).

- يجمع الإنسان بين كتاب الكائنات، الذي هو من تجليات صفتي الإرادة والمشيئة، وكتابِ التنزيل، الذي هو من تجليات صفة كلام الله تعالى.

- على الإنسان أن يوازن، بميزان الأرض والسماء، وبميزان الأسباب وأسباب الأسباب، كلَّ شيء فيه: تصوُّرَه وفكرَه، وحياته وتصرفاته، وملاحظاتِ دنياه وأخراه.

– مادة **القماش الزاهي** للإنسان المسلم تتكوَّن من عناصر متكاملة هي: العقل، والوجدان، والروح، والجسد... مجتمعة. وكلُّ قماش نقُص منه عنصرٌ تشوَّه وفسُد، وفقد جماله وروعته.[١]

٥. نموذج المجانين:

لفتح الله العديد من النماذج،[٢] التي أعدَّت بعناية فائقة، بعضها أصبح مشهورا ومعروفا به، من مثل نموذج "وارثو الأرض"، ونموذج "إنسان الفكر والحركية"، ونموذج "أفق القرآن الساحر"؛ غير أنَّ أبرز هذه النماذج وأكثرَها شهرة في منظومة كولن، وفي "البراديم كولن"، ما عرف بنموذج "المجانين". يقول الأستاذ:

---

١ نظمت "أكاديمية الحوار الهولندية" ندوة في أمستيردام، يوم الخميس ٧ أكتوبر ٢٠١٠، ومما جاء فيها ملاحظةُ البروفسور ثوماس ميشل من جامعة جورج تاون الأمريكية، وهي مؤكِّدة لما أوردناه في هذا النموذج، إذ أرجع المتحدث في مداخلته "نجاحَ حركة جولن في تركيا الى الإخلاص البعيد عن المصلحة الشخصية وحسابات الربح والخسارة، وأضاف: جماعة كولن تولي أهمية كبيرة لفرائض الإسلام، ويتسع مفهوم العبادة لديهم ليشمل خدمة الشعب وبقية عباد الله دون أي مقابل..." وكالة جيهان، موقع أنترنت: http://www.cihanmedia.com

٢ من النماذج التي حصرتها بمطالعتي لعدد من المصادر، وأشَّرت عليها بالقلم الكاشف في مضانها، أذكر القائمة الأولية الآتية: نموذج النجم، نموذج الثعابين والجواد الأصيل، نموذج الطريق المفتوح، نموذج صاحب الوقت، نموذج الدوران في الدائرة المفرغة، نموذج الدجاجة والمرجان، نموذج السقوط من ارتفاع المآذن إلى عمق الآبار، نموذج دائرة الخير، نموذج القلة في الطعام والنوم والكلام، نموذج المبادئ التي لا تشيخ، نموذج الخلاف الفكري المحمود، نموذج الحال، نموذج الوظيفة، نموذج التربية قبل الإصلاح، نموذج العمي الذين يحملون المصابيح، نموذج الشجرة التي علقت عليها ثمار شجرة أخرى، نموذج الوعاء البلوري، نموذج الحلويات والأطعمة المالحة، نموذج الفرق بين العالم والإنسان، نموذج الأرواح الشهمة، نموذج ينبوع الإسلام، نموذج الشوك والغراب واللاعنين النور، نموذج من يتقيأ عند شمّ رائحة الورد، نموذج أوراق الخريف، نموذج الشجرة الطيبة، نموذج الكلام الجيد والتمثَيل الجيد، نموذج الاستماع إلى صوت الضمير، نموذج أفق القرآن الساحر، نموذج الشلال، نموذج الوليمة الإلهية، نموذج المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات، نموذج الذين عجنوا بروح القرآن، نموذج الإيجاد مرتين، نموذج العصف المأكول، نموذج الدائرة الصالحة، نموذج ألمانيا واليابان في التحضر، نموذج البائع الفاشل ... الخ.

"تشبَّع بحبِّ الله إلى حدِّ الجنون، لا يغرينَّك عنه حسنٌ ولا يفتنَّنك جمال، ارقَ على كلِّ المعادلات، وتسامَ على كلِّ المقاييس، ارفع شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف، واهتف كما هتف الرومي "هلمّ إليَّ يا إنسان" ثم ادفن نفسك في غياهب النسيان. ناد كما نادى بديع الزمان "وا إنسانيتاه"، ثم امضِ ولا تفكّر بسعادتك الشخصية. أجل، انس رغد الحياة، انس البيت والولد، واسلك درب أهل السمو الواصلين لتكون من الناجين.

مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثورون على كلِّ المعايير المألوفة، يتجاوزون كلَّ المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرُّون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنة ممن نُسبوا إلى خفَّة العقل لشدَّة حِرصهم على دينهم وتعلُّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدحهم سيِّد المرسلين، إذ لا يفكّرون بملذَّات أنفسهم، ولا يتطلَّعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين...

يا ربِّ، أتضرَّع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كلَّ سائل مطلبه، أمَّا أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا ربِّ يا ربِّ..."(وجدانيات، موقع كولن، رقمي).

يتحدَّث الأنصاري رحمه الله عن رجال الخدمة وشبابها، ويؤكّد أنه لو لم يرَهم لقال "إنَّه مجرَّد وهم أو هُراء أو خيال"، إنهم قد تشرَّبوا الجنون وأشربوه، فارتووا من القائد المفدَّى، وكانوا بحقٍّ "مجانين".

يقول الأنصاري عن هؤلاء صادقا في وصفه: "مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرِّ سِبريا إلى حَرِّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كلِّ قارَّات العالم إلاَّ دخلوه، ووزَّعوا فيه

شُعاعات الصبح القريب.. يبتسمون للَسع الآلام، ويسعَدون بعبور حقول الشوك الجارح، فتسيل الدماء من أقدامهم، وتسيل الدموع من عيونهم، والقلب مسرور **بالله!**" (رجال ولا كأي رجال، موقع كولن، رقمي).

المهم أنه لو التقيت بأيِّ واحد في الخدمة، مهما كان مستواه الفكري، ومهما كانت مكانته الهرمية، ومهما كانت أقدميته في الهجرة، فستجده إمَّا "مجنونا" أو قريبا من "المجنون"، وهو مدرِك لهذه الصفة المذمومة -عادة- والمحمودة -اختصاصا-، فإن لم يكن مدركا لذلك باللفظ كان واعيا بها بالمعنى.

وأبرز القواعد التي تُعتصر من هذه الزفرة الإيمانية الحضارية للأستاذ:

- الدعوة إلى التشبُّع بحبِّ **الله** تعالى، إلى حدِّ الجنون.

- الإعراض عن كلِّ ما سواه، حتى وإن بدا حسنا أو جميلا.

- ضرورة الرقيِّ والسمو عن المعادلات والمقاييس الكلاسيكية.

- رفع شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف، وضدّ "إنا وجدنا".

- لنلُذ **بالله** وحدَه، ولندفن أنفسنا في غياهب النسيان ودهاليزه.

- لننسَ رغباتنا الشخصية كلّها: رغد الحياة، أنس البيت والولد... الخ. ولنسلُك درب الواصلين.

- حفنةً من المجانين تكفي لإرشاد العالم إلى سبيل **الله** تعالى، بل رجل واحد مجنون بحقٍّ يحقق ذلك... ولذا قال سيدنا لوط عليه السلام لقومه: "أليس منكم رجل رشيد"، فلو كان بينهم لما فعلوا ما فعلوا.

- مِن صفات المجانين الثورةُ على المعايير المألوفة، والمقاييسِ المعروفة.

- المجانين يفرّون مِن المغريات، بينما الناس يتهافتون عليها.

- المجانين منسوبون إلى خفَّة العقل، لشدَّة حِرصهم على دينهم، وتعلُّقهم بنشر إيمانهم.

- المجانين لا تعنيهم ملذَّات أنفسهم، ولا يتطلَّعون إلى منصب أو شهرة أو جاه...

- الدعاء المتفجّر بركانا من الأعماق، هو: "يا رب، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أمَّا أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا رب يا رب...".

- لمصطلح "الحفنة" دلالة القلَّة، وهي قرآنية المنشأ، وذلك في قوله تعالى: "وقليل ما هم"، وقوله: "وقليل من عبادي الشكور".

هذه أمثلة من الصور الإدراكية، والنماذج المعرفية، التي ينطوي عليها "البراديم كولن"، فيفكّر من خلالها، ويتحرَّك على ضوئها، وهي مستخرجة ومستنبطة بتتبع الصور المجازية العميقة في فكر الأستاذ فتح الله، وأؤكّد أنني بمعاينة واقع حركية الخدمة عاينت صدق ما ورد فيها في أكثر من موقع، وعند أكثر من واحد من أبناء الخدمة؛ وبهذا صقلت النماذج صقلا، وكثّفت تكثيفا، فصارت في تصوُّري أقرب إلى الحقيقة الصادقة، وإن لم ترق إلى الحقيقة المطلقة؛ ذلك أنَّها بشرية إنسانية نسبية، وليست ملائكية أو ربانية أو مطلقة.

العبارات الموجزة العميقة (الحِكَم)

العبارات الموجزة العميقة، أو الحِكم والمقولات المركَّزة، من المصادر الأساسية لاكتشاف نماذج أيِّ فكر، وهي وسيلة جيدة للولوج إلى حقيقة

القناعات والرؤى الكليَّة التي يظهرها أو يستبطنها أتباع هذا الفكر.

وسأورد جملة من هذه العبارات، مع ذكر الحقلِ، والقواعد والمبادئ التي يمكن استنباطها منها، تاركا الاستقراء الواسع "لمشروع موسوعيّ شموليٍّ جماعيٍّ، ندافع عنه، وندعو إليه، ونسأل الله أولا وآخرا أن يكتب أسبابه وييسر سبله.

١. العابد والمعبود:

"ربنا لقد أوجدتنا مرَّتين... مرَّة عندما خلقتنا، ومرَّة عندما وهبت لنا الإيمان"

هذا نموذج للعلاقة بين الإنسان المخلوق والله الخالق جلَّ شأنه، أي بين العابد والمعبود، وهو يحمل قدرةً على إدراك مدى أهمية الميلاد الثاني، وذلك بالإيمان، ويعني أنَّ غير المؤمن وُلد مرَّة واحدة، ولذا فهو محروم من الميلاد الحقيقيِّ، الذي يهب الحياة الحقيقية، يوم يلقى الله تعالى وهو عنه راض.

وفي مقولة أدبية لكولن يعبِّر عن الميلاد الثاني بمصطلح قريب هو "الانبعاث الثاني"، مما جاء فيها:

"...ترى هل دقَّت ساعة العالَم،

ونهايته اقتربت،

وقيامته أزفت...؟!

إن لم يحدث هذا،

فانبعاثنا الثاني قادم،

وزماننا آت"

الفرق بين "الميلاد الثاني" و"الانبعاث الثاني"، هو أنَّ الأوَّل وظِّف في مستوى الفرد أساسا، وقد يصلح للأمم والمجتمعات تباعا؛ أمَّا الثاني، فقصِد منه مستوى الأمم والمجتمعات ابتداء، وقد يصلح للأفراد استثناء؛ فالنموذج هو ذات النموذج، والميلاد أو الانبعاث أو الصحوة، أو أيّ معنى آخر للحياة بعد الموت، لا يكون إلاَّ إيمانيا، ربانيا، قرآنيا، محمَّديا... وهو ما يسميه في مقام آخر: ذاتيا[1].

٢. العقيدة: بين الحفظ، والفهم، والفعالية:

"لا حاجة إلى تلقين المسلم فهما جديداً للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين من جديد. وإنما المطلوب العمل على تفهيم المسلم الأهميةَ الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوة تأثيره، وديمومته الأبدية"

يفترض أنَّ المسلم لا يكون مسلما إلاَّ إذا استوعب كليات العقيدة وجزئياتها، وفهِم دينه فهما جيدا؛ غير أنَّ الكثير من المسلمين اليوم يحفظون كلَّ ذلك حفظا متقنا، ويكرِّرونه -كلَّما دعت الضرورة- على شكل محفوظات، وهم مع ذلك لا يدركون قيمة ما يحملون، ومن ثمَّ لا يجدون قوَّة تأثيره في نفوسهم ولا في عقولهم، ولا تظهر انفعالاته على جوارحهم، فيتصرَّفون خلاف ما يعتقدون، ويَحيون الانفصام في أبلغ صوره، ويعيشون التناقض في أظهر أشكاله.

وإننا إذ نقرأ نصًّا لمالك ابن نبي نجد ما يشبه التطابق بين الفكرتين، وهذا دليل آخر على صدق المفكِّريْن وعلى صفاء نبعهما، يقول ابن نبي: "ليست المشكلة أن نعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهمُّ أن نردَّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوَّتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي. وفي كلمة

---

١ انظر: مقال "نحو عالمنا الذاتي"؛ ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٩.

واحدة: إنَّ مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود **الله**، بقدر ما هي في أن نُشعره بوجوده ونملأ به نفسه، باعتباره مصدرا للطاقة" (وجهة العالم الإسلامي، ص٥٥).

٣. ضرورة التخطيط، وأسباب الحضارة:

"إننا كأمَّة لا بدَّ لنا اليوم أن نعرف البرامج والخطط التي نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التي نريد التنقل عَبرها في مسيرنا"، إلى أن يقول: "...إذن علينا أن نبحث عمَّا نأمله لغدنا، في نقطةٍ تتلاقى فيها البيئة الصالحة، وعشقُ العلم، وعزمُ العمل، والبحث المنهجي".

بتحليل هذا النصِّ ندرك أنَّ للبرمجة والتخطيط مكانة خاصَّة في "البراديم كولن"، ويسند هذه الفكرة وهذا النموذج العشراتُ من النصوص التي دعا فيها كولن إلى التخطيط والبرمجة،[1] بل نكاد لا نقرأ مقالا له أو فصلا من كتاب يخلو من دلالة التخطيط باللفظ أو بالمعنى.

ويعرض هذا النص أسبابَ قيام أيِّ حضارة، وسرَّ نجاح أيِّ مخطط، ويجمعها في أربع نقاط، تصل بين المحيط والعلم والبحث العلمي من جهة، والعمل والإرادة والطاقة من جهة ثانية، راسمة خط السير من نشأة الأفكار إلى نزولها إلى أرض الحياة، وهذه النقاط هي:

- **البيئة الصالحة**، وللصلاح دلالاته ومعانيه.

- **عشق العلم**، ولقد جعل الأستاذ من صفات ورثة الأرض العشقَ، ومن أبرز أشكاله، كما في هذا النص، عشق العلم... مع العشق الوجداني، والفني...

---

١ وانظر: فصل "أسباب الرشد وموانعه" من هذا الكتاب؛ وبالذات الأسباب الدعوية الحضارية، بعنوان: "التخطيط وفن استشراف المستقبل".

- **العزم على العمل**، وينبغي أن نستحضر النقطة الحسَّاسة بين العزم والتوكُّل والإنجاز، فكلُّ عزم حقيق يؤدي لا محالة إلى أداء صحيح، بناء على توكل مطلق على الله الواحد الأحد.

- **البحث العلمي**، وما أروع هذا السبب، وأروع منه الترتيب، الذي جعله نتيجة لا سببا، إذ في غياب البيئة والعشق والعمل يكون الحديث عن البحث العلمي مجرَّد شعار فارغ وادعاء أجوف.

٤ . الإنسان والدولة والزمن:

"علينا أن لا ننسى أنَّ أهمَّ أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهَّل، وأقوى أسسها الحيويةِ هو دولة حرَّة ومستقلة، وأثمنُ رؤوس أموالها هو الزمن".

يصرِّح الأستاذ في مقولته هذه بأسباب الحضارة مجتمعة، من وجهة نظره طبعا، وهذه الأسباب هي محل اهتمام الخدمة، ومحل عناية "البراديم كولن" في كل مراحله:

- **الإنسان المؤهَّل**: هو أهم ركن في الحضارة. إعداده يدفع إلى العناية بالتربية والتعليم، وهذا ما ميَّز حركة الخدمة عن غيرها، وأبرز الحدَّ الفاصل بينها وبين محاولات أخرى للنهضة في العالم الإسلامي، فأسَّسوا على إثر ذلك الآلاف من المدارس في تركيا وفي أغلب بلاد العالم؛ يقول الأستاذ في موضع آخر: "إنَّ إصلاح أي أمَّة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربية صحيحة، وبتثقيفها ثقافة صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحق".

- **الدولة الحرَّة المستقلة**: ومن ثم حاولت الخدمة أن لا تكون سببا من أسباب زعزعة كيان الدولة، مهما كان المبرِّر؛ حتى ولو تسبَّب ذلك

في أضرار بليغة على المشروع وعلى الجماعة، أو على الأستاذ نفسه. والأستاذ يوصي الشباب دائما بقوله: "لا بدَّ من إبداء المرونة أمام من يخالفوننا"، "ليكن حبكم لله وبغضكم لله، وابتعدوا عن عبادة النفس"، "لا تجعلوا الخلاف في الفكر والخلاف في الفهم وسائل للفرقة والعداء، بل عدوا هذا الخلاف مصدر غنى فكري".

- **الزمن**: هو عند كولن كما عند مالك بن نبي رأس مال الحضارة، بل إنَّ كولن يورد عبارة توحي بأنَّه وافق ابن نبي في معادلة الحضارة موافقةً تامة، في اللفظ وفي الدلالة، فقال: "هناك أمم عديدة تربَّت في مهد الإيمان والعشق والتصورات الروحية والمعنوية فأكسبت **الأرض، والزمان، والإنسان** قيما لا تقدَّر بثمن" وابن نبي يوظف مصطلح التراب عوض الأرض غالبا، لكنهما بمعنى واحد.

ويمكن أن نقول إنَّ معادلة الحضارة عند ابن نبي تتألف من ثلاثة عناصر: الإنسان، والوقت، والتراب؛ أمَّا عند كولن فتتألف من الإنسان، والدولة، والزمن... كما يمكن أن نقرِّر أنهما متفقان في موضوع الفكرة الدينية، على أنها أساس الحضارة ومُعامِلها. فالنموذجان يكادان يتطابقان، لو وسَّعنا المقارنة بينهما،[1] وبخاصة إذا عرفنا أنَّ التراب عند ابن نبي يعني السيادة كذلك، والسيادة عبَّر عنها كولن بالدولة الحرة المستقلة.

٥. القلم:

للقلم في أدب كولن مكانة خاصة، فهو يتلوَّن حسب طبيعته، ويعبِّر عن

١ في زيارة لوكالة جيهان كان لي حديث مع مديرها الأستاذ عبد الحميد بيليجي (Abdulhamit Bilici) حول أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين مالك بن نبي وفتح الله كولن؛ ثم طلب مني أن أعدَّ مقالا أعقد فيه مقاربة بينهما؛ أدعو الله أن ييسر أسبابه، أو أسباب دراسة جامعية عميقة في هذا الشأن.

مكنوناته بلا واسطة، فكأنَّ كولن غدا -من خلال المقولات- قلمًا صادقا لمعنى الوجود، أو كأنَّ القلم تقمَّص فكر الرجل وصار لسانا بليغا من ألسنته.

فعن السلم والحرب، يقول كولن، مخاطبا السيوف المشهَرات، بل كلَّ سيوف الكون، وكلَّ آلات الحرب والدمار:

"متى يا سيوفُ أقلاما تعُودِين؟!
متى يا دماءُ على الأرض تجفِّين؟!
والسيفُ إن عاد قلمْ،
مسح الألـمْ،
وهتك الظلْم والظُّلَمْ،
وعالج الداء،
وجاء بالدواء...
فمداد الأقلام في عقول الأجيال،
أوقعُ اليوم،
من سيفٍ كرَّار،
ودمٍ هدَّار،
وهو في الميزان كنجيع الشهداءِ في الميدان" (ألوان وظلال، ص١٨)

وفتح الله بهذه العبارات الشعرية يعبِّر عن نزعة السِّلم التي تشرَّبها "البراديم كولن"، لكنَّه ليس سلما ادعائيا، ولا هو سلم الشعارات والاعتبارات، وإنما هو سلم مردُّه إلى العلم، وإلى "اقرأ"، أي إلى القلم الذي يكتب ﴿باسم﴾، ويكتب باسم ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٤-٥)؛ وكلُّ سلم دون هذا هو ردٌّ وهراء.

ثم يعود القلم مرَّة أخرى، مُزيلا للحيرة، ومذهبا للخوف، وناشرا للأمل، وباعثا على العمل، فكولن، وهو يخاطب فتاةً صغيرة مرسومة في صورة زيتية رائعة، أمامها قلم ملقًى، وورق أبيض، وهي حائرة، يخاطبها بخاطرة أدبية رائعة، اختار لها عنوانا: "قلم الإيمان"، فقال:

"على المكتب قلم،
وتحت ناظريكِ ورق بيض...
هيَّا اشرَعي،
وبالقلم أمسِكي،
واستنهضي عزيمتَكِ...!
ومخاضَ الفكر خُوضي،
ومع أفكاركِ حلّقي،
وفي سماء الإيمان تألَّقي!
لا تتكاسلي!
فالوقت يمضي، وقلمكِ يصرُخ قائلا:
"إليَّ عودي،
ووعيكِ استعيدي... !"
فإذا أزَّ القلم أزيزه،
وسُمع على الورق صريفُه،
فالمبتغى وصلتِ،
وآمالك حصلتِ" (ألوان وظلال، ص٩٥).

فالقلم تحوَّل على يد كولن معلِّما ومربيا، ولم يشذَّ لحظة عن حقيقة الأستاذ "المعلِّم المربِّي"، يخاطِب الصغار كما يخاطب الكبار، الهمَّة هي ذات الهمَّة، والأبعاد الإيمانية الفكرية هي ذات الأبعاد؛ لكنَّ الذي يتغير هو الأسلوب، واللغة، والألفاظ... فلكلِّ جيل قاموسُه، ولكلِّ عمُر بيانه... والأستاذ فارسٌ في تصريف الفكر إلى الفعل بشتى الوسائل، وهذه ميزة من أبرز ميزات "البراديم كولن".

٦. الإنسان:

لا يخفى أنَّ الرؤية الكونية لأيِّ فكر أو جماعة إنما تتحدَّد في التصور والخطة والموقف، الذي يتبناه ذلك الإنسان في تصوره للعوالم الثلاثة: الله، والإنسان، والكون. فمِن خلال تتبُّع رؤية جهة ما إلى عالم من هذه العوالم، أو إليها مجتمعة، يمكن فهم الخريطة الإدراكية لتلك الجهة، ويمكن رسم خطِّ السير، والبرنامجِ، وفلسفةِ الحياة، لدى تلك الجهة.

وللإنسان في فكر كولن محورية مثيرة للانتباه، يحسُن أن تُتخذ مجالا لبحث متخصِّص، قد يكون بعنوان: "الإنسان في الرؤية الكونية لكولن" أمَّا في هذه العجالة فسنعرض نصيَّن اثنين يبيِّنان معالم النموذج الكولوني في فهم حقيقة الإنسان، وفي دفع الفهم إلى ما وراء الكلمة واللفظ، أي إلى الفعل والحركية.

في محاورة شعرية بعنوان "أيها الإنسان" ينشد كولن:

"أيها الإنسان،

امتدَّ واتَّسِع،

كن كونيَّ الزمان،

كونيَّ المكان،

سائحا في مَهُول الفضاءات،
لتعرفَ سعة الحقِّ،
وتؤمنَ بعظمة الربِّ...
وإلاَّ أخذك التيه،
واحتواك المجهول،
وخَبَلتْ الحيرةُ عقلَك،
وضيَّعت رشدك" (ألوان وظلال، ص٨٠).

ألسنا هنا أمام محاورة معرفية ابستمولوجية ثلاثية العناصر: الله، والإنسان، والكون؛ محدِّدة للعلاقة بينها، وبحقيقة السعادة في النظر إليها؟

ألسنا تجاه تعريف دقيق للرشد على أنه: امتداد الإنسان واتساعه في الكون الزماني والمكاني، وسياحته اللامتناهية في الفضاء، بغية اكتشاف سعة الحق، وإدراك عظمة الربِّ؟

يصف المسيري هذا النموذج الرباني للإنسان بقوله: "النزعة الربانية تعني خروج الإنسان من نطاق المرجعية الكامنة المادية ودخوله في نطاق المرجعية المتجاوزة، مما يعني ظهور ثنائية أساسية لا يمكن محوها، هي ثنائية الخالق والمخلوق الفضفاضة... وثنائية الخالق والمخلوق الفضفاضة ينتج عنها ثنائية أخرى هي ثنائية الإنسان والطبيعة. فالإله يزوِّد الإنسان بالعقل الذي يميِّزه عن سائر الكائنات، وهذا ما يجعله إنساناً إنسانا (أو إنساناً ربانياً)، أي إنساناً غير طبيعي/مادي، له جوهره الإنساني المتميز عن الطبيعة/المادة، يعيش في الحيز الطبيعي/المادي نفسه ولكنه قادر على تجاوزه وتجاوز ذاته الطبيعية"(الموسوعة، مادة الإنسان).

وعندما تكتمل صورة الإنسان، ويتحرَّر مِن أغلال المادة والمادية، تتفتح روحه على كلِّ جمال، وعلى أعظم جمال، بل وعلى مصدر الجمال كلِّه: الله تعالى، وفي هذا المعنى يقول كولن:

"أنعِم -يا إنسان- النظر،

ومِن سجن نفسك تحرَّر،

ولمحاتِ الجمال تشرَّب...

ودع قلبَك يطِر فرحًا،

وروحك يرقص طربًا...

واستشرف جمال "الجميل" في كلِّ جمال؛

تطمئنَّ نفسُك،

ويزدَدْ إيمانُك،

وإلى ربِّك تعُد إنسانًا،

خالصا في إنسانيتك..."(ألوان وظلال، ص٨٤).

والله إنَّ الإنسان الخالصَ في إنسانيته هو مبتغى الديانات، ومطلب الحضارات، ليس فوقه مبتغى ولا مطلب، ولا يتأتَّى ذلك إلاَّ بالعودة إلى الله تعالى، والارتماء في أحضانه، فاللهمَّ هبنا اللوذ إليك، وجوارك ومعيتك... آمين.

بنموذج الإنسان ننهي السياحة في المصدر الثاني للنماذج الإدراكية للبراديم كولن، ونعني بذلك "العبارات الموجزة أو الحِكم"، غير أننا يقينا لم نتتبع كلَّ هذه العبارات، وإلاَّ لما كان المجلد والمجلدان كافيين لاستيعابها، ويكفي دليلا لذلك أنَّ كتابيه المترجمين إلى العربية

"الموازين"، و"الظلال" يمثلان قاموس هذه الحكم، ولعل الله تعالى ييسر إنجاز "قاموس للنماذج" من خلالها، ومن خلال غيرها مما ورد في تراثه غير المترجم بعد إلى اللغة العربية.

التصرفات العفوية، والسلوك الواعي

لو كان هذا البحث خالصا للنظر لكفتنا النماذج المستخرَجة من خلال "الصور المجازية"، والمستنبطة من "الحِكم العميقة الدقيقة"؛ لكنَّ البحث آل على نفسه أن ينظر في الخط الفاصل-الواصل بين الفكر والفعل، وبين التنظير والتطبيق، انطلاقا من نموذج الرشد، ولذا كانت "التصرفات العفوية، والسلوك الواعي" مصدرا أساسا في اكتشاف نماذج "البراديم كولن".

وكتاب "فريد الأنصاري" -رحمه الله- المعنون بـ"عودة الفرسان"، يصف بما لا يدع مجالا للزيادة جوهرَ الشيخ من صباه إلى شيخوخته، من بداياته إلى ذروة عطاءاته. ومثالان اثنان من تصرُّفات الأستاذ التي وصفها الأنصاري، يكونان لنا دليلا صادقا على النماذج التي يعمل وفقها الأستاذ كولن:

١. من العزلة إلى المخالطة:

تُرى لو كان الأستاذ منعزلا عن الناس في معبدِه، هل سيحقِّق مشروعُ الخدمة كلَّ هذه القفزة الحضارية الفريدة؟ أو أنه كان مخالطا للناس على الدوام، دون خلوة للرياضة النفسية والإيمانية، هل ستبلغ الخدمة هذا المدى؟

النموذج الذي ميَّز الخدمة في موقفها من العزلة والمخالطة، يزن بميزان تريص بين القطبين، فلا يغلِّب جانبا على جانب، يقول كولن: "وفي الحقيقة ليس في الخلوة الماورائية تجرُّد عن الخلق واعتزالهم" مستشهدا بمقولة

جلال الدين الرومي: "إنَّ الإنسان في مثل هذه الخلوة كالفرجال، إحدى ساقيه في أفق اللاهوت، والأخرى في قطب الناسوت"(التلال، ص٥٢).

ولم يصل كولن إلى هذه القناعة، ولا إلى هذا المسلك، بيُسر وسهولة؛ لكنَّه عانى المعاناة كلَّها؛ حتى هداه الله إلى أقوم سبيل، فيورد الأنصاري حادثة وقعت للأستاذ في "أدرنة"، هي نقطة تحوُّل في حياته الخاصة، بل في حياة "البراديم كولن" كلِّه، لولاها لكان الأمر غير ما هو عليه، ولشهدنا طريقة "تصوفية متخدرة خالية من الروح"(الموازين، ص٢٨).

ففي "أدرنه" حاصَرتْه الفتن والابتلاءات من كلِّ جانب، فكان "كغصن أخضر ينتصب وحيدا في غابة من الحطب المشتعل"، وآثر الرياضة الروحية القاسية "حصارا لنفسه الأمَّارة، أن تضعُف بين يدي فتن "أدرنه"، وكان سلوكه في هذه المجاهدة غير مألوف "فلم يكن ينام إلاَّ قليلا، ولا يأكل إلاَّ قليلا، ولا يتكلَّم إلاَّ قليلا" واستمرَّ به الحال على ذلك "فاستمرَّ الفتى في رياضته الروحية الغريبة، حتى صار إلى نوع من الشعور بالاستيحاش من الناس"، وتوالت عليه المشاهدات والرؤى، فتجلَّت له نفسه مرَّة على صورة قطَّة، ثم على صورة دبٍّ، ثم على صورة غوريلا.

بينا هو كذلك من حال غريبة إلى حال أغرب، حتى حدثت الحادثة المِفصل، التي يقول عنها الأنصاري: "تهاوى جسم السالك المجنون؛ حتى أقعِد المستشفى مدَّة نصف شهر كاملة، تحت الرعاية الطبية، وهنالك تلقَّى خبر مرض والده، فازدادت حالته سوءا وتدهورا!، وكانت تلك مناسبة للدخول في منزلة المراجعات!"

وأخيرا "أدرك فتح الله أنَّ نفسَه لبَّست عليه، ودلَّست عليه الباطل في ثياب الحقِّ!، فأتته من حيث لا يحتسب، وجعلت تستدرجه إلى الهلاك

المبين!... وأخيرا وجد باب الخروج، واتضحت له معالم مسلكه الجديد... وأدرك فتح الله أنّ مجاهدة النفس، وتهذيبَ غرائزها؛ لا بدَّ أن يكون من خلال الانخراط في المجتمع، وخوضِ غمار الحياة الاجتماعية، ومشاركة الناس همومهم وآلامهم... وأنَّ العزلة المطلقة مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب! ثم شاهد عيانا أنَّ مجاهدة النفس وترويضها، بالسير في مسلك الدعوة إلى الله، وخدمة الدين ونصره في البأساء والضرَّاء، هو أكبر ضمان لتحقيق توازنها الروحي، وحفظها من الانزلاقات إلى المنعطفات الهاوية" (عودة الفرسان، ص١٤١-١٤٤).

من خلال هذا الوصف الأدبي البديع لِما حدث لكولن في "أدرنة"، نفهم موقف الرجل أولا، وموقف الخدمة تبعا، مِن أحد أعقد إشكالات الحركة والدعوة في العالم الإسلاميِّ اليومَ: أيْ العزلة والمخالطة؛ أيهما المشروع وأيهما البدعة؟ لمن تكون العزلة دينا، ولمن تكون عصيانا؟ وهل كلُّ الناس مطالب بالمخالطة؟

الجواب الشافي من منظور "البراديم كولن" يكمن في هذا السلوك الذي سلكه فتح الله، وكاد يفقد فيه مهجته، إلى أن كسب الرهان وأكسبه للملايين من المنتمين، ممن صاروا يُعطون لكلِّ حال حقَّها ومستحقَّها، بعيدا عن الرفض المطلق أو القبول المطلق. ولعلَّ الباحثة إيمان قنديل عبَّرت أفضل تعبير عن هذا السلوك المتوازن، لا في المقولات والنصوص فقط، لكن في الميدان وفي خضمِّ الحياة... تقول في خواطرها المعنونة بـ"إحياء عصر الصحابة في تركيا": "لم يكن من المتوقَّع لنا إطلاقا -على أيِّ مقياس من مقاييس العالم الحديث- أن نقابل رجالاً يملكون هذا القدر من المال والطاقة للعمل الخيريِّ التطوعيِّ، يتَّصفون بمثل ما رأيناه

من ورَع وتواضع وتفانٍ منقطع النظير، يبتهلون إلى الله ليلا نهارا أن يوسّع في أرزاقهم حتى يستطيعوا رعاية الآخرين، دون أي استعلاء أو شعور بالفخر"(موقع فتح الله، بتاريخ ٧ أوت ٢٠٠٩م).

٢. اقبلني يا رسول الله:

ذكَرنا في بداية هذا البحث أنَّ من خصائص "البراديم كولن"، التي ترسم خطًّا عريضا في الحدِّ الفاصل بين هذا المشروع وغيره "الحبُّ الشديد لرسول الله ﷺ"؛ ولقد ظهرت آثار ذلك الحبِّ مقالاتٍ، وكتبا، وأشعارا، وحِكما، وأدعية؛ حتى إنَّ الأستاذ فتح الله أحسَّ بالوجد يحرق فؤاده، فيكاد يذرُه رمادا باهتا، فَلاَذ بإملاء "النور الخالد" على الجماهير؛ ليطفئ نار الجوى والعشق؛ فما انطفأت لكنَّها ازدادت أوارا واحمرارا...

وإنَّ التصرفات التي تصدر من الأستاذ وممن حوله لَتتحوَّل إلى لسان بليغ عمَّا يجيش في قلوب هؤلاء وفي عقولهم، ولقد كتب الأستاذ مقالات يوم تقدَّس خطوه بقدسية مكَّة المكرمة والمدينة المنوَّرة، فأبدع فيها وأبدع منها، ومما ورد في مقال "الروضة المطهَّرة" واصفا حاله عند هذا المعلم الملائكي الخالد:

"لقد رأيت حتى الآن العديدَ من الأماكن المباركة التي تحمل ذكريات روحية ومعنوية. ولكن الروضة الطاهرة للرسول ﷺ كانت وستبقى إلى الأبد صاحبة أعمق الآثار في قلبي. فقد احتضن روحي تلك البلدة على الدوام بحسرة مَنْ هدَّه الشوق للوصال. وكلَّما احتضنها يرتفع صوت من أعماقي يقول: "هذه هي البلدة التي لن أستبدل بحفنة ترابها العالم كله".

ثم يعترف بتواضع أنَّ "هذه أحاسيس روحٍ فجّ لم ينضج بعدُ. أمَّا ما يشعر به أصحاب الأرواح السامية بالعرفان، والمحلِّقة عاليا بالعشق، فيجب

أن نستمع ذلك منهم ونتعلَّم. وما أحاول هنا قوله هو أنني -بقابلياتي المحدودة القاصرة- أحاول فقط إثارة أهلِ الحمية... فإن استطعتُ هذا عددته وسيلة لإحراز رضا روح سيد الأنام، فأقبل لألمس مطرقة بابه متوسلا ومتضرعا: "اقبلني يا رسول **الله**!.. اقبلني بأبي أنت وأمي!"".

ونموذج "اقبلني يا رسول **الله**" يتكاثف في جميع تصرُّفات الأستاذ، ويجعله يتعذَّب دوما، ويبكي -وهو الملقب بالضحَّاك- بكاء الثكالى خوفا من التقصير، ثم يُبكي من حوله من الشباب والكهول والشيوخ، ولا يمكن أن يُنسى ذلكم المشهد المسجَّل على الفيديو، وفيه يذكر الأستاذ حديث رسول **الله** عليه السلام: "سيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار"... ثم يعتذر للرسول عليه السلام أنَّنا قصَّرنا في حقِّه، ويجهش ببكاء صامت، ما فتئ أن تحوَّل إلى نحيب لا ينقطع، وتسيل خدوده شلالات من الدموع المنهمر لا تنقطع ولا تني؛ حتى إنَّ الواحد منا ليشفق عليه، ولكنه لا يشفق على نفسه، وهو يقول: "وجدتُ رسول **الله** ﷺ غريباً في كثير من الديار التي جُلْتُها، كنت أشعر وكأنني أبتلع المسامير". ثم يقول، "لأنني وجدت غربة النبي ﷺ في بلاد أوربا وأمريكا.."(شريط فيديو).

ويبقى الأستاذ دائما في خوف ووجل مِن أنه لم يبلغ ما يجب أن يبلغه في حبِّ المصطفى، وفي عشق خير البرية، ويعتذر ثم يعتذر مرَّات ومرَّات: في أدعيته، وفي محاضراته، وفي كتاباته، وفي مجالس الصحبة التي يعقدها... ولا شكَّ أنَّ ذات الصفة انتقلت إلى شباب الخدمة، فتقمَّصوها، وتمثَّلوها، وأبدعوا في التعبير عنها.

وبهذين المثالين من تصرُّفات الأستاذ نستطيع أن نعرف شيئا عن الخصائص البارزة "للبراديم كولن"، ويبقى البحثُ المتواصل في حركياته،

مِن يوم بدأ خطَّ الدعوة إلى يوم الناس هذا، مطلبًا أساسًا، ومصدرا رئيسًا، لِتقصِّي حقيقة المشروع والحركة؛ لعلَّ الله يقيِّض من يشتغل بمثل هذا المدخل، فهو خصب بحقٍّ.

ومِن هنا ننتقل إلى ثلاثة نماذج من تصرُّفات شباب الخدمة، مما لاحظناه أثناء معاشرتنا لهم. وهي:

٣. سلَّم الاحترام، لا سلَّم التسلُّط:

في العلاقة بين الصغير والكبير، وبين المسؤول والموظَّف، وبين المعلِّم والتلميذ... ثمة نسقان غالبان هما: النسق المغلق، والنسق المفتوح؛[١] وتكاد البحوث والدراسات تُقنعنا أنه لا نسق ثالثَ بينهما؛ فإمَّا أن يكون نسقًا "تسلُّطيا"، "سُلَّميا"، "أحادي الاتجاه"، أو يكون "حِواريا"، "حرًّا"، "متعدِّد الاتجاه"؛ ولكلا النسقين إيجابيات وسلبيات.

أمَّا في الأيام التي قضيتها بين ثنايا الخدمة، فقد اكتشفت أنَّ هنالك مَن جمع بين إيجابيات النسقيْن، لا بطرح نظريٍّ تنظيريٍّ فقط، لكن بتطبيق وممارسةٍ تكاد تكون طبيعة وسليقة وسجية.

فمِن بين العديد من الأمثلة أذكر أننا في يوم من الأيام كنا في "الأكاديميا"، ضمن وفد من رجال الأعمال الجزائريين، وكان أحد الباحثين في "الأكاديميا" يجيب على بعض أسئلتنا، فدخل القاعةَ مسؤولٌ أكبرُ منه منصبا ومكانة، فما لبِث الباحث أن حوَّل الكلام إلى المسؤول، واكتفى بالتعليق الحيي بأدب جمّ، ثم دخل مسؤول آخر أكبر من الثاني درجة، فضبط المسؤول الأوَّل كلامه، وترك المجال للمسؤول الأكبر حتى يجيب ويتبحر في الكلام والتحليل والإجابة على الأسئلة

١ انظر: محمد باباعمي، قاموس النسق المفتوح، سلسلة ما بأنفسهم، نشر مكتب الدراسات.

الملحَّة والمتفرِّقة، التي يطرحها وفد الجزائر باهتمام.

وما إن خرجنا من الجلسة العملية، حتى نظر بعضنا إلى بعض، وعلَّق الكلُّ بنفس الملاحظة، منبهرا من الاحترام المشوب بالأخلاق الطيبة، فلا جفاء عند الموظَّف، ولا تسلُّط من قبل المسؤول، ولقد كانت الكلمات والإشارات والحركات التي تصدر من كلِّ واحد منهم عفوية، غير متكلَّفة، تنمُّ عن أدب جمٍّ، واحترام منقطع النظير.

وأجزم أنَّ هذه الحالة ليست شاذَّة، بل هي الغالبة، في كلِّ الزيارات التي عقدتها، للمؤسَّسات التربوية، والإعلامية، والتجارية... وغيرها. فدائما هنالك احترام، وكذا انفتاح، والذي يعلَم شيئا هو الذي يشار إليه بالبنان، والذي لا يعلم يعترف، ويصمُت ويستفيد... ولم أذكر يوما أنني لاحظت سوءَ معاملة، أو أمرًا حادًّا من كبير لصغير، كما أنني لا أذكر أنني شاهدت تلكُّأ أو خوفا أو تصرُّفا غير لائق صادر من الصغير في حضور الكبير...

وهذه سمة من سمات "البراديم كولن"، إنَّه الطريق الثالث بين "النسق المغلق" و"النسق المفتوح"، إنه طريق نبعه الإسلام بروحه وصفائه؛ وهذا يقودني إلى التذكير بمقولة المفكر علي عزت بيجوفيتش: "إنَّ الإسلام هو وحده الذي يستطيع إعادة إحياء القدرات الخلاقة للشعوب المسلمة"(مذكرات، ص٤٧).

حقًّا، لقد أحيا الإسلام قدرات هذا الشعب، من خلال "البراديم كولن"، فانبرت طاقتهم تصنع الحضارة بعزم وحزم، وبثقة وثبات.

٤. المذهبية فقه لا عصبية:

هاجس المذهبية والانتماء المذهبي، وبالذَّات ما يعرف بالتعصُّب للمذهب، لا يزال يُلقي بظلاله على الشعوب المسلِمة، في العديد من

مناطق العالم؛ ومِن عجب أنه أحيانا يسافر مع المهاجرين المسلمين إلى البلاد الغربية، فيقطعهم جزرا وجماعات وعصبيات لا حدَّ لها ولا حصر؛ ولقد أبدع المفكر جيفيري لانغ في وصف هذه الحالة لدى مسلمي أمريكا، في كتابه المعنون بـ"حتى الملائكة تسأل".[١]

ولقد كنتُ أحمل معي سؤالا عن "البراديم كولن" هو: ما مدى ارتباط هؤلاء بمذهبهم العقديِّ الماتريدي، وبمذهبهم الفقهيِّ الحنفيِّ ثم، ما مدى تقبُّلهم لمن هو خارج هذه الثنائية، وبخاصَّة إذا كان من غير أهل السنَّة والجماعة، في التصنيف التاريخي المألوف؟

وأقرُّ أنَّ الجواب سريعا ما أتى، حاملا معه مواقف إيجابية صادرة من الإخوة في "البراديم كولن"، والذين عاشرتهم لمدَّة طويلة نسبيا، ذلك أنهم لم يُبدوا أيَّ تعصب، أو موقف سلبي، أو حتى سؤالٍ عن المذهب، وعن الاختلاف، وعن الجزئيات، وعن الحقِّ المطلق في جانب على حساب آخر... وإنما تجدهم يهتمُّون بالقواسم المشتركة بين المسلمين، ويبحثون في الهمَم التي تنظُر إلى الإسلام على أنه حضارة متكاملة، وهم مع ذلك ملتزمون بمذهبيتهم بعناية، ومتَّبعون للخطِّ العام لاتجاههم باهتمام... ولا أدري، هل هذا التسامح المذهبي يخص "البراديم كولن" وجماعة الخدمة، ومن قبلُ الأستاذ فتح الله فقط، أم أنها صفة لازمة لجميع الإخوة المسلمين الملتزمين في تركيا، بسبب أنَّ منافسهم من جهة أخرى هو العلماني الإقصائيُّ، والشيوعي المتطرِّف، والتغريبيُّ الحاقد... وأنهم في

١ يقول جيفري لانغ: "لم يدم الوقت طويلا -بعد اعتناقي الإسلام- حتى أدركتُ أنَّ المسجد كان منقسِماً على نفسه بين عدَّة فصائل، يحاول كلٌّ منهم أن ينافس الآخرين في السيطرة... وكنت أشعر في بعض الأحيان أنَّ كلاً منهم كان يحاول جذبي إلى صفوفهم... وسرعان ما تولَّد لديَّ انطباع، وهو أنه بالرغم من أنَّ الإسلام ينهى عن الغيبة والنميمة، فإنَّ المسلمين نمَّامون ومغتابون بالعادة، وأنَّ ذلك هو الشغل الشاغل للجالية الإسلامية" (ص٢٨٢-٢٨٣).

مواجهة مصيرية معه، ولو سلميا، ولذا نأوا بأنفسهم عن الصراع المذهبي الداخلي الضيق؟

ولست أقدر أن أعدِّد الملاحظات التي تدل على هذا الحكم، ويكفي للواحد سفرًا واحدا إلى تركيا، حتى يكتشف صدق ما أقوله. ولقد وفِّق علي يحي معمر، حين دعا إلى: "المعرفة، والتعارف، والاعتراف" في نظريته التوحيدية الحضارية الشمولية؛ وإنك لتجدها في هذا المجتمع الجديد متجسِّدة بادية للعيان.

٥. للعالَمين: الهجرة للدعوة:

في سنة ١٩٨٩م، عرَف العالم حدثا تاريخيا فريدًا، متمثلا في سقوط روسيا، القطب الثاني في توازن القوى في العالم، بعد الولايات المتحدة الأمريكية ومن لفَّ لفَّها؛ ولقد سقطت الحكومات التي كانت في فلك روسيا واحدة تلو الأخرى، وعرفت بعض الدول أزمات خانقة، سياسية، واقتصادية، وأمنية...

ولقد انقسمت روسيا إلى العديد من الدويلات، بعضها لها تاريخ إسلامي عريق،من مثل(بيلوروسيا،وكازاخستان،وقرغيزيا،وطاجيكستان،وأوزبكستان). وبينما كانت أغلب الشعوب والدول الإسلامية الأخرى في موقف المتفرِّج السلبي، كان الأستاذ كولن يحترق همًّا، ويسمو همَّة، وهو يسأل نفسه: مَن لهؤلاء المسلمين في هذه البلاد؟ ألا يمكن أن نكون سندا وعونا لهم؟

فلم يكتف الأستاذ بالخطاب والوعظ والهمِّ، لكنَّه كعادته انتقل إلى الحركية والفعل، فجمَع الآلاف من أنصار الخدمة، وعرض عليهم مشكلته، ثم طالبهم بإحياء الهجرة إلى تلك البلاد، بنية إحيائها... فاستجاب له الآلاف من الشباب غير المتزوِّج، وسارع إلى هنالك يبني مدارس، ويعلِّم

حرفا، ويرشد حيارى، وينظِّم جمعيات، ويوجه أفكارا... فتمَّ بحمد الله على يدهم الكثير من الخير والإيمان في صفوف هؤلاء المسلمين المستقلين عن الاتحاد السوفيتي.

وهذه الحادثة العملية دالة دلالة واضحة على النموذج الإدراكي لدى جماعة الخدمة، ومعرِّفة تعريفا صريحا معنى الانتماء إليها؛ على أنه جهاد ومثابرة، وصبر ومصابرة، وليس علاواتٍ توزَّع، ولا حقوقا توهب؛ إنما هو واجب ودين، وفي هذا سر النجاح والانتشار، وسر النصرة والانتصار. يقول مجدي سعيد واصفا هذه الحال: "وفي إطار ذلك المشروع -أي الخدمة- وظَّفوا معنى وقيمة أخرى وهي "**الهجرة**" بمعناها المعاصِر؛ فهم يقدِّمون مشاريعهم تلك خدمة للإنسانية في أنحاء مختلفة من العالم، وهذا يتطلَّب من الإنسان أن يذهب إلى بلدان ربما لم يسمع عنها من قبلُ، مضحِّيا براحته واستقراره في بلده؛ ليعيش في بيئة وثقافة تختلف عن ثقافته وبيئته؛ رغبة في خدمة الخلْق إرضاءً للحق" (مقال بعنوان "فتح الله جولن... عندما تصنع القيم تنمية"، موقع كولن، رقمي).

وبهذا نكون قد حفرنا في نماذج كولن، من خلال مداخل ثلاثة، داعين الله تعالى التوفيق في استكشاف مجالات أخرى، من مداخل أخرى.

الفصل الثالث

البعد الحركي للدلالة
والتعريف في البراديم كولن

"الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة؛ ولكنَّ قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية... قلمنا بحاجة إلى القرآن الرائع الذي بوسعنا أن نتعلَّم منه الكثير".

(سلهب، بتصرف)

البعد الحركي للدلالة والتعريف في "البراديم كولن"

مدخل

تكتسي التعاريف عند فتح كولن حُلَّة خاصَّة، ذات ألوان زاهية بديعة، مختلفةٍ عن أيِّ شكلٍ من أشكال التعريف التقليدية: القاموسية، والاصطلاحية، والفلسفية، والمعرفية... الخ.

ولا يمكن القفز على إشارة علي جولاق الصادقة، في تقديمه لكتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، حيث قال: "أزعم -أنا الضعيف- أنَّ الحاجة ماسَّة إلى قاموس بمعاني المفردات التي يستخدمها [الأستاذ فتح الله]، ومن يمحِّص آثاره بحثا وتدقيقا، عن دراية باللسان التركيِّ، سيجد تصرُّفات ذاتيةً، ومفردات ثريةً، في أسلوبه. وأزعم أنَّ هذا القاموس يدلُّنا على المستندات والعناصر الأساسية لخزينة الأستاذ الثقافية، وعالمه الفكريِّ"(ص٩).

وأنا أزعم -على إثر هذه الملاحظة، وعلى قصَر معرفتي بالأستاذ، ومع جهلي باللغة التركية، وكوني قارئا نهماً لنتاج الأستاذ بالعربية- أنَّ مثل هذا القاموس يتجاوز في دلالته خزينة الأستاذ الثقافية وعالمه الفكريِّ، إلى خزينة "البراديم كولن" وعالمها الرحب، الذي يسهم في فهم حياة الألفاظ في فكر الأستاذ، وفاعلية المعنى في نسقه الفكري، ويساعد على إدراك

مدى قدرة هذه الدلالات على السفر من عالم الفكر الممنهج إلى عالم الفعل المنظَّم.

وفي مثل هذه الملاحظة التي أدافع عنها يقول أديب الدباغ: "وأفكار كولن كيانات حية تنبض بالحياة؛ لأنَّها بعض نفسه، وبعضٌ من فلذات روحه وقلبه، زقَّها[1] حبَّاتِ الروح، وسقاها دم القلب، قبل أن تنضج وتستوي وتأخذ طريقها إلى عقول القرَّاء وقلوبهم"(ترانيم روح، ص٦).

ولو اقتصرنا على الدلالة التقليدية للتعريف أو الحدِّ، لقلنا إنه: "الوصف المحيط بموصوفه، المميِّز له عن غيره"؛ ولو عددنا الشروط الكلاسيكية المنطقية للتعريف، لقلنا إنه ينبغي أن يكون جامعا مانعا؛ أي "جامعا لمحدوداته ومصاديقه، مانعا من دخول غيره". لكنَّنا سوف نتجاوز هذا التقليد، ونعتبره ولا نلغيه.

ثم إنَّ مالك بن نبي في محاولته لتعريف الثقافة، عقد عنوانا صغيرا سماه "عملية التعريف"، ومما قال فيه: "فهناك إذن عمليةُ تعريف تبدأ عندما يطلق الاسم على الشيء، وتنمو كلَّما أخذ الشيء معنى مركَّبا، أي أنه بعد أن يصبح اسما يصبح فكرة، ثمَّ مفهوما"(مشكلة الثقافة، ص٢٢-٢٣)؛ وينبِّه ابن نبي إلى أنَّ المرحلة المتأخِّرة، أي مرحلة المفاهيم، تكون مترابطة متشابكة معقَّدة، ولا تقتصر على الدلالة الاصطلاحية التخصصية فقط.

ولو اعتبرنا هذه العملية بهذا الترتيب (الاسم، فالفكرة، فالمفهوم)، لقرَّرنا أنَّ الألفاظ والمصطلحات عند كولن لا تسكن ولا تخمد عند دلالة واحدة، وإنما تنمو وتتطوَّر، وتولَد وتكبر وترشُد، وتحتكُّ بمختلف العلوم والمعارف، وتلج أغوار القلب لتتمرَّغ في عالم الروح والوجدان، ثم

---

١ زق الطائر فرخه: أطعمه بمنقاره.

تصَّاعد إلى فضاء العقل لِتكتسي الصفاء والمنطق والمعقولية... ثم تتنزَّل إلى أرض الواقع تختبره ويختبرها... وتعيد الكرَّة تلو الكرَّة مسافرةً بين القلب والعقل والواقع، فَتِيلُها مغروس في زيت القرآن والسنَّة الشريفة، لا تنحرف عنهما قيد أنلمة، وهواؤها ممزوج بالتجارب البشرية الغابرة والحالية، وأفقها ممتدٌّ إلى سماء المستقبل والبصيرة والفراسة الصادقة... فتغدو هذه الألفاظ وتلكم المصطلحات بعد عملية التعريف "كيانات حية نابضة بالحياة"، تهب الحركية والتمكين بفضل الخالق الوهَّاب.

ولقد تتبَّعتُ تعريفات كولن في العديد من كتاباته،[1] فألفيتها ذات منطق متناغم، ثمَّ إني اهتديت إلى نصٍّ يشرح خصائص هذه التعريفات بدقَّة عالية، يقول فيه:

"إنني لم أرَ للتقوى في غير القرآن الكريم هذا المعنى الشامل، وهذا العمق والسعة، كما أنني لم أطَّلع على كلمة ساحرة كهذه الكلمة خارج نظام الإسلام الأخلاقي والتربوي، وبهذا المستوى الذي يضم المادة والمعنى معًا، حتى إنَّ جذوره موغلة في الدنيا، وأعضاءه وأزهاره وثمراته منتشرة في العقبى"(التلال الزمردية، التقوى، ص٨٥).

ولعلَّ أبرز خصائص التعريف عند كولن -من خلال هذا النصِّ وغيره- تتمثل في النقاط الآتية:

١. **الشمولية**: فكولن يحمل نفسه على الشمولية في كلِّ تعريف يقتحمه، مدرِكا خطورة التجزيء والاختزال، مديرا ظهره لضيق التخصُّصات، والمذاهب، والمدارس. ومثل هذه السمة لا تتأتَّى إلاَّ لعقل موسوعيٍّ لا

١ انظر مثلا: أسئلة العصر المحيرة، تعريفا رائعا للإلفة، بعنوان: "ما الإلفة؟ وما تأثيراتها السلبية"، ص٥٤. وانظر: تعريف "التصريف وتطبيقاته الحركية"، في كتاب"الجرة المكسورة" -بالتركية- وقد دونت ترجمة للمقال أملاها عليَّ الأخوان جمال وأجير، في الأكاديميا.

يعرف معنى الحدود، فالرجل فقيه، وأديب، ومؤرِّخ، وفيلسوف...

٢. **العمق والسعة**: يجتهد كولن في النهوض بالتعريف إلى مُرتقى العمق والسعة، بعيدا عن ضيق الأفق، زمنيا أو مكانيا.

٣. **النظام الإسلامي الأخلاقي التربوي**: تندرج تعاريف كولن ضمن منظومة ونظام، ولا تشذُّ عنهما، ولقد انحرف باحثون غرَّدوا خارج السرب، وحاكموا التراث لمنظومات ونظم منطلقة من رؤى كونية متعارضة مع الرؤية الكونية الإسلامية شكلا ومضمونا.

١. **المادة والمعنى**: إنَّ تعريفات كولن راشدة رشيدة، تصل بين المادة والمعنى، ولا تُحدث انفصاما بينهما، فالمادَّة تمثِّل الواقع، والمتزمِّن، والحركيَّ...، والمعنى عنوانٌ على العلم، والنظر، والمتجاوِز... وينبغي أن لا يغطِّي العلمُ على العمل، وأن لا يطغى العمل على العلم، مهما كانت المبرِّرات والدوافع. وأحسب أنَّ المحاورة التي جرت بين حسن حنفي وأبي يعرب المرزوقي، في كتاب "العلم والنظر"، والتي دافع الواحد فيها عن النظر وأولويته، ودافع الآخر عن العمل وأسبقيته، أحسبها محاورة عقيمة، فمثل هذا التناغم الذي امتاز به كولن في فكره وفعله هو المرجوُّ، وهو الحلُّ والمخرج لأمَّة المصطفى اليوم، ولملَّة الإسلام في هذا الزمان.

٢. الجذور الموغلة في الدنيا، والأعضاء والأزهار، والثمرات المنتشرة في العقبى: إنَّ جذور الألفاظ ودلالاتها لا توصف بأنها دنيوية محضة، ولا أخروية محضة... لكنَّ الجذور يجب أن تستمدَّ حياتها وكينونتها من الدنيا، ومن الحقيقة البشرية المتزمِّنة، ومن عالَم الأسباب المحسوسة المحسوبة؛ حتى لا تكون تحليقا في الأحلام والماورئيات؛ أمَّا الغاية

والعقبى من تلك الألفاظ ودلالاتها، فيجب أن تكون في الله، ولله، وبالله، ومن الله، ومع الله... لغرض الآخرة والباقيات الصالحات، لا لغيرها.

ولقد نرسم هذه الفلسفة العميقة في الدلالة عند كولن بالرسم الفني التوضيحيِّ الآتي، بكلِّ أبعاده، وأعماقه، ومظاهره، وجمالياته...:

نماذج من تعريفات كولن

بهذا المنطق وبهذه الفلسفة في الدلالة كثرت المصطلحات التي نحت لها كولن تعريفات فريدة، وللتمثيل نورد ثلاثة مصطلحات هي "الورع"، و"المراقبة"، و"الدعاء":

١- الورع:

يقول فتح الله في تعريف الورع، بعدما أورد تعريفا من القاموس، وتعريفات من معجم التصوُّف: "ويمكن أن نعرِّف الورع بأنه وقف الحياة والسلوك على ما يلزم في الآخرة وينتهي إليها، ومن ثم التحرُّك وفق إدراك حقيقة الفانيات الزائلات" (التلال الزمردية، ص٩١).

فصفات الشمولية والعمق والسعة، في هذا التعريف، متحقِّقة من خلال عرضه لمعالم الوجود كلِّها: "الحياة" و"السلوك"، و"الآخرة" و"الدنيا الفانية الزائلة"، و"التحرك" و"الإدراك"...

أمَّا الجذور فضاربة في الدنيا من خلال "الحياة" و"السلوك" و"التحرك"... وأمَّا العقبى فموصولة بـ"الآخرة"، و"النهاية"، و"الغاية"...

وكلُّ هذه الحقائق منتظمة تحت نسق ونظام إسلامي تربوي أخلاقي، معتبرا للإدراك وسيلة للمعرفة، وللسلوك تصديقا لتلك المعارف، وللحركية المستمرَّة والفكر المستمرِ عنوانا لهذا النظام، يقول كولن في مقال له في هذا الشأن: "يمكن تلخيص كفاحنا كورثة للأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإنَّ وجودنا بوجهه الحقيقيِّ يمرُّ عبر الحركية والفكر... حركية وفكر يغيِّران الذات والآخرين"(ونحن نقيم صرح الروح، ص٥٧).

ولقد اصطدم، عبر التراث الإسلامي، مدلولان للورع: أحدهما انعزاليٌّ، جزئيٌّ، نمطيٌّ لا يسهم في البناء الحضاري بشيء؛ والثاني حركيٌّ، شموليٌّ، إبداعيٌّ، هو أصل الحضارة وأسُّها؛ ولعلَّ المثال البارز في ذلك، سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾(البقرة:٢٢٠) فقد ذكر صاحب "لباب النقول" أنه: "أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيم إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(الأنعام:١٥٢)، ونزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾(النساء:١٠)، انطلق مَن كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، فجعل يفصل له شيئاً من طعامه فيحبسه له حتى يأكله أو يفسُد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾.

ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لما نزلت الآيات التي تحذِّر من أكل مال اليتيم والتعرُّض لماله بغير التي هي أحسن، أثَّرت هذه الآيات في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، فأيُّ شخص من الصحابة كان عنده يتيم انطلق فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه؛ حذراً من هذه الآية، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾(البقرة:٢٢٠).

وهذا معلوم حتى من ناحية التربية، فلو كان عندي يتيم في البيت فعزلت له طعامه بعيداً عن طعام الأهل والعيال فهذا يؤثر عليه تأثيراً سلبياً؛ ولذلك أرشدنا الله عز وجل إلى مخالطتهم فقال: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وبيَّن ربُّنا أنَّ الأعمال بالنيات فقال: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: أنَّ الله يعلم مَن الذي يريد أن يأكل مال اليتيم ومن الذي لا يريد ذلك" (عبد الحي يوسف، لباب النقول في أسباب النزول؛ نسخة رقمية).

ولقد عمَد الصحابة الكرام ﷺ إلى الترك والعزل، احتياطا وورعا؛ فأوضح الله تعالى لهم أنَّ الإتيان والمخالطة من تمام الورع، بل هو ذروة الورع؛ ذلك أنَّ الفساد بيِّن والصلاح بيِّن، والله تعالى أعلم بالمفسد وبالمصلح. فتعريف كولن للورع كان من قبيل هذا المعنى الشمولي، الذي يجعل الورع حركة وحياة، لا سكونا وموتا.

وعن مثل هذا الاصطدام بين دلالتي الورع، روى البخاري وغيره، قال "جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدهم: أمَّا أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا

أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

ولقد احتاط هؤلاء النفر لدينهم، وطلبوا الورع بدلالة هجران النوم عند الأول، وترك الإفطار عند الثاني، واعتزال النساء عند الثالث؛ غير أنَّ النبيَّ الكريم صحَّح هذا الفهم السقيم، وذكر أنه -وهو النبي الأسوة- يأتي ويترك على إيقاع صبغة الله تعالى،[1] فهو: يصلِّي وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوَّج النساء؛ ثم وضع عليه السلام القاعدة التي هي من قواعد الشرع الإسلامي الحنيف إلى يوم الدين، فقال: "من رغب عن سنَّتي فليس منِّي"(متفق عليه).

ومعلوم أنَّ الرهبانية انعزال، وهي ليست من أصول شريعة المصطفى عليه السلام، يقول الطباطبائي في تفسير قوله تعالى من سورة الحديد ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾: "الرهبانية من الرهبة وهي الخشية، ويطلق عرفا على انقطاع الإنسان من الناس لعبادة الله خشية منه، و الابتداع إتيان ما لم يسبق إليه في دين أو سنة أو صنعة" قوله: "ما كتبناها عليهم" في معنى الجواب عن سؤال مقدَّر كأنه قيل: ما معنى ابتداعهم لها؟ فقيل: ما كتبناها عليهم"(الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة الحديد، نسخة رقمية).

ويصف كولن الرجلَ الذي يفهم التقوى والورع فهمًا سقيمًا بأنَّه مجرَّد حامل "شعارات شكلية جامدة" وصاحب "تصوفية متخدِّرة خالية من الروح"؛ أمَّا الذي يستوعب هذه الدلالة كما أمر الله تعالى فهو "مثل عالم كيميائي ينشئ في كلِّ آن تركيبة جديدة"، وهو صاحب "قلب ناضج عارف"(الموازين أو أضواء على الطريق، ص٢٨).

---

١ وانظر: محمد باباعمي: كتاب "صبغة الله"؛ سلسلة "ما بأنفسهم"، نشر مكتب الدراسات.

وبمثل هذا التعريف الشمولي الحركي الحضاري للورع يمكننا أن نفهم الكثير من تصرفات من ينسب إلى "البراديم كولن"، مِن مثل تأسيس المدارس، والتفوُّق في المعارف، وتنظيم الحوارات العالمية، والتفوق في الإبداع، وتنمية الصناعات والتجارات والثروات... كل ذلك جاء من قبل "الورع"، لا من باب "حبِّ الدنيا وهجران الآخرة"؛ فشتان بين هذا وذاك، حتى وإن كانت النتيجة الظاهرة متماثلة متشابهة!.

٢- المراقبة:

عرَّف كولن المراقبة بالبعد الشمولي الذي عرضناه من قبل، فقال: "ويمكن أن نعرِّف المراقبة أيضًا أنها: السعي الحثيث وراء مراد الله، والمرور بحياتنا وسلوكنا على نمط جاد في توحّد الداخل والخارج تحت نظارة الله سبحانه".

ثم وضع شرطا أساسيا لهذه المراقبة، فقال: "وهذا لا يتمُّ إلاّ بالاعتقاد بأنَّ الله مطّلع على جميع أحوال الإنسان، أي أنه سبحانه يسمع أقواله ويعلمها، ويعرف أطواره ويقدّرها، ويرى أعماله ويدوّنها. ويذكّرنا القرآن الكريم ببيانه المنوّر بهذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(يونس:٦١)"(التلال الزمردية، ص١٠٠).

فالشمولية والعمق والسعة تتمثَّل في "توحُّد الداخل والخارج"؛ والجذور الحركية تظهر جلية في "السعي الحثيث"، و"المرور بحياتنا وسلوكنا"، و"على نمط جادٍّ"؛ أمَّا التوجه والعقبى فندركه من خلال عبارتي "وراء مراد الله" و"تحت نظارة الله"؛ ويظهر النظام الإسلامي الأخلاقي التربوي في وضع السلوك، بل والحياة كلها، تحت مجهر مراقبة الله تعالى

المطلقة، التي لا تغفل عن أيِّ صغيرة أو كبيرة، وهي شاهدة شهودا مطلقا على كلّ عمل وإفاضة.

ولو أننا رسمنا خطَّ الفهم لمصطلح المراقبة، لكان خطًّا تصاعديا ديناميكيا حركيا، داعيا إلى التحرر والانطلاق، دافعا إلى الإبداع والانتصار؛ فالبون شاسع بين أن تراقب الله تعالى وأنت قابع في معبدك، ناء عن تدافع الحياة... وأن تراقبه وأنت تصنع أسباب الحضارة، وأسس التقدم، ومنطلقات النصرة والتمكين![1]

مِن هنا، يمكننا القول إنَّ بعض ما يفسِّر المقاييس العالية لمشاريع الخدمة، هو هذه المراقبة التي تتجاوز مراقبة المخلوق إلى مراقبة الخالق، وهذه المعية الربانية لمؤسِّسي هذه الصروح التي تعدُّ بالآلاف، وجميعها تسمو وتتفوق شكلا ومضمونا، جمالا ومحتوى... وإنَّ هذا الملحظ ليصنع معالم الحدِّ الفاصل بين "البراديم كولن" وغيره، بكلِّ ما تعنيه الكلمة.

٣- الدعاء:

عندما يتعلَّق الأمر بالوجدان، وبالعلاقة بالله تعالى، وبسبُل السعادة الدنيوية والأخروية، ينطلق الأستاذ كالصاروخ في صياغة الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم، ثم يفجِّر بركان المعاني من أعماقه، فتتعالى الدلالات يسَّابق بعضها بعضا، لتسقيَ القلوبَ العطشى، وترويَ العقول الظمأى... ومن هذا القبيل[2]: الدعاء، والذكر، والضراعة، والتوسل...

ولنضرب مثلا واحدا بالدعاء الذي له في قاموس الأستاذ مكانة خاصَّة، تماما مثلما هو الحال في حياته، وفي دعوته، ولدى الشباب الذين ربَّاهم ونشَّأهم بعنايته... فإذا صحَّ أن يلقَّب الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى

١ وانظر: من العزلة إلى المخالطة"، الفصل السابق من هذا البحث.

٢ وانظر: البكاء هما وهمة"، ضمن فصل أسباب الرشد وموانعه.

بـ"إمام الدعاة"، فقد صحَّ أنَّ يلقَّب الأستاذ كولن حفظه الله بـ"إمام الذكر والدعاء". ولقد أشرف الأستاذ على نشر كتاب بعنوان "القلوب الضارعة"، يحوي الأدعية المأثورة في القرآن الكريم، والسنة الشريفة، وتراث السلف والخلف، وكذا جملةً من أدعيته هو، وكتب في تقريظ الكتاب: "كم آمل أن يكون العُبَّاد والزُّهَّاد اليوم يولون الذكر عناية فائقة، ويتحرَّون سبل زيادتها، وزيادة ذكر الله تعالى. لكننا مهما ذكرنا الله كثيرًا، ومهما زدنا في عبادته، فلن نوفي حقَّه من الذكر".

ومن الصيغ التي عرَّف بها فتح الله الدعاءَ، نورد نماذج، منها:

– الدعاء "نداء وتضرُّع، وتوجُّه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سكَّان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلبٌ ورغبةٌ وطرحٌ لما في الصدور من آلام".

– "والدعاء باعتبارِ توجُّه العبد المدرِك لأحوال عجزه وفقره وقِصَر يده عن كفاية نفسه، إلى الرحيم الذي لا نهاية لرحمته، وعرضِ حاله عليه، وطلب الاستجابة منه، هو ضرورة لازمة لتوكيد إيمان العبد بربِّه، وثقته به، واعتماده عليه، وتوحيده".

– "والدعاء، مفتاح طلسميٌّ لخزائن الحقِّ اللانهائية، ومستندُ الفقراء والمساكين والحزانَى، وآمن ملجإٍ للمكتوين بِحَرِّ ضرورات الحاجة"

– "الدعاء غذاء الروح. ويجب إمداد الروح بهذا الغذاء على الدوام"

– "الدعاء هو تخطِّي الأسباب الظاهرية بإعلان الاعتماد على قدرة الباري تعالى وإظهار الضعف البشري"

– "الدعاء أصفى مظهرٍ من مظاهر العبودية وأصدقُها في كلِّ حين،

لكونه لبَّ التوجه إلى الحقِّ تعالى بالطلب، وأفضلَ إعلان للعبودية"(ترانيم روح، التلال الزمردية، الموازين...).

نعم، قد لا تكون جميع هذه العبارات تعريفات حدِّية منطقية، لكنَّها مجتمعةً تفتح لنا أفق المعنى مرتبطا بإرادة الاستجابة؛ إذ ليس هدف الأستاذ من هذه التعاريف الترف الفكري، ولا التبجُّح النظري؛ وإنما هدفه الأساس هو دفع الناس إلى الدعاء، وقبل ذلك حمل نفسه على الدعاء، ولذا تفنَّن في وصف منافذ الدلالة عن الداعي والمدعو والدعاء:

فالداعي وُصِف بالصغير، والأسفل، والعبد، والفقير، والمسكين، والحزين، والمكتوي، والضعيف...

أمَّا المدعوُّ، فهو الكبير، والأعلى، وما وراء السماء، والرحيم، والربُّ، والباري...

والدعاء... هو النداء، والتوجُّه، والتضرُّع، واللهفة، والطلب، والرغبة، والضرورة لتوكيد الإيمان، والمفتاح الطلسميُّ، ومستنَد الفقراء، وآمن ملجإٍ، وغذاء الروح، ووسيلة لتخطي الأسباب الظاهرية، وأصفى مظهرٍ من مظاهر العبودية، ولبُّ التوجه إلى الحقِّ، وأفضل إعلان للعبودية...

يجمع بين هذه التعاريف جامعُ الشمولية والحركية وإرادة الفعل وإدارته، فليس الدعاء لمجرَّد الدعاء، وليس مظهرا من مظاهر السكون وهجران الحياة، بل هو مرتقى وسلَّم للمعالي والعظائم[1]؛ وليس أقوى دلالة على هذا من قوله تعالى في شأن موسى عليه السلام، وهو يدعو ربه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي

١ ما أروع كتاب العلامة محمد الغزالي رحمه الله، في هذا الشأن، والذي عنوانه "فن الذكر والدعاء".

أَمْرِي...﴾، كلُّ هذا الدعاء والتبتل لله تعالى، من أجل ماذا؟ وما هو الطلب؟

هل هو النصرة على فرعون؟ أو التمكين في الأرض؟ هل قال: كي نُنصر وننتصر؟

كلا، وإنما "كي نسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا" ونعمل وفق مراقبتك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾. فإذا ما تمَّ لنا هذا، وتيسَّر لنا التسبيح والتعظيم والتهليل، بل وجميع الدعاء، بكثرة، وكما يريد الله تعالى، فإنَّ النصر على فرعون سيصير نتيجة لا مقدِّمة، نهاية لا بداية، عارضا لا أصلا.

وما بين الحقِّ والحقِّ يغيب الخلق...

نحو موسوعة للمصطلحات والمفاهيم والتعريفات

إنَّ الرغبة في استكمال التصوُّر لمنظومة الدلالة عند كولن، ولعمق المفاهيم والمعاني في "البراديم كولن"، لتدفعنا إلى اقتراح مشروع موسوعيٍّ تكميليٍّ لمشروع "قاموس المفردات" الذي اقترحه علي جولاق؛ ولا ريبَ أنَّ هذا العمل لو تمَّ سيفتح بابا واسعا لفهم المنظومة في كامل مراحلها، وفي تتبع حياة الألفاظ من مرحلة الميلاد النظريِّ، إلى مرحلة النضج المعرفيِّ، ومنها إلى مرحلة التمثُّل الميدانيِّ... ثم -مرَّة أخرى- إلى إعادة الصقل والتنقيح... في حركة حلزونية تصاعدية لانهائية، تكتسب صفة الثبات باعتبار، وتمتاز بسمة التغير باعتبار.

وهذه المصطلحات والمفاهيم والتعريفات مدخل من مداخل نماذج كولن، التي نأمل أن تنير الدرب إلى استيعاب روح التجربة، وأن تسهم في إعادة تطبيقها في بيئات أخرى بعد إمرارها على غربال التكييف مرَّات ومرَّات.

الفصل الرابع

المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك، في البراديم كولن

"كان شعار نيوتن في عزلته هو:

العمل، والعمل، ومزيدا من العمل"

(كريستيانس، إسحاق نيوتن والثورة العملية)

المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك، في البراديم كولن

مدخل إبستمولوجي

إنَّ البحث في العلاقة بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل... يقودنا إلى مجالات معرفية خِصبة، منها: فلسفة التربية، وعلوم السلوك، والإبستمولوجيا، ونظرية المعرفة؛ ثم يدفعنا، ضرورةً، إلى البحث في اللغة والمنطق، وفي مناهج بحوث الفعل،[1] وفي التربية بالخبرة،[2] والحرية للتعلُّم[3]... وغيرُها من المداخل كثير.

وإنَّ المتفكِّر في كلام الله تعالى لَيجِد منطلقات مغريةً للغوص في هذه الإشكالية، باعتماد التحليل والتركيب والمقارنة، ثم البناء الإبداعيِّ المركَّب، غير المختزل...

ومن المقاربات التي اقترحتُها منذ أمدٍ، ما يُعرف ببحوث الرشد، والرشاد، والترشيد... وما يترتب عليها من مفاهيم، وما يلتصق بها من مصطلحات.

---

١ بحوث الفعل (action-research)، تنسب إلى لوين، ثم طورها كولب وغيرهما.

٢ التربية بالخبرة ((experiential learning، تنسب إلى ديوي ثم بياجي، يعمل بها بخاصة مشروع مدارس شنايدر.

٣ مقاربة الحرية للتعلم (freedom to learn)، تنسب لكارل روجرس، وتعمل بها العديد من المدارس العالمية، وقد اعتمدتاها في المدرسة العلمية الجديدة، في الجزائر.

لقد وُلدت مقاربة الرشد ضمن بناء معرفيٍّ منهجيٍّ متكامل، يُعنى بإشكالات التخلُّف والحضارة، ومقاربات الفعالية والتفعيل، ونظريات الكفاءة واللاكفاءة... وغيرها مما طوَّره العلماء من أمثال: بوبر، وابن نبي، وبيترز، ولوين، وكولن... كلُّ ذلك لهدف واحد هو: تأسيس "منظومة معرفية رشيدة"، تعنى بالمداخل الواردة أعلاه مجملةً: الحضارة، والتربية، والثقافة، والفكر، والفنُّ، واللغة، والمنطق...

في هذا النسق رأيت أنَّ سورة الكهف -من كلام الله سبحانه وتعالى- هي سورة الرشد بامتياز، وهي المرجع الأساس لكلِّ منظومة فكرية قرآنية مهما كان نوعها، وهذا لا يستثني -طبعا- السور الأخرى، التي عالجت المعرفة وعلاقتها بالسلوك، مثل سورة: البقرة، والنجم، والجن... بل، ولا يلغي أيَّ آية من القرآن الكريم من دفَّته إلى دفَّته...

ففي سورة الكهف ذُكر مصطلح الرشد أربع مرات، وهي قوله تعالى:

في معرض الحديث عن الفتية أصحابِ الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(الكهف: ١٠)

في نفس السياق مخاطبا رسوله الكريم: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾(الكهف:٢٣-٢٤).

في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(الكهف:٦٦).

أما بصيغة اسم الفاعل "مرشدا"، فوردت في تقرير دلالةٍ عقدية وقانونٍ رباني يضبط جدلية الهداية والضلال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(الكهف:١٧).

قد لا يسعفني هذا الفصل[١] في بسط هذه السياقات كلِّها، ولعلَّ ذلك يليق أن يكون مؤلفا مستقلا، بل ملتقى عالميا، ودورة تدريبية متخصِّصة، تعالج الموضوع من مختلف الجوانب، وبمختلف المناهج.

أمَّا هذه العجالة فتقتصر على قصَّة الخضر مع موسى عليهما السلام، من خلال فكر المجدِّد المصلح محمَّد فتح الله كولن... وهذه القصَّة هي مدرسة في المنهج والموضوع،[٢] وهي معدنٌ لمبادئ التعلم، ولتقنيات التعليم، ولأبعاد العلم، ولفلسفة العلوم، ولمستويات المعرفة، وللعلاقة بين الفكر والفعل... مما لا يحصى.

نظرية التعليم في قصة الخضر وموسى عليهما السلام:

إنَّ قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا...﴾(الكهف:٦٥)، يأخذ أبعادا مختلفة:

علَّم الله سبحانه الخضرَ من "لدنه" علما، بعدما آتاه رحمة من "عنده"، وكلٌّ من "اللدنية" و"العندية" في فلسفة العلوم هي جوهر الحقِّ ومعدن الصواب، وبخاصَّة أنها "لدنية" مطلقة و"عندية" ذاتية، لا يحدُّها حدٌّ، ولا يحصرها أحدٌ...

يجمع "كولن" بين "اللدنية" و"الفعالية" في مقاله المعنون بـ"الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي"، ويقول:

"فالإيمان الذي هو كشجرة طوبى تنشأ من هذه البذرة فتغطي بما تؤتي من ثمار المعرفةِ سماءَ حسِّ الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تستحيل العلوم

---

١ هذا الفصل ألف محاضرة لملتقى حول فكر الأستاذ فتح الله كولن، بعمَّان، عاصمة المملكة الأردنية؛ ثم نشر كاملا في المجلة الاسكندنافية الإلكترونية المحكَّمة، وضمَّنته هذا الكتاب؛ لأنه في عمق الأعماق منه، بل لعله كان المنطلق في التفكير في هذا الكتاب.

٢ انظر: محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان؛ تفسير آيات من سورة الكهف.

والمعارف كلُّها إلى العشق والاشتياق والحرص بحملة داخلية وشعور وحسٍّ داخليّ، ليحاصِر ذاك الإنسانَ من كلِّ جهة، فيصيّره إنسانًا جديدًا قائمًا على محور الوجدان... فتنعكس هذه الحالُ على كلِّ سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. فتحمل عبادتُه وطاعته سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباتُه البشرية انعكاساتٍ لهذه "اللدنية"... وتتمحور حملاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلُّها، حول هذه القوة الجاذبة "إلى المركز..."[1].

الحقُّ أنه لمَّا أدرك "موسى" هذه الأبعاد وأبعادا أخرى لا يتسنى لنا تصوُّرها، بله إدراكها، وهو النبيُّ الموحَى إليه، لم يتردَّد لحظة في طلب العلم "اللدنيّ" من هذا الرجل الذي أخذه من المصدر مباشرة بلا واسطة؛ فما كان من "موسى" إلاَّ أن ترك سفره وودَّع غلامه، ليبدأ رحلة علمية فعلية، كانت انطلاقتها سؤالا واضحا: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، ولو أنَّ الآية توقَّفت هنا لاكتمل المعنى، ولكان طلب "موسى" مقتصرا على "المعلومات"، وعلى "العلم النظريِّ"، بعيدا عن الخبرة، والواقع، والحياة؛ لكنه أضاف كلمة كانت السرَّ والمفتاح المعرفيَّ لهذه التجربة الفريدة.

الكلمة هي: "رُشدا".

والرشد فسَّره القدامى بأنه: "إصابة الخير"،[2] و"الدليل على الهدى"،[3] وأنه "الإيمان المخالف للغيّ"،[4] استنباطا من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦).

---

١ مجلة "ياني أميد"، نقلا عن موقع الأستاذ، http://ar.fgulen.com/content/view/13/101/

٢ الآلوسي: روح المعاني؛ تفسير سورة الكهف، الآية ٦٦.

٣ الطبري: جامع البيان؛ تفسير سورة الكهف، الآية ٦٦.

٤ اطفيش: هميان الزاد؛ تفسير سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

أَمَّا الشعراوي فقد وجَّه المعنى توجيها جديدا بديعا، وجعل الرشد بمعنى "حسن التصرف في الأشياء، وسداد المسلك في علَّة ما أنت بصدده".[١]

لو تجاوزنا نظريات "التعلُّم" الكلاسيكية،[٢] التي تقصر عملية التعليم على "نقل المعلومات مِن وإلى"، فإننا نلتقي بمدارس قائمة بذاتها، تجعل التعلم مقرونا بالخبرة وبالتجربة، يقول سِنج: "حين نتعلم فإننا نعيد صناعة حياتنا من جديد، ونصبح قادرين على فعل أشياء كنا عاجزين عن فعلها قبلُ، ونغيِّر طريقتنا في النظر إلى العالَم ومنهجَنا في التفاعل معه، ونطوِّر مقدرتنا على الإبداع".[٣]

ويضيف بوراسا وآخرون عنوانا دالا هو: "أن نغيِّر يعني أننا نتعلم" (Changer signifie apprendre).[٤]

هل ما قاله "سنج وبوراسا" وغيرهما أعمق مما ورد في كلام الله تعالى مختصرا عميقا دقيقا، في كلمة واحدة هي: "الرشد"؟

طبعا، شتان بين هذا وذاك، وفرقٌ ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق.

لنتأمَّل تعريف الشعراوي، الذي وظَّف كلمات مفتاحية هي: "الحسن"، و"التصرف"، و"السداد"، و"المسلك"، و"العلة"... ثم ختمها بالبعد الزمني والمكاني لمدلول الرشد، بقوله: "في علَّة ما أنت بصدده"، أي أنّ تعليم الرشد يَعتبر "حالةَ المتلقي النفسية والاجتماعية والمعرفية، وظروفه الزمانية والمكانية"،[٥] أمَّا التعليم غير المعتمد على الرشد فيقتصر على

---

١ الشعراوي: خواطر إيمانية؛ تفسير سورة الكهف، الآية ٦٦.

2 انظر: B. Bourassa et autres: Apprendre de son experience, chapitre1: l evolution de la conception de l apprentissage, pp7-14. presse de l université de Quebec, 2007

3 Peter M. Senge: La cinquième discipline; Paris. 1991, p30

4 Op cit: p88

٥ باباعمي: مراعاة الظروف والأحوال في تفسير الآية القرآنية، دبلوم دراسات عليا، معهد أصول الدين، الجزائر؛ ١٩٩٤م.

المعلومات مفصولة عن الواقع، وهذا ما يولِّد حالة انفصام وفصام.

ولعمري إنَّ هذه هي إشكالية المسلمين اليوم، إنها إشكالية الانفصام بين العلم والعمل، بين الفكر والفعل، بين الدين والدنيا... ولقد عالجها الكثيرون، تحت مسمَّيات مختلفة، منها: الفعالية، والمنطق العملي، والتوجيه العملي، والمنهج السلوكي، والأزمة المعرفية...

ومن أبرز من أبدع في تحليل هذه الإشكالية، واجتهد في تشخيصها أولا، ثم دفع إلى التحرر منها ثانيا، وأقام ـ بالفعل ـ صروحا حضارية ثالثا... المفكِّرُ الأستاذُ "محمد فتح الله كولن".

ففي كتاب "التلال الزمردية"، يقول في ثنايا معالجته لموضوع المعرفة:

"إنَّ أُولى مراتب المعرفة هي رؤية تجلِّيات الأسماء الحسنى، المحيطة بنا إحاطة تامَّة وحدسُها، ومشاهدةُ إقليم الصفات الجليلة المثير للإعجاب، فيما وراء انفراج أبواب الأسرار بهذه التجليات".

ولكنَّ الأستاذ لا يتوقَّف عند هذه المحطَّة التي كثيرا ما توقف عندها الكتَّاب والمفسِّرون، بل يواصل المسار والطريق، ويقول:

"ففي أثناء هذه السياحة تسيل الأنوار من عيون السالك وأذنه إلى لسانه، ويشرع قلبُه بالهيمنة على سلوكه، ويغدو سلوكه وأطواره لسانًا ناطقًا بتصديق الحقِّ سبحانه والإعلان عنه، حتى يتحوَّل هذا اللسان كقرص مرن لـ"الكلمة الطيبة".. وإذا بأنواع من أنوار مشعة تنعكس، كلَّ آن، عن شاشة الوجدان من الحقيقة المنوّرة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فاطر:١٠)".

المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك

لو سطَّرنا مراحل المعرفة حتى نصل بها إلى الفعل الحضاري، من خلال هذا الاقتباس الساطع في فكر السيد كولن، فستكون كالآتي:

١. معرفة الحق سبحانه حق المعرفة[١]:

من خلال رؤية أسمائه الحسنى، مما عبَّر عنه بـ"رؤية تجليات الأسماء الحسنى"، وللأسماء الحسنى في فكر كولن مكانة خاصَّة،[٢] إذ لا يعدُّها مجرَّد كلمات وألفاظا، وإنما يصنع منها سلالم للرقيُّ الروحيُّ والوجدانيُّ، ويبدع بها أسبابا للسمو العقليِّ والحركيِّ.

ثم حدسُ هذه الأسماء، وفرقٌ كبير بين الرؤية الحسية الظاهرية اللغوية العقلية، والحدس المعنوي الباطني الإيماني القلبي...

معرفة صفاته تعالى بعد إدراك أسمائه الحسنى، وهذه الصفات -لعظمتها- تعتبر إقليما مثيرا للإعجاب لمن وعى وتفكَّر.[٣]

ثم الاجتهاد في النظر إلى الأسرار والتجليات، لا إلى المظاهر والمعلومات... خلافا للكثير من مناهجنا التربوية والدعوية التي تقتصر على المعاني الخارجية العقلية العامَّة، غافلة الدلالات الخفية العميقة القلبية الخاصَّة، يقول "فونستراماخر": "اختبار حالات التعلم تجعلنا نكتشف أنَّ اعتقاد الشخص يتدخل بصورة أساسية في التلقي، وفي تطبيق

---

١ يقول في مكان آخر: "إن عبادة الله تعالى فعْل مترتب على معرفته سبحانه وتعالى"، مسجد بورنوا، ٤ فبراير ١٩٧٤؛ ترجمة أورخان محمد علي، موقع: http://ar.fgulen.com/content/view/749/117/.

٢ وانظر: كولن: قوة فاعلية أسماء الله الحسنى؛ مسجد بورنوا، ٦ يوليو ١٩٧٦.

٣ وانظر مثلا: كولن: النور الخالد؛ ج٣...وفيه حلل بعمق صفة الحلم لدى رسول الله ﷺ، وربطها بصفة الحلم عند الله تعالى، بأسلوب بديع.

المعرفة"،[1] يقول هذا وهو يتأسف أنَّ نظريات التعلم تقتصر على المعارف (Les savoirs) وتغفل المعتقدات (Les croyances).

٢. انتقال المعرفة من المداخل إلى المخارج عبر العقل:

يقول صاحب التلال:

"ففي أثناء هذه السياحة تسيل الأنوار من عيون السالك وأذنه إلى لسانه"، فالأعين والآذان مداخل للعلم والمعرفة، منها تعبر المدركات، سواء أكانت حسية أم عقلية، دلالية أم لغوية... ثم يأتي اللسان، وهو من أبرز المخارج لهذه المدركات، فيصف ما يحدث داخل العقل وفي سويداء القلب، بأخصر عبارة، وبأوضح بيان... ولا يشترط أن يكون الواصف الناطق عالما، لكن يكفي أن يكون صادقا، ولو كان صبيا، ليخرج من فؤاده أعجب المعاني، وأوسع الدلالات...

٣. حركيةٌ من اللسان مباشرة إلى الجنان والقلب:

تصير المعرفة بالإضافة إلى طابعها العقلي قلبية وجدانية سديدة، خلاف من يحبسها في الدور الفلسفي: "من الحواس إلى العقل، ثم من العقل إلى الحواس"، ويُلغي كلَّ ما كان وجدانيا، ويعتبره خارج دائرة الموضوعية، فيصنفه ضمن مسمَّى الذاتية التي لا تعدُّ علما عنده... وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذا الانحراف ورَّث البشرية ضلالا، يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩)؛ لأنهم عطَّلوها وحنَّطوها، ومن مات قلبه مات وجدانه.

٤. تحرُّك آلة السلوك والجوارح:

وهنا مربط الفرس، في فكر فتح الله، أي بعد كلِّ هذا الجهد المعرفيِّ

1 - Fenstermacher: The knowledge and the known. p 1994

النظريِّ، هل تتحوَّل المعارف سلوكا، وهل يتمظهر العلم عملا وتطبيقا؟

أمَّا الأستاذ كولن فيعيد السبب إلى المقدّمات الأولى: فإذا كانت المقدِّمات صحيحة سليمةً كانت النتائج كذلك، وإذا كانت فاسدة سقيمة جاءت النتائج على إثرها كذلك.

وقلَّ من الناس من يغوص في الجذور؛ لأنَّ العديد من النظريات تسبح في الطرق والوسائل والمقارَبات، بعيدا عن المبادئ والمنطلقات، فتصيب جزءا من الحقيقة، ولكنَّها لا تدرك الحقيقة ناصعة كاملة لاشيةَ فيها.

وهذه المرحلة، الرابعة، مرحلة فارقة في تتبُّع **الحدِّ الفاصل للبراديم كولن** ذلك أنَّنا نصادف فكرًا بلا فعل، ونصادف فعلاً بلا فكر، كما أننا نجد في واقع المسلمين اهتماما بالفكر مقرونا بالفعل، لكن مع غياب عرض الوسائل والآليات، وبسط النماذج والتقنيات... فيبقى هذا العرض، على أهميته، حبيس الكتب والأوراق والأذهان، ولا يقفز إلى التمثل الواقعي الميداني الحضاري... أمَّا كولن فيختلف كلَّ الاختلاف عن كلِّ ذلك، والواقع شاهد على هذا الحكم.

٥. تحوُّل السلوك والأحوال إلى لسان ناطق بتصديق الحقِّ:

ينِدُّ عن العلوم المنطقية والعقلية وصفُ هذه المرحلة، ذلك أنها في سُلَّم المعرفة مرحلة عميقة جدًّا، لا ترضى بشاطئ الحياة مِثلَ أطفال صغار لا يُحسنون السباحة، بل تلِج مثل غوَّاص ماهر إلى أعماق بحارِ العقل، وإلى أغوارِ محيطاتِ القلب، فتتمثَّل لها الأفعال مجسَّدةً، في صورة أقوال وكلمات... كلُّ حركةٍ تساوي جملةً معبِّرة، وكلُّ فعْل يَعْدِل نصًّا مُحْكما... إلى أن تتوحَّد اللغاتُ جميعا -لغةُ العقل والقلب واللسان والجوارح- في لغة واحدة، هي لغة تصديق الحق تعالى، تحت مُسمَّى:

"الكلمة الطيبة"، وما أروع الدليلَ على ذلك في قوله جل من قائل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فاطر:١٠).

٦. بُدُوٌّ ذلك في الأسلوب الإيمانيِّ الإيجابيِّ للفرد والمجتمع:

لا شكَّ أنَّ من كانت أحواله، كما ذُكر، فإنه سيولَد إنسانا آخر، ليس على شاكلة كلِّ مولود يوميٍّ تتقاذفه رياح العصر، لكن على شاكلة النخلة السامقة المعطاء، فيكونون كما يقول الأستاذ "كولن":

ممن "يدفعون السيئة بالحسنة، وبالكلمة الطيبة، وبسلوك الإحسان، وبالقول اللين... فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبيات، ويقابلون الأفكار الهدّامة بحملات البناء"(مقال المؤمن لا يسقط وإن اهتزَّ، حراء، عدد ١٧).

٧. ميلاد حضارة إسلامية هي حضارتنا الذاتية:

كم من محاولة وتجربة خاضها العالم الإسلاميُّ في القرون الأخيرة، لاستعادة المكانة اللائقة بالأمَّة الإسلامية، غير أنها لم تصل الغاية، وإن كنَّا لا نقول عنها إنها فشلت، بل لعلَّها تكون بوادر وبواكير ومؤشِّرات للمستقبل... غير أنَّ الذي ينبغي أن ننتبه إليه اليوم، وقد تنبَّه له البعض، والذي ينبغي أن نعمل وفقه في منهج "الرشد"، هو: ذاتية التغيير، لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، فكلُّ تغيير يأتي من الخارج هو تغيير لخلق الله، وهو تشويه لما أبدع الله.

وإذا ما توالت **مراحل تحويل المعرفة إلى سلوك**، وفق الخطوات السابقة، فإنَّ النتيجة تكون طبيعية، لا جدال فيها، يقول "فتح الله" في كتاب خصَّصه للحضارة:

"ينبغي أن يُستنفَر كلُّ مَنْ له قولٌ في الموضوع، ومهندسو عالمنا

الفكري خاصَّة، بروحية النفير العام إزاء خطب داهم، وتحويل البلاد من أدناها إلى أقصاها إلى مشاغل لثقافتنا الذاتية، ومدارس لفلسفة حياتنا الذاتية، ومختبرات تركيب وتحليل لمنطقنا ومحاكمتنا العقلية الذاتِيَتَين. فإنَّ بقاءنا بذاتيتنا يمر عبر انبعاثنا بذاتيتنا. فإذا تحرَّكنا بهذا الاتجاه، فسوف تكون ثقافتنا الرصينة، وجذورنا المعنوية والروحية، وشخصيتنا ومحتوانا، جزءًا لا يُستغنىَ عنه من الثقافة العالمية"(ونحن نبني حضارتنا، نسخة رقمية).

وللقارئ أن ينتبه إلى عناوين مؤلفات "الأوجا كولن"، فهي مرتَّبة بناء على هذه الخطوات السبع، بداية من بناء الذات، التي يمثِّلها كتابه "ونحن نقيم صرح الروح"، وانتهاءً ببناء الحضارة، الممثلة في كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، وفي عمق هذه المسيرة يقع "البيان"، ويُحتاج إلى "التلال الزمردية"، ويُستضاء بـ"النور الخالد"، ويُخطَّط لـ"جيل الحداثة"، فإذا ما وقعت الحيرة وكثرت الأسئلة اُحتيج إلى الجواب عن "أسئلة العصر المحيِّرة"، وهي في طبيعتها متجدّدة لا تنتهي، ما دامت الحياة جادة في هرولتها نحو الفناء ووجهة الخلود والأبد.

يمكننا أن نرسم هذه الخطوات السبعة، التي تعالج الإشكال الجوهريَّ لهذا الكتاب: كيف نحول المعرفة إلى سلوك، والعلم إلى عمل، والفكر إلى فعل؟ بالشكل الآتي:

لو تأمَّلنا الرسم البياني بعين البصيرة، فسنكتشف فيه سرًّا بديعا، وهو أنَّ "معرفة الحقَّ تعالى حقَّ المعرفة" هي المنطلق والأساس باعتبار، وهي المقصد والغاية باعتبار آخر، أو قُل هي في البداية بالنظر إلى مرحلة، وهي في النهاية بالنظر إلى مرحلة تالية...

وهذه الصفة التي عالجها وأبرَزَ معالمها الأستاذ، هي بمثابة "الدينامو"[١] (أي المولّد) الكهرومغناطيسي، الذي يعرَّف أنه "عبارة عن آلة لإنتاج التيار الكهربيّ المستمر عن طريق الحركة، وهذه الفكرة معروفة لدى راكبي الدراجات حيث يتم تحويل الطاقة الحركية إلى طاقة كهربية". فإذا كان التيار هو الذي يضيء الليل، فإنَّه في سياقنا هو "تيار الإيمان"، و"تيار الحضارة"، والحركة عبارة عن "الاجتهاد" و"الجهاد"، فالإيمان الحقُّ يولِّد الفعل الموفَّق، والعمل الصادق يجدِّد الإيمان بالحقِّ.

معالجات في أصول المعرفة والسلوك

عالجتْ آياتُ سورة الكهف، التي تعرَّضت لقصَّة موسى والخضر عليهما السلام، كلَّ الأصول النظرية للمعرفة والسلوك، فتناولت بداية أهمية الصبر في كلِّ عملية تعلُّم: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(الكهف:٦٧)، ثم بينَّت سبب عدم الصبر، وهو العجز عن إدراك حقائق الأمور وخفايا الأفعال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾(الكهف:٦٨).

ثم ركَّزت على إصرار المتلقِّي وعلى التحدِّي وسيلةً للتعلُّم، وسرًّا للنجاح: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(الكهف:٦٩).

ولقد أبرز الأستاذ كولن ملامح الشخصية التي تجعل من العراقيل سُلَّمًا إلى المراقي والعظائم، وقال في مقال بعنوان "رجل القلب":

"لا يقع رجل القلب في اليأس أبدا من سوء النظام الموجود، ولا يهتزُّ أبدا حتى وإن وقف الناس أجمعون ضدَّه، بل ينهض بعزم أمام جميع

---

١ مخترع الدينامو هو زينوب جرامي (Zenob Gramm) ١٩٠١–١٩٢٦، وقد نفذ الفكرة أول مرة عام ١٩٧١م. وانظر: ". Ouvrage collectif, "Le Trésor, dictionnaire des sciences © Flammarion, ١٩٧١.

المصاعب، وهو يصُرُّ على أسنانه متحمّلا؛ لأنَّه يدرك أنَّ هذه الدنيا ليست بدار شكوى بل دار تحمُّل، يصبر ويبحث عن طرق بديلة لحل المشاكل التي تعترض طريقه، ولا يفتُر عزمه ولا إقدامه حتى في أحلك الظروف، بل يقوم بإنتاج إستراتيجيات مختلفة"(صورة قلمية لرجل القلب، حراء، عدد ١٤).

إنَّ العبارة الأخيرة في هذا النص لا تحث فقط على تحدِّي الصعاب، ومغالبة المشاكل، بل تدفع إلى إنتاج "استراتيجيات جديدة"، وهذا لا يكفي، بل ينبغي أن تكون "مختلفةً" عن الاستراتيجيات السابقة؛ لأنَّ من يطلب نتيجة بتكرار نفس الفعل الذي لم يُثمِر من قبلُ، فإنه يطلب المستحيل. وفي القاموس الصيني: "المجنون هو الذي يعيد نفس الفعل وينتظر نتيجة مغايرة".

العلاقة بين المعلم والمتعلم، وأهمية الخبرة والتجربة

تعرَّضت آيات الكهف إلى ثقة المعلِّم في المتعلم، وبداية المشوار التعلُّمي-العملي، الفكري-الحضاريِّ، بين الطرفين، فرغم أنَّ الخضر نفى عن موسى إمكانية الصبر إلاَّ أنَّ أسلوب الثقة سمح له باختبار ما قاله، إذ ليس الهدف هو إدراك الحقيقة فقط، لكنَّ الهدف الأساس هو معرفة منهج وطريقة الوصول إلى هذه الحقيقة، فالتعليم يركز على "القدرة على الإنتاج" (CP) لا على "المنتَج" (P)،[1] ويختصر البعض هذه الإشارة في المثل الصيني: "علِّمني كيف أصطاد، ولا تطعمني سمكا".

ثم تأتي مرحلة التعلُّم عبرَ الخبرة، وهي أن تعتبر عملية نقل المعلومة والمعرفة جزءًا من الحياة، لا عملية منفصلة عن الحياة، ولقد ركَّز كُلٌّ من "رُواد نظرية بحوث الفعل"، وكذا نظرية "التعلُّم بالخبرة"، ومدرسة

1 - وانظر- Stephen R. Covey: Les sept Habitudes, First ed. 1996, p52

"شنايدر"، ومدرسة "ديفلين" ومنظِّرو "الذاتية في التعلم"... ومن قبلِهم المفكِّرون التربويون المسلمون، وقبل الجميع كلام الله تعالى... على ضرورة التعلُّم عن طريق الممارسة والخبرة والفعل، لا بمجرَّد نقل المعلومات، وشحنها، ثم حفظها، والاختبار فيها، ثم الانتقال إلى معلومات جديدة... فيتحوَّل صاحبها في الأخير إلى خزَّان للمعلومات، لا يملك القدرة الكافية على توظيفها، ولا تشغيلها في نسق آخر.

ولقد أبدع الأستاذ كولن في بيان صفات "الإنسان الجديد"، ووضع على رأسها صفة الاعتماد على التجربة جنبا إلى جنب مع اعتماده على العقل، فقال عنه:

"أجل، من بين هؤلاء الذين هجروا العقل والتفكير مندفعين خلف "الموضات" الفكرية دون أي تمحيص أو تدقيق، ومن ضمن الجماهير الفاقدة لوَعيها، الهائمة على وجهها، سيولد إنسان جديد كلَّ الجِدَّة، إنسان يفكِّر ويحاسب، ويوازن ويدقِّق، ويعتمد على التجربة قدْرَ اعتماده على العقل، ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة" (الإنسان الجديد، حراء، عدد ١١).

بل إنَّ الوجود كلَّه يتحول إلى فرصة للتعلُّم والتلقِّي: والمقصد هو

"تحويل كلِّ مكان، سواء أكان مدرسةً أم مسجدا، شارعًا أم مسكنًا، إلى مراصد ترصد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان" (لدى استكشافنا خط السير، حراء، عدد ٤).

وينبغي أن نتنبه إلى أنَّ "الخطأ" في "الخبرة" جزء أساس من عملية التعلم والتعليم، فأخطاء موسى عليه السلام، رغم أنها وصفت بـ"عدم الصبر"، وبـ"النسيان"، وبـ"التسرع والاستعجال"... إلاَّ أنها كانت سببا لإدراك الحقائق

ووسيلة لتمثُّل المعارف، فمَن خاف مِن الخطأ لم يدرك الصواب، وقد قال عمر ﷺ: "**ستتقطَّع عُرى هذا الدين على يد أقوام لم يعرفوا الجاهلية**"، ولذا فإنَّ تعلُّم الصواب فقط، دون إدراك نقيضه، قد يؤدِّي إلى الجهل بالخطأ، وبالتالي إلى الوقوع فيه ضرورة. فارتكاب الخطأ طبيعةٌ في بني البشر، والفرق بين إنسان وآخر هو الاستعداد للتصحيح لدى البعض، وعدم تقبُّل التصويب لدى البعض الآخر، ولذا وصف الله تعالى هؤلاء بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾(البقرة:٢٠٦).

وأخيرا، انتهى هذا الفصل باستخراج المراحل السبعة للتلقي، ولتحويل المعلومة إلى معرفة، في فكر المجدِّد محمد فتح الله كولن، وتبين أنَّ نظرية المعرفة لديه تكتسي أهمية كبرى، مما يستدعي بحوثا متخصِّصة شاملة، تستقرئ جميع تراثه الفكريّ، وتقارنه بالمصلحين الآخرين، بحثا عن الخروج من مأزق اللافعالية في الفكر الإسلامي المعاصر، وإمعانا في تحويل المعرفة إلى سلوك، والعلم إلى عمل... وبهذا فقط تتحقق غاية الإسلام من العلم والمعرفة، وترتقي الأمَّة إلى مستوى الرشد المنشود، الذي أنزل القرآن الكريم ليهدي العالمين إليه، إنسيّه وجنّيه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

وإنا نعوذ بالله من علم لا ينفع، ونسأله أن يلهمنا رشدنا، ويهدينا سواء السبيل.

الفصل الخامس

أسباب الرشد وموانعه

"إننا أوجدنا حلولا لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا حلولا لعصركم"

(الشيخ عدون مخاطبا الجيل الجديد، بعدما تجاوز المائة من عمره)

أسباب الرشد وموانعه

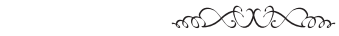

مدخل

إذا كان الرشد بمدلوله المعرفي يعني "**ذاتية اتباع الأسباب**"؛ فإنَّ هذه الأسباب التي تؤدِّي إلى الرشد الفرديّ والجماعيّ على السواء هي ذاتية، أمَّا الأسباب الخارجية فهي عارضة، لا تُلغَى مِن الحساب لكنَّها لا تغيّر من المعادَلة شيئا؛ ومن ثمّ كان لزاما لفهم "البراديم كولن" فهمًا حركيًّا، أن نتتبع أسباب الرشد، وموانع الرشد، في فكر الأستاذ أساسا، والخدمة تِباعا.

وإنَّ التأليف بين هذه الأسباب ليساعدنا على رسم خريطة شمولية غير مبتسَرة لجوانب الخدمة، وأبرز أعمدة تلكم الخريطة:

١. الجانب الإيماني القلبي.

٢. الجانب المعرفي العقلي.

٣. الجانب الدعوي الحضاري.

٤. الجانب الفني الجمالي.

فلكِّل جانب أسبابه وموانعه، لكن لن أعمد إلى ذكر السبب وعدمه في قائمة الأسباب، ثم إلى سلب السبب وإدراجه في قائمة الموانع، كأن أقول: الصبر من الأسباب، وعدم الصبر من الموانع؛ ذلك أنَّ هذا المسلك المنهجيَّ قد أسهب فيه الأصوليون في حديثهم عن "دليل الخطاب" أو ما يُعرف بـ"مفهوم المخالفة"، وعرَّفه القرافي بأنه "إثبات نقيض حكم المنطوق

به للمسكوت عنه"(شرح تنقيح الفصول، ص٥٥)، ثم إنهم أجمعوا على أنّه حجَّة، يقول الدريني: "أجمع الأصوليون ممن يقام لآرائهم وزن أنَّ مفهوم المخالفة في أقوال الناس، وكذلك في مؤلفات العلماء، حجَّة"(المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي، ص٣٩٥)، مِن هنا كان السبب من أسباب الرشد عند إيراده دالاًّ على أنَّ نقيضه مانع من موانع الرشد؛ فلا سبيل للإطالة والإطناب.

وإني سأعمُد إلى مؤلَّفات الأستاذ متتبعا ما عدَّه هو سببا، وما عدَّه مانعا، سواء بالتصريح والعبارة، أم بالتلميح والإشارة؛ ذلك أنَّ الأستاذ كان بمثابة المهندس الراسم للخريطة، والقائدِ الداعي إلى اتخاذ المسالك في الواقع، والمشير إلى الطرق المؤدِّية، حتى ولو كانت وعرةً، والمحذِّر من المهالك والمفاوز، حتى وإن بدت يسيرة سهلة.

وسأعرض ما توصَّلتُ إليه، محللا بعض جوانبه، بغرض اكتشاف خطِّ السير في تجربة كولن، وإدراك تلك المسافة التي تصل بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل، في مشروع حضاريٍّ هو بمثابة "تحوُّل في البراديم" (paradigm shift) من أزمة حضارية عالمية، بما فيها أزمة المسلمين بُعيد سقوط الدولة العثمانية، إلى بوادر للانفراج، قد لا تكون مكتملة المعالم بعدُ، لكنَّها مثل الفجر الصادق، ليس بعده إلاَّ: "حي على الصلاة، حي على الفلاح".

وأذكِّر -بعد معاينة ومعاشرة- أنَّ النماذج الكامنة التي اكتشفتُها خلال التنقيب في الأسباب والموانع، ليست مجرَّد عبارات أدبية منمَّقة لمتعة المطالعة؛ وإنما هي مدرَكات واعيةٌ فاعلة في فكر الأستاذ وحياته، ثم هي تمثُّلات حضارية في حركية الخدمة في جميع مجالات نشاطها: التربية والتعليم، الحوار، الإعلام، التجارة والصناعة... الخ.

وليست الأسباب ولا الموانع في نفس الدرجة من الأهمية والأولوية؛ فمنها ما هو ضروريٌّ، ومنها ما هو حاجيٌّ، ومنها ما هو تحسينيٌّ؛ ولذا لن أسرد كلَّ الأسباب، بنفس درجة الاهتمام، إلاَّ ما كان من قبيل الأولويات، معتبرا في ذلك فقه مراتب الأعمال، أو ما يعرف بفقه الأولويات.

الأسباب القلبية الإيمانية

أولا: الإخلاص

الإخلاص عصارة الدين وروحُه، فهو "التِّرْمُومَاتر" الذي نقيس به نسبة الارتباط بالله في كلِّ حركة وسكون، وهو -لذلك ولهذه المكانة العليَّة- أصعبُ وأدقُّ صفة من صفات القلوب، ذلك أنَّه لا يعبَّر عنه بلسان، فإن قال قائل: "أنا مخلص يقينا"، انتفى عنه الإخلاص، ولذا وجب أن يدعو الله: "اللّهمَّ اجعلني من المخلِصين"؛ ولا يمكن للبشر جميعِهم -ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا- أن يضعوا إنسانا تحت المجهِر، ثم يستخرجوا من قلبه نقطة الإخلاص وموطنَه، فهذا مما لا يدركه أحد إلاَّ الله سبحانه تعالى؛ إلاَّ أنَّ صاحب ذلك القلب المخلِص قد يجد أمارات وبشارات، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

وما أروع العلاقة التي بين الإخلاص والعمل، ذلك أنَّ العمل القليل مع الإخلاص لا يسمَّى قليلا، والعملَ الكثير بلا إخلاص لا يعدُّ عملا،[1]

---

١ في الإجابة على سؤال من "أسئلة العصر المحيرة"، تحت عنوان "هل تستطيع النية إنقاذ الإنسان؟"، يقول الأستاذ عن النية، وهي هنا مرادفة للإخلاص: "والنية مهمَّة أيضا من ناحية حسنات الإنسان وسيئاته. فهي من هذه الناحية إمَّا إكسير وشفاء له، وإمَّا طوفان عات يسلب كلَّ أعمال الإنسان ويجعله أثرا بعد عين. فكم من عمل صغير كحبَّة قمح تضاعف بالنية الصالحة فأصبح ألف سنبلة، أو قطرة انقلبت إلى نهر وسيل. وكم من عمل بضخامة الجبال بقي بسبب نية غير صالحة دون ثمرة، وعقيما" (ص٥٠).

يقول عليه السلام: "أخلص دينك لله يكفك القليل من العمل"، ويعلِّق الأستاذ على هذا الحديث بقوله: "فإن كان العمل جسدا فروحه الإخلاص، وإن كان العمل جناحا فجناحه الآخَر الإخلاص، فلا جسد بلا روح، ولا يوصَل إلى مكان بجناح واحد"(التلال الزمردية، ص١٠٦).

ولقد أورد فتح الله العديدَ من التعاريف للإخلاص، كلُّ تعريف يتناوله مِن زاوية خاصَّة، أمَّا من زاوية الرشد، أي العلاقة بين الفكر والفعل، وبين القلب والعقل والحركة، فإنَّ أليق تعريف عثرت عليه، هو قوله: "الإخلاص في عبادة الفرد وطاعته، هو كفُّه عن كلِّ ما هو خارجٌ عن أمره تعالى وإرادته وإحسانه، حافظًا للأسرار التي بين العبد والمعبود... وقيامُه بأعماله على أساس عرضِها على الناقد البصير"(التلال، ص١٠٤).

وهنا بيت القصيد، إذ إنَّ المخلص كلَّما همَّ بعمل، مهما بدا صغيرا، عليه أوَّلا أن يستحضر الجهة التي يعمل لأجلها؛ فإن كان ذلك العمل لصديق، أو قريب، أو هيئة...أعدَّه بمقداره؛ وإن كان لملكٍ أو سلطان أو رئيس زيَّنه حسب قدره؛ وأمَّا إن كان مبتغيا به رضوان الله، مالك الملك، العالِم بخفايا الأمور، فالواجب الاعتناء به، وتقليبه يُمنة ويُسرة، حتى يضمن أنَّه صار خالصًا له وحده... كيف لا والآمر بالعمل هو الله، وواهب الأسباب هو الله، والهادي عبدَه للنتائج هو الله، والمتقبِّل هو الله، والمجازي هو الله... فهو هو، ابتداء وانتهاء... قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾(البينة:٥).

والإخلاص -لهذه الحيثيات- هو "وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوبَ الطاهرة، فهي وثيقة سحريةٌ تجعل القليل كثيرًا، والضحلَ عميقًا، والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة" (التلال، ص١٠٥)؛ ومِن ثم ليس للإخلاص

صفةٌ معيَّنة، أو طقس معيَّن، أو أداء معيَّن، أو شكل معيَّن، أو نوع من الذِّكر معيَّن؛ وإنما هو متروك للعبد، موكول به لخاصَّة خاصته، ولسريرة قلبه "سرٌّ بين العبد والمعبود، استودعه الله قلب من أحبَّه من عباده".

ومن أبرز خصائص الإخلاص أنه:

- تكامل بين القول والفعل.
- وتكامل بين الظاهر والباطن.
- وتكامل بين الخوف والرجاء.
- وتكامل بين المبدأ والمنتهى.

وبهذا يصدق على الإخلاص أنَّه نقطة الطاقة اللامتناهية، أو نقطة العزم (enercie) بلغة الفزياء، مَن اكتشفها تحكَّم في كلِّ حركة، مهما بدت معقَّدة، ووفّق لكلِّ إنجاز وعمل، مهما ظهر أنَّه مستحيل. وهل ما حقَّقه صفوة الخلق محمد ﷺ في زمن قصير، كان ممكنا في مئات السنين، لولا الإخلاص، ولولا ارتباطه بالله الفاعل المريد؟

فالإخلاص والنجاح في الدعوة متلازمان تلازم الماء والحياة، وتلازم النار والإحراق، وتلازم النور والإضاءة... أي تلازم السبب والنتيجة؛ فمتى وجد الإخلاص كان النجاح، وهذا -بتعبير الأستاذ كولن- هو "قانون إلهي" لا يتخلَّف أبدا؛ لكن قد يختلف الناس في تقديره وشكله وحجمه وأوانه؛ ذلك أنَّه مما استأثر الله تعالى بعلمه: "الأقوال والأحوال الخالية من الإخلاص لا يلطف الله سبحانه بها باليمن والبركة. أمَّا ما نشاهده من نجاحات في بعض أعمال غير المخلِصين أو شبه المخلصين، فهذا نابع من عدم وجودِ البديل، زيادةً على أنها عابرة، أو أنَّ تحقُّق مثل

هذه الأحوال أحياناً نابعٌ من عدم وجود مَن هو أفضل إخلاصاً في حينه، أو مِن عدم تمكُّن المخلِصين الصادقين من تكوين مركز جاذبية بعدُ. ومتى ما حان وقت انتهاء غير المخلِصين يَحكم عليهم القدر به. وقد جرى هذا القانون الإلهي منذ القدم إلى يومنا الحاضر؛ لذا لا يخدعنَّ المؤمنين وأهلَ الفراسة النجاحُ الجزئي والعابر لغير المخلِصين أو ناقصي الإخلاص"(طرق الإرشاد، ص١٢٨).

وليس أصدق من الاعتقاد الجازم في أنَّ الأسباب كلَّها بيد الله تعالى، وأنَّ مفاتيح الأمور جميعها بتدبيره سبحانه، وأنَّ القلوب بلا اسثناء "بين إصبعين من أصابع الرحمن"؛ فإذا ما أتى امرءٌ فعلا وابتغى من ورائه ثمرة، فإنَّ الوقوع أو عدم الوقوع مرهون بإرادة الله وحده، فهو الذي ﴿يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾(إبراهيم:٢٧)، و﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾(يونس:٣)، و﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(يس:٨٣)، و﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٤٧)؛ ولذا طمأن الله تعالى نبيَّه الكريم أنَّ الهداية وأمرَها ليست من اختصاص الإنسان، حتى وإن كان هذا الإنسانُ هو النبيُّ المكرَّم، محمَّد ﷺ، فخاطبه بقوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(القصص:٥٦).

يعلِّق فتح الله على هذه الآية بقوله: "لذا، فأصل المسألة هي الارتباط بالله الذي له مقاليد خزائن الغيب والحاضر، والهدايةُ خزينةٌ عظيمةٌ، فمفتاحها أيضاً بيده بلا شكٍّ. فالألزم إذاً للمرشد والمبلِّغ أن يلجأ إلى القدير الذي بيده مفاتيح كلِّ شيء في أثناء تبليغ شيء ما إلى المخاطب بإخلاص تام"(طرق الإرشاد، ص١٢٩).

ولا يجوز لأيِّ إنسان مهما كان، بلْه المؤمنَ والمرشد، أن ينسب الأعمال إلى ذاته وإلى نفسه، كأن يقول: "أنا الذي فعلتُ"، أو "مَن غيري يفعل كذا"،

أو "لولاي لما كان كذا وكذا"... ومن كان هذا اعتقاده حُشر مع قارون القائل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، أو مع كافر الجنتين، الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه، و﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾(الكهف:٣٥)، بل مَن أتى الله بمثل هذا الفساد العقدي، حتى وإن لبس لَبُوس الأيمة والخطباء والورعين، فإنه يتحوَّل إلى فرعون صغير، يردِّد مع فرعون الكبير: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩).

ولقد نقد العديدُ من المفكَّرين حركاتٍ قامت ثم بادت، ولم تحقّق المأمول، وأرجَع البعض منهم الأمرَ إلى أسباب ظاهرية مادية مباشرة، لكنَّهم غفلوا عن السبب الحقيقيّ والأساسيّ وهو "مدى قرب تلك الحركة من الله تعالى وبعدها عنه"، أي "مدى إخلاصها فيما تأتي وما تذر". ألله كان قيامها أم لغيره؟"

ومن تمام الإخلاص ربطُ القول بالفعل بإحكام والتزام؛ حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، فالصورة المثالية التي رسمها القرآن الكريم، هي أنَّ الإيمان لا يصحُّ إلاَّ بوحدة القول والعمل وتكاملهما. والمحافظةُ على هذا التكامل والتوازن "سرُّ كلِّ توفيق ونجاح ونصرة"(طرق الإرشاد، ص١٣٠)، وهو دليل على الإخلاص، ومدعاة للقبول بإذن الله تعالى.

وما الوارِثون الحقيقيون للأرض، وما أهلُ التمكين والخلافة، سوى أولئك المخلِصين المخلَصين، يقول كولن: "وأنبّه هنا مرَّة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيَون والذين يُحيُون (غيرهم)". ثم يواصل ويقول: "ولقد كرَّرنا مرارًا وتكرارًا أنَّ الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، وهم الذين نودع أرواحنا

وديعةً مأمونة عندهم... أولئك الذين لا يطلبون من الجماهير أن تتبعهم، ولكنَّ وجودهم نداءٌ جهوري وأيُّ نداء!.. فأينما كانوا، تهرع الجماهير إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب..."(صرح الروح، ص٨٨).

ثانيا: البكاء همًّا وهمَّة

أوَّل مرَّة استمعت فيها إلى صوت الأستاذ كولن كانت في "الأكاديميا" بحي "شملشا"، الجهة الأسيوية من استانبول؛ حيث عَرض علينا الإخوة الباحثون شريطا بالصوت والصورة (فيديو)، يشرح فيه الأستاذُ حديث الرسول ﷺ: "ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يترك الله بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلاَّ أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل، عزًّا يُعزُّ الله به الإسلام وأهلَه، وذُلا يُذِلُّ الله به الكفر"(الهيثمي، مجمع الزوائد)؛ وأثناء كلامه، كان فتح الله يعتذر للرسول ﷺ عن تخاذلنا ونكوصنا في إبلاغ الدين هذا المبلغَ العالميَّ الكوني العظيم؛ وفجأة أجهش بالبكاء، فلم يتمالك، ولم يوقف دموعه المنهمرةَ على خديه وديانا...

وعلَّق أحد شباب الأكاديميا قائلا: "إنَّ الأستاذ هكذا دائما، مرهفُ الحسِّ بكَّاء!".

والحقُّ أنَّ "صفاء القلب"، و"رقَّة الروح"، و"رهافة الحسِّ"، و"سمو الذوق"... كلُّها ثمرات يانعة طيبة لبذور الحبِّ والعشق والشوق، وقد بُذرت في أرض المجاهدة والذكر والفكر.

وشتَّان بين البكاء على الأطلال، على إيقاع "قِفا نبكي..."، والبكاءِ الذي يَسقي الكون عطفا وريًّا، ويُحيل القلوبَ الصخورَ حبَّات للندى والنسائم، وزهورا عطرة ندية، تنشر الشذى، وتزرع الأنس والأمن.

البكاء الأوَّل قد يكون فطريًّا، ظاهريًّا، غير مكتَسب؛ أمَّا الثاني فهو

نتيجة جهاد ومجاهدة، وصبر ومصابرة، ورياضة روحية كبيرةٍ ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥)؛ حتى إنَّ فتح الله قد جرَّب هذا النهج، واعترف أنه وعرٌ، فقال: "نعم، إنَّ السير في مجاهدة الإنسان نفسَه لبلوغ هذه الذروة من صفاء القلب، ورقَّة الروح، شاقٌّ وعسير، ولكنَّ بلوغ الهدف في الذروة أيضا خطٌّ عظيم وسعادة كبرى"(طرق الإرشاد، ص١٧٤).

ودليل آخر أنَّ هذا المقام هو نتيجة تربية ومجاهدة للنفس، قوله في "ترانيم روح" في مقال بعنوان "عندما تنبض القلوب برقَّة": "والذين يغذُّون أرواحهم كلَّ يوم بمثل هذا الوصال، ومن الخيالات المتداعية المترافقة لجميع هذه الوصالات وللوصال الكبير، ومن أنواع الجمال المتدفّقة إلى مشاعرهم، ومن براعم الأمل النابتة في صلب عباداتهم، ومِن الأذواق الروحية التي يحصُلون عليها من المعاني الهادرة من القلوب والعيون المؤمنة، يرجعون لأنفسهم، وينغمرون مع هذه المعاني في صمت مهيب، حيث يَدَعون أنفسهم لأحلام الوصال الكبير الذي سيتحقق في ذلك العالم الآخر، ويتخيَّلون أنفسهم وكأنهم يسبحون في نهر ساحر، وأنهم أبحروا إلى ما فوق الزمان"(ص١٣٠). وهل هذه الحال إلاَّ حال الدهشة والحيرة والبكاء الشديد؟

وإنَّ الأستاذ ليعرف من نفسه أنَّه غالبا ما لا يتمالك، ولو حتى أمام الآلاف من المشاهدين لدروسه ومواعظه وتوجيهاته، فلا يُغالب ذلك، بل يستسلم له بعفوية وبلا تكلُّف، فلنستمع إليه وهو يُنشد في قصيدة شعرية جميلة عنوانها "بدا حاجب الأفق":

"على كاهلي الآن جبَلٌ عظيم يوشك أن يتزلزل،
وفي أملي يتلألأ الربيع...

وها كل عضوٍ مني يرتجف مثل أوراق الشجر،
كأنني الآن ميزان الألم:
في إحدى كفّتيه الخوف، وفي الأخرى مُطلق الرجاء..
وموجُ الأكدار يضرب شاطئ السرور والأفراح،
أحيانًا في غاية السرور أنا، وأحيانًا أجهش بالبكاء"(موقع حراء).

وهل كان فتح الله إلاَّ وريثا لبديع الزمان، الذي ذُكَر عنه أنه في أحلك الظروف كان يُديم قراءة مجموعة الأحزاب (الأدعية) بمجلَّداتها الثلاثة، كالعاشق الولهان، فبشهادة طلاَّبه وجيرانه "كان أينما أقام يمضي لياليه في العبادة والأذكار، في أنين وبكاء. فكان يشقُّ ظلمات الليل وصمتها بصوته الحزين والملتاع، فيهيج قلوب السامعين ورقائقهم"(القلوب الضارعة، مقدمة).

وما أروع المعزوفة الموسيقية التي وشَّح بها فريد الأنصاري فصولَ روايته "عودة الفرسان"، والتي يصف فيها حال البكاء ورقَّة القلب عند الأستاذ كولن بأوجز عبارة. ويقول:

"فتح الله لديه سرٌّ ليس يبوح به.

فتح الله لديه سرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يُخبر به أحدا.

فتح الله يحمل في قلبه ما لا طاقة له به، ولذلك لم يزل يبكي، حتى احتار الدمع لمأتمه.

فتح الله وارث سرٍّ، لو ورثه الجبل العالي، لانهدَّ الصخرُ من أعلى قمَّته، ولخرَّت أركان قواعده رهَبا.

فتح الله فارسٌ ليس تلين عريكتُه، ولا تضعُف شكيمتُه. ولَصوته في الكرِّ أشدُّ من فرقعة الرعد! يقاتل في النهار حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خلا لأشجان الليل بكى"(ص١٣).

وإنَّ فتح الله نفسَه ليستعير من الشاعر محمد عاكف مقطوعة تعبّر عن حقيقة البكاء عنده، مما جا ء فيها:

"أبكي وأنوح... ولكن لا أستطيع إثارة البكاء!
أحسُّ بالألم... ولكن لا أستطيع بث لواعجي
آه من قلبي الأخرس!... كم أشكو منه!"(المدخل، موقع فتح الله)

ولقد بلغت دلالة البكاء على رقَّة القلب وعلوِّ الهمة عند الأستاذ مبلغَها، حين نسج مقالا خاصًّا بعنوان "هذا موسم البكاء"، وبدأه بمقطوعة فريدة، جاء فيها:

"ذِهني" من صروف الدهر يبكي،
البستانُ يبكي... والبستانيُّ...
صَوّح الزهرُ، وراح الوردُ يبكي دمهْ،
مُذْ هجر البلبلُ الْوَلْهانُ روضتَهْ... (ذِهني)"

والحال أنَّ تحليل هذا المقال تحليلا معرفيًّا، قد يستغرق الصفحات الطوال، ذلك أنَّ هذا المقال -في اعتقادنا- بؤرة في فكر الأستاذ فتح الله، كما أنَّ "لحظات البكاء" في دروسه السمعية بؤرة، لها رمزية تفوق رمزية الكلمات والألفاظ، ولكني سأكتفي ببعض الإشارات التي تفي بالغرض، تاركا الاستفاضة لمقامها.

• الدموع عند بني البشر صنفان: منها ما هو طبعيٌّ شائع، تسبّبه الآلام، أو الفراق، أو الوصال، أو الحبُّ، أو الأشواق، أو الآمال، أو التطلعات... ومنها ما ينبُت في أرض الإيمان والعرفان، وِهاجه الحبُّ والوجد والشوق، وسببه معرفة الحقِّ تعالى، والإحساسُ به عند كلِّ حال. أمَّا النوع الأوَّل فشائع موفور، وأمَّا الثاني فنادر عزيز "لم يحظ بمثله إلاَّ ثلة من السعداء"؛

ولِفتح الله حظٌّ منه ليس باليسير.

ويوصف هؤلاء البكاؤون السعداء بأنهم "يسعون متلمِّسين يدَ الصانع في صنعته العجيبة، منتبهين إلى الجميل المتعالي في كلِّ بديعة من بدائع الحسن والجمال، مرهِفين أسماعهم بدقَّة متناهية إلى كلِّ همسة من همسات الكون التي تحدثهم عنه، عاطفين على كلِّ كائن في الوجود بحب عميق وعناية فائقة؛ لأنَّه من صنعه وأثره سبحانه، ومن ثم ناسجين كلَّ فقرة من قصيدة حياتهم على لُحمة العشق وسَدَى الحب". والشاهد هنا هو نسج فقرات الحياة على العشق والحبِّ، أي تحويلُ ما في الوجدان إلى الواقع وخطِّ الزمان، والربطُ بين القلب والحركة، ربطا ليس كأيِّ ربط، لكنه نسجٌ برهافة حسٍّ وعلوِّ ذوق.

ولكن، ينبغي الحذر من تصنُّع البكاء، ومن التباكي الذي لا ينبعث من صميم القلب، فإنَّ هذا النوع "لا يُفرح إلاَّ إبليس، بل ويلوِّث إكسيرا عجيبا صنعه الخالق ليطفئ نيران جهنَّم، ويُبطِلُ مفعولَه الخارق بما يحمل من آفة الرياء".

• ولقد حملَنا فتح الله كعادته إلى مسيرة الأنبياء نبيئا نبيئا، عبر قصصهم في القرآن الكريم، متتبِّعا بمبضعه الحسَّاس مواطن رقَّة القلب والإحساس المرهف والبكاء السعيد لديهم.

بدأ بيعقوب الذي ﴿..ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾(يوسف:٨٤)، وكظم غيظه وجِلا من الله تعالى؛ ثم لم يغفل إشاراتٍ لطيفة من أنبياء لم يذكر عنهم لفظا وتصريحا أنهم بكوا، لكنَّ فتح الله وظَّف مواقف لهم مستدلا أنها كانت قرينة بالدموع ولا ريب، إلى أن انتهى إلى خير البرية محمد ﷺ، الذي روي عنه أنه كان "دائم الفكرة متواصل الأحزان"، ولذا لقِّب

بـ"نبي الحزن"، وما كان صحابته الكرام على أثره سوى أبطال للبكاء والدموع، و"بكائين يتغنون بأناشيد البكاء، ويترنَّمون بأنَّات الدموع"؛ وسيرة المصطفى، وحياةُ الصحابة، وتاريخ الأصفياء، مشحونة بمواقف بكوا فيها حبًّا لله وخشية منه، أو حزنا وأسفا على أمر مسَّ دين الله، أو شوقا وفرحا بنصر مؤزَّر لدين الله، ساقَه الله على أيديهم.

• ليس البكاء لمجرَّد البكاء، وإنما الدمع الحقيق هو قرينٌ للتوبة، فالبكاء الصادق هو إكسير للذنوب، ومن ثمَّ يتحقَّق الغرض والمقصد العمليُّ لهذه الشحنة الإيمانية العظيمة، ذلك أنَّه "ما رَفعت دموعُ القلب رايتها في ساحة من الساحات إلاَّ تبدَّدت جيوشُ الإثم أمامها مقهورة مخذولة".

وما يلبث فتح الله يعودُ إلى عصره، ويلاحظ ما يلوِّثه من آثام وذنوب ومعاص، فيدعو من كان له سمع إلى "مهرجان البكاء"، ويوجِد وسيلة لاستعطاف أهل السماء، فيقول: "هلمّ بنا إذاً، نَذُبْ ذوَبانَ الشمعة الملتهبة، ونُحْنِ رؤوسنا انحناءها، وهي تشتعل وتذوب، ونتأمَّل مئات الذنوب وآلاف المعاصي التي اقترفتها أيدينا، ثم نطلق أنَّاتنا كالبلابل المفجوعة، حتى ينتفض أهلُ السماء يلحَظون، فيهبُّوا مسرعين يحملون مشاعل النور في أيديهم لكي يشهدوا مهرجان البكاء العظيم".

• وفتح الله لا يملُّ ولا ينتشي من دعاء الناس إلى البكاء والحزن الصادق: "ناشدتكم الله أن نهُبَّ معا لنكون سقَّائي دموعٍ في هذه الصحراء المترامية الأطراف، المتآكلةِ من الجفاف، فنقيم موائد زاهية حديثة العهد بالسماء، تقدِّم للرائح والغادي فواكهَ غضَّة طريَّة نضرة، كلماتها شبوب شوق ولهيب أشجان، ونغماتها أنين قلب ونحيب وجدان".

وهكذا لم يكن البكاء عند فتح الله إلاَّ سلَّما ومعراجا يدفع الناس دفعا

لارتقائه، حتى يتحرَّروا من لوثات الأرض، ومن عار الإخلاد إليها... فالبكاء والحزن شحنة وطاقة تدفع إلى العمل الصالح، وإلى التغيير والخدمة، ونشر الخير، وليس سببا من أسباب الكسل والتأفف والتعفف والتحسر.

إنَّ قصَّة البكاء في تاريخ الدعاة قصَّة، وإنَّ قصَّة البكاء لدى فتح الله قصَّة أخرى، فإذا ما تمَّ حبك خيوط القصَّة وُلد رجل اسمه "الضحاك"،[١] ولكنَّ حقيقة اسمه عكس المنطوق، فهو "البكَّاء"... فأعظِم به من ميلاد، وأعظم به من مولود.

فلنستمع إليه وهو يخاطب طفلا صغيرا يبكي، ويقول له:

"ابك -يا صغيري- ما شئت البكاء...

معك سأبكي...

قدرَانا أن نبكي معاً

مثلك كنتُ،

ما أبكاك كان قد أبكاني

أمَّا اليوم،

فمن أجلك أبكي،

ودموعا غزارا عليك أذرفت" (ألوان، ص٥٩)

ولقد ذكر الشباب الملازم للأستاذ في خلواته، وبخاصَّة من أواسط الثمانينيات إلى أواخر التسعينيات، أنَّ الأستاذ كان دائم الحزن والبكاء والتألم من حال المسلمين؛ حتى إنَّه في يوم من الأيام دعا هؤلاء الطلبة وأمرهم بمغادرة "الطابق الخامس"، وبالعودة إلى ديارهم، أي أنه طردهم

---

١ Gulen: باللغة التركية يعني الضحاك.

من مرافقته، فحزن هؤلاء، وعيَّنوا وفدا لمحاورة الأستاذ ومعرفة السبب، فلمَّا سمح لهم بدخول غرفته بعد يومين من القطيعة والهجران، جلسوا، فاحتجوا، وعبَّروا عن عواطفهم... وبعد دقائق تحوَّل المجلس إلى حلقة للبكاء: فبكى الأستاذ طويلا، وبكى الطلبة على إثره...

وقال الأستاذ: "إني أحمل همًّا كبيرا، لكنَّني وجدتكم تضحكون وتمرحون، وتستسيغون النوم، فكأنَّ شيئا لم يقع، وكأنَّ أمَّة المصطفى ﷺ اليومَ بخير وعافية... والحقُّ أني أريدكم حاملي همّ... فوالله لو أنَّ الله تعالى أقدَرَني لنثرتُ على قلوبكم شرارات من الهمّ، إذًا لجفاكم النوم إلى الأبد".

هكذا حوَّل البراديم كولن الحزن والبكاء إلى آلية للحركية والبناء الحضاريّ، باعتماد التربية والرياضة والمجاهَدة، فانتقل الهمُّ والهمَّة مِن الأستاذ إلى الأتباع، ومِن الرائد إلى الجند، فوُلدت حضارة من عمق تركيا، ومِن رحم أوروبا، وفي قلب العالم...إنها حضارة الفكر والفعل، حضارة القلب والعقل والمادة، باختصار هي حضارة الرشد والرشاد.

الأسباب العقلية المعرفية

أولا: الحركية والفكر

لو أنَّ باحثا أكاديميا منظَّما حاول إنجاز بحث عن فكر فتح الله كولن، من مدخل تقني متخصِّص، واختار مثلا "العلم عند كولن"، أو "العمل عند كولن" فإنَّه سيقع في خيبة الأمل، وسيعود إليه المنهج خاسئا حسيرا، بخفي حنين؛ معلنا أنه لم يجد شيئا ذا بال يخصُّ العلم المجرَّد، أو العمل المجرَّد.

والحقُّ أنَّ ما يشبه هذه المحاولة قد مرَّت بي، وانتهيت إلى هذا الحكم

بعد أمد، فعدَّلت في منهجي وفي طريقتي، وغيَّرت اختياري وطريقي، بناء على تجربة وبحث.

لكن، قد يبدو هذا الحكم غريبا، فما تفسيره؟

يقول كولن في "طرق الإرشاد" ما نصه: "دستورنا في هذا الصدد أنَّ الأفكار التي تسري في مفاصل الحياة المعيشة هي التي تستحق الحياة"، أي أنَّ الأفكار الفلسفية المجرَّدة "لا تستحق الحياة"، وبمعنى آخر "تستحق الموت والإفناء والرمي في غياهب النسيان والهجران"(ص٨٧).

هذا الذي فعله الأستاذ في كامل كتاباته، وكان ملتزما بدستوره هذا أيما التزام، فلم يعرف -ولو مرَّة واحدة، فيما اطلعتُ عليه، وبشهادة معاشريه- الفكرَ المجرَّد ولا الفعل المجرَّد، ولم يضيِّع -ولو لحظة- في متاهات الانفصام والجفاء المعرفي بين الحركية والفكر؛ حتى إنه اعتذر إلى قارئه وإلى مستمعه وإلى المهتم بنتاجه الفكري، إذا كان قد أورد تعبيرا أو فكرة لا تمتُّ إلى الواقع بصلة، فقال: "قد لا تتوافق بعض تعابيرنا مع عالم الحقيقة والواقع، وتلك هي من نقصنا وقصورنا".

وفي "الأسئلة المحيِّرة" عرَّف فتح الله النبي والنبوَّة تعريفا دقيقا، معتبرا هذه العلاقة المتينة بين الفكر والفعل، فقال: "ليس النبي مجرَّد عبقريٍّ يملك عقلا كبيرا يستطيع النفوذ إلى صلب الأحداث. فالنبي هو إنسان الأفق، الذي تكون جميع ملكاته وقابلياته في ذروة الحركة والفعالية، وفي نشاط دائميٍّ موَّاج..."(ص٢٩).

ولسائل أن يسأل: هل كان هذا المزج بين الفكر والفعل عفويا فطريا؟ أم كان عن وعي وإدراك وتخطيط؟

يجيب الأستاذ بصراحة: "إنَّ ما نقدِّمه من أصول وقواعد قد اتُّخذ فيه

جانب التطبيق العمليّ أساسًا، وأعِدَّ في ضوء الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة، ممن خبرها في الواقع، فجالس رجالات الإرشاد والتبليغ منذ عهد الصبا، حتى تقلَّد وظيفة الدعوة والتبليغ رسميا"(طرق الإرشاد، ص٨٧).

إذن، أوَّلُ قاعدة ننحتها في سياقنا هذا أنَّ الفكر والفعل لم ينفصلا يومًا في "البراديم كولن"، ولا يجدي نفعا أن نقطع الأواصر بينهما، ونحن نتتبع معالم هذا النموذج، ونحاول اكتشاف خط سيره ونهجه.

ثم إنَّ الأستاذ لَمَّا تشرَّب هذا الارتباط الوثيق بين الفكر والفعل راح يزرعه في الناشئة وبين صفوف شباب الخدمة، ويعلِّمه لكلِّ من ابتلي بمهمة الدعوة، فلنستمع إليه وهو ينصح هؤلاء: "لا بدَّ أن يكون من يتولى مهمَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجهَّزا بالعلم؛ ذلك أنَّ العلم والتبليغ (الواقع والحركية) وجهان لعملة واحدة".

والقارئ لمقالات الأستاذ يجده يتفنَّن في إيراد هذه العلاقة المتلاحمة بين الفكر والفعل، حتى لا يتوهَّمَ متوهِّم أنَّ ثمة علما خالصا، أو عملا خالصا.

يقول في مقال "فلسفة الحياة عندنا"[1]: "يعيش قسم من البشر من غير ممارسة للفكر. وقسم آخر منهم يفكِّر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة قط. أمَّا ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكِّر، وأن يبتكر أنماطاً فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مُركّبات فكرية مختلفة"(صرح الروح، ص١٢٠).

ويقول في مقال آخر بعنوان "نحو عالمنا": "لا يخفى على نظر المتبصِّر

١ ينبغي أن ننتبه إلى العنوان، وندرك أنَّ ما ورد تحته ليس كأي مقال آخر.

تداخلُ الفكر والحركية ببعضهما في وقائع التاريخ العظيمة. تداخل يتربَّى ويتبرمج فيه العملُ الحركيُّ بالفكر من جهة، وتهيّئ فيه الحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة من جهة أخرى"(صرح الروح، ص٨٠).

ويتفق النصَّان السابقان أنَّ الإبداع المتميز، والتجديد الحقَّ، ثمرة طبيعية لهذا المزج المطلق بين الفكر والحركية، فيعبّر عن ذلك في النصِّ الأول بـ"آفاق مركَّبات فكرية مختلفة"، وفي الثاني بـ"برامج جديدة". وهل الإبداع -اليومَ- سوى مبتغى كلِّ مشروع فكريّ وحركيّ، به توزن جدَّته وجدِّيته، فإن عُدم هذا الأبداع عن المشروع قيل عنه إنه نمطيٌّ تقليديٌّ عقيم، وإن وجد عُدَّ ذلك الفكر والحركة قيمةً مضافة في الفكر البشري، وفي تاريخ الإنسانية؟!

ويبدع كولن في تقريب الرابطة المعرفية للعلاقة بين الفكر والحركية، بصورة فنية بلاغية رائعة، حتى يرسّخ نموذجا ودستورا لا يقاوَم، ولا يُسمح بالزيغ عنه قيد أنملة، لمن أراد أن يلتحق بصفِّ "البراديم كولن"، فيقول: "فكأنّ الفكر -بهذا المعنى- سماءٌ ومطر للعمل الحركيّ، أو فضاء وهواء له، وكأنَّ الحركية أرض وسندانة للفكر، أو تراب وقوَّة الإنبات فيه. فلا أحسب هذا الأداء المتقابل بينهما غلطاً. ذلك بأنَّ كلَّ جهد حركيٍّ هو تحقُّق فكر وبرنامج، وكلَّ فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أطره الحقيقية وبلوغ مراميه في ثنايا التحرُّكات الملتزمة به"(صرح الروح، ص٨٠).

ولا يفوّت كولن فرصة إقامة صرح الروح، وبناء أطره المعرفية، فيخصِّص مقالا لهذه الخلطة الحضارية السحرية العجيبة، ويضع عنوانا بارزا له، وهو: "الحركية والفكر"، وهنا يشدُّني الانتباه إلى البدء بالحركية، ثم الفكر، فلم يقل: "الفكر والحركية"، على عادة الكتَّاب؛ وكأنَّ المؤلِّف

يُلفت انتباهنا إلى صعوبة تعيين الأولوية، أو كأنَّه يريد أن يردَّ الاعتبار للحركية، ناقما من الفكر العقيم الذي ينتهي في أعمدة الجرائد أو أرفف المكتبات، فيقدِّم الحركية على الفكر، بهذا الاعتبار.

ويستهلُّ كولن مقاله هذا بعبارة تؤكِّد ما قلناه سابقا، عن العلاقة المزجية الدائرية بين الفكر والحركية، فيقول: "نحن نلخِّص خطَّ كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإنَّ وجودنا الحقيقي لا يتمُّ إلاَّ عبر الحركية والفكر... حركيةٌ وفكرٌ قادران على تغيير الذات والآخرين" (صرح الروح، ص٧٥).

وليس أدلَّ على ما قاله الأستاذ من أنَّ الثنائية المتلازمة نموذجٌ من النماذج الراسخة والواعية والبارزرة، وكأنَّه يلخِّص خطَّ كفاح ورثة الأرض في هذا النموذج، بل لعلَّه يرسم حدًّا من الحدود الفاصلة الأساسية بين "البراديم كولن" وغيره من المؤسَّسات والحركات. فمَن كان فكره معجونا بفعله، ومن كان فعلُه مخلوطا بفكره، عُدَّ ضمن الخدمة، ومن فصل بينهما -بأيِّ مبرِّر كان- انتفى أن يُقبل جنديا في المشروع.

ومن ثمَّ، وكنتيجة طبيعية، لا نجد ضمن الخدمة من يتفرَّغ للعلم النظريِّ، ويدوِّن المجلَّدات الطوال في فنٍّ من الفنون، دون أن يَنزل بعلمه إلى أرض الواقع، ليختبره ويبتليه... وهذا ما شهدناه فعلا، ونحن نتتبع أنفاس الحركة: فكلُّ مشتغل بالفكر والعلم تجده من جهة ثانية حركيا دعويا إرشاديا، سليقةً ومِراسًا لا تكلفا واصطناعا.

وكنتيجة ثانية، لا تجد ضمن أفراد الخدمة مِن عامَّة الناس الحركيين، سواء أكانوا رجال أعمال، أم صناعيين، أم تجارا... لا تجدهم متنكِّرين للعلم، مبغضين للمتعلِّم؛ وإنك لتراهم متشوِّفين للمعارف، ومدركين

لأهمية العلم والبحث والنظر، حاضنين لكلِّ مشروع تعليميٍّ علميٍّ، مهما كلَّفهم من مال أو جهد.

والنوعان المذكوران، أي العالم الحركي، والحركي الخادم للعلم؛ يلقِّبهما فتح الله بلقب واحد، جامعٍ لهما في مصطلح واحد هو: "إنسان الفكر والحركية"، ويجعل هذه الصفة عنوانا لمقال له، يقول فيه: "إنسان الفكر والحركية هو رجل الانطلاقة والحملة، الحركيُّ المخطِّط، الذي يقوم ويقعد على خفقان شدِّ العالم بالنظام مجدَّداً، ويمثِّل حركة إقامة صرح الروح والمعنى من جديد، بعدما آل إلى السقوط ومنذ عصور، ويُفسِّر قيمنا التاريخية كرَّة أخرى، ويستخدم بمهارة مكُّوك الإرادة والمنطق في الفكر والحركة، وينقش على قماش روحنا ومعنانا زخارف مستظرفة وجديرة تناسبنا. فهو في خط الحياة الممتدِّ على مدى فصولها من الحسِّ إلى الفكر، ثم إلى الحياة العملية، يتنفَّس النظام دوماً، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبداً"(صرح الروح، ص٦٣).

ولكن، ماذا عن الذي يفصل بين العلم والعمل، ويقطع الأواصر بين الفكر والحركة؟

يعمد الأستاذ -مرَّة أخرى- إلى الصورة البلاغية ليبدع في وصف هؤلاء، بغرض ترسيخ قُبح حالهم ومآلهم في الأذهان، ودفع النفوس بشدَّة إلى النفور والتقزز من هذه الحال، ومن هذه الصورة:

- إنَّ الذي يدَّعي الفكر مع السكون والخمول الدائمين، يشبه "قطعة جليد سقطت في الماء واستسلمت للذوبان"(صرح الروح، ص٥٧)
- وأمَّا حينما تحجب "أنوار الفكر عن إضاءة زوايا المجتمع"، فذلك شبيه بـ"المشي في السبات، والتكلم في النوم"(ص٨١)

• والذين يعيشون من غير فكر "هم دمىً تمثل فلسفة حياة الآخرين" (ص١٢٠)، بل إنهم، بسبب ضررهم المحدق، "يشبهون برك الماء العقيمة والمحرومة من البَرَكة والخامدة والمعرَّضة إلى الأُسون. فلا يبعد أن يتحوَّلوا بمرور الزمان إلى مَجمع للفيروسات ومأوى للمكروبات، بَلْه أن يفيدوا بشيء باسم الحيوية".

• ولِضحالة فكر هؤلاء وسطحيته تراهم "كأنهم أطفال يقلِّدون كلَّ ما يرون ويسمعون، وينجرون وراء الطغام هنا وهناك"(ص١٢٠).

• أمَّا من يكتفي بالفكر المجرَّد، ويستغني عن المجتمع معرضا عن الواقع، ويقضي وقته بين ثنايا الكتب والأسفار، فيصفه كولن، في معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الزمر:٩)، ويقول: "إنَّ مَن يجول في بطون الكتب كالفأر متتبعاً خزينة الأسرار، يصرف جلَّ عمره في كتابة الحواشي والشروح، مِن دون أن يقرأ سطراً واحداً من علم الحقيقة، هذا الذي يطلق عليه اسم العالم، هو بالتعبير القرآني كمن يحمل أسفاراً".

وفي المقابل يعلي الأستاذ من شأن من يجمع بين الفكر والحركة، ويقارنه بحمَّال الأسفار، فيقول: "أين هذا من الإنسان الكامل الذي يقرأ سطراً، وإذا به يحلّق في السماوات، ويعيش في كلِّ آن في نشوة وانتشاء روحي".

وفي الحقيقة إنَّ العلم الذي يثمر عملا هو العلم الموصل إلى الله تعالى، والمحقِّق رضاه ومعيته؛ أمَّا العلم المجرَّد عن العمل، فهو الشلل النصفيُّ، المعيق عن كلِّ نتيجة مرجوَّة، والفرق بينهما -كما يقول كولن- " كالفرق بين "لا شيء" و"كل شيء". فالعلم الموصل إلى الله "كلُّ شيء"

والذي يتركك في الطريق "لا شيء"(طرق الإرشاد، ص٩٠).

ومن كان شأنه الوصل بين الحركة والفكر يليق بنا أن نصفه بأنه بلغ مرتبة "ولي الحقّ اللدنيّ، الذي يعِدُّ قادة أركان الروح، ومهندسي العقل، وعمَّال الفكر" إلاَّ أنَّ هؤلاء الواصلين ليسوا سواء "فمنهم من سبق فكرُه عملَه الحركيّ، ومنهم من تبارى فكرُه مع عمله الحركيّ، ومنهم رجال حركة فكرُهم مكنون ومخزون، رجالٌ في استقامةٍ مديدة يشعُّون ضياء" (صرح الروح، ص٦٤).

وإذا ما أضفنا الدعوة والتبليغ والإرشاد إلى ثنائية العلم والعمل، فقد اكتمل صرح الدين كلِّه، يقول فتح الله: "العلم والتبليغ وجهان لحقيقة واحدة، أمَّا العمل فهو شرط لا ينفك عنهما. فلا يفرز هذه الثلاثة بعضها عن بعض"(طرق الإرشاد، ص٩٣).

إنَّ نموذج الرشد يعنى أوَّل ما يعنى بالعلاقة بين العلم والعمل، ويقوِّم كلَّ فكر وكلَّ حركة على ضوء هذه العلاقة، فإن هي كانت متينة كان المشروع راشدا، وإن حدث شرخ أو قطيعة بينهما، بأيِّ شكل من الأشكال، فهذا المشروع غير راشد... والحقُّ أنَّ "البراديم كولن" بلغ الذروة في هذا الشأن، فهو راشد بكلِّ المعايير؛ ذلك أنه اهتمَّ بهذه العلاقة أيما اهتمام، وهو في الواقع العمليّ مارس هذه العلاقة أيما ممارسة.

وينبغي أن يدرك القارئ أنَّ البحث عن هذه العلاقة ليس لمجرَّد المتعة أو التحليق في البحث المعرفيَّ الممتع، بل هو مقدِّمة ووسيلة لنسج واقع على منواله، وتصويب واقع -نحن فيه- من خلاله، وما أروع ما قاله كولن في هذا الشأن، تحت عنوان "العلاقة بين العلم والإرشاد": "وباختصار نقول: إنَّ الإسلام نظام إلهيٌّ يربط العلم بالعمل ربطاً محكماً. ففي إحدى

جانبيه الإيمان، والجانب الآخر تحويل هذا الإيمان إلى عمل وفعالية. نعم، إنَّ ذكر أعمالِ وعباداتِ الآخَرين وروايةَ حكايات عنهم جميل من جهة لما فيها من عبر وعظات، ولكنَّ الاكتفاء بهذا القدر فقط من دون القيام بتطبيق تلك الأعمال في الواقع يؤثّر تأثيراً سلبياً في المقابل. فالإسلام ليس ذكر مناقب الأولياء أو الاستماع إليها فحسب، بل هو تحويل ما يُذكر عنهم إلى حياة معيشة. نعم، الإسلام إيمان وعمل. فالذين يتكلَّمون عن العمل الإسلامي من دون أن يدركوا أنَّ الإسلام إيمان وعمل كلامهم هذر ليس إلاَّ"(طرق الإرشاد، ص٩٤).

نعوذ بالله أن يكون كلامنا هذرا، ونسأله أن يجعلنا من الراشدين...

ثانيا: المعيَّنية، أو التناسب بين السبب والنتيجة

زار أحد أنشط مسؤولي الخدمة المدارسَ العلمية الجديدة في الجزائر، فعاين المؤسَّسات والبنايات، والتقى بالإدارة والأساتذة والتلاميذ والتلميذات... فلمَّا حان وقت المغادرة قلتُ له: "هذه هي مشاريعنا، وهي -طبعا- صغيرة جدًّا مقارنة بمشاريع الخدمة، عبر العالَم".

فقاطعني قائلا: "لو وضعنا مؤسَّساتكم -هذه- في خطِّ الزمن، وضمن سلسلة الأسباب، لعلِمنا أنَّ هذه مقدِّمات لها نتائجها، وأنها بذور ستؤتي أكلها ولو بعد حين".

أُعجِبت يومها من منطقه الواضح، كما أعجِب مَن معي من مسؤولي المدارس العلمية، وكنَّا متيقنين أنَّ هذا الفكر ضاربٌ جذوره في أعماق منظومة عميقة، ولكن لم نكن ندري: كيف؟ ولم نكن نعرف شيئا عن التفاصيل.

ومع مرور الوقت، ومعاشرةِ شباب الخدمة من كلِّ الأطياف، وجدتُ أنَّ هذه الفكرة الواضحة سمَةٌ من سمات "البراديم كولن"؛ وأنَّ الربط بين

الأسباب والنتيجة صفةٌ لازمة للخدمة، ولمشاريع الخدمة.

وعندما تفرَّغت لدراسة "البراديم كولن"، هالني ما قرأته وعاينته من الاهتمام بالمنطق وبالفكر الرياضيّ، ففي حين كان البعض يتحاور حول جواز قراءة المنطق، وينشر البعضُ الآخر كتبا ومقالات تفتي بأنَّ المنطق زندقة وكفر، ويحشر لذلك أدلَّة نقلية مبتسَرة، لعلماء كبار لم يُفهموا حقَّ الفهم، أو هم عاشوا ظروفا مختلفة، فجاءت أحكامهم في سياقات مختلفة عن سياقنا... في هذا الحين، وبالمقابل، كان الأستاذ كولن بفضل ملكاته الشمولية وسعة أفقه وخبرته، يعدِّد صفات ورثة الأرض الضرورية، التي باكتسابها يتحقَّق وعد الله تعالى للمؤمنين بميراث الأرض والاستخلاف فيها، وبغيرها لن يتحقَّق هذا الوعد فيهم، مهما ادَّعَوا وأمَّلوا وتبجَّحوا... مصداقا لقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ...﴾(النور:٥٥).

ومن أبرز هذه الصفات التي تميِّز ورثة الأرض "الفكرُ الرياضيُّ" ذلك أنَّ سرَّ قيام الحضارات، ونهضة الأمم، يعود إلى الرياضيات، "لقد حقَّق الأوائل في آسيا في الزمن الماضي، ثم الغربيون، نهضتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنسانية في تاريخها كثيرًا من المجاهيل والمغلقات بعالَم الرياضيات المفعمة بالأسرار".

ولقد أخرج كولن أثر الرياضيات من مجرَّد معادلات وتمرينات، إلى كونها وسيلة وأداة للتفكير السليم "فإذا تركنا التصرُّف المفرِط للحروفية جانبًا، فإنَّه لولا الرياضيات لَما توضَّحت المناسبات بين البشر ولا بين

الأشياء... فهي -كمصدرِ نور- تُضيء طريقنا في الخطِّ الممتدِّ من الكون إلى الحياة، وتُرينا ما بعدَ أفق الإنسان، بل أعماقَ عالَم الإمكان الذي يعسُر إعمال التفكير فيه، وتوصلنا إلى غاياتنا"(صرح الروح، ص٤٣).

والرياضيات -بهذا العمق- صنوُ الإيمان، ما دامت تعلِّمنا كيف ندرك "غاياتنا"، ولذلك فالعلم بجزئيات الرياضيات وبالمعادلات الرياضية المعقَّدة "لا يعني أنَّ العالِم بها رياضيٌّ. الرياضيُّ يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكريًّا، ويصاحبها دائمًا في الطريق الممتدِّ من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود".

والرياضيُّ هو الذي يصل ما يبدو في الظاهر منفصِلا، وهو الذي يكشف القوانين والعلاقات، ويعالج الأسبابَ والمسببات "يصاحبها دائمًا من الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء، ومن المادَّة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف" ذلك أنَّ خالق جميع هذه المعارف والتخصُّصات هو إله واحد، وهو سبحانه مُجريها على نظام واحد، وإن صعب على الفكر البشريّ أحيانا إدراك الكنه الواحد لجميع المخلوقات، إلاَّ أنَّ العجز ليس دليلا على العدم.

وهذا الدور الذي تلعبه الرياضيات في التدريب على التعامل مع القوانين والأسباب يُعيدنا إلى حوارات فلسفية عميقة بين علماء الإسلام عبر التاريخ، وفي العهود الذهبية للفكر والحضارة، لعلَّ ذروتها ما كان بين أبي حامد الغزالي الذي ألَّف "تهافت الفلاسفة"، ودافع فيه عن عدم تلازم السبب والنتيجة حتما، وإنما العادة هي التي أورثت عقولنا الاعتقاد بالتلازم، فجاء الردُّ عنيفا من ابن رشد القرطبي الأندلسي، في كتاب "تهافت التهافت"، موضِّحا أنَّ كلَّ سبب لا بدَّ أنَّ يؤدِّي إلى مسببه، وأنَّ الكلَّ من

خلق الله تعالى، فمنظومة الأسباب نفسُها سنة من سنن الله تعالى.

والقارئ لتاريخ العلوم ولنظرية المعرفة، يطالع حوارا آخر عاد إلى الساحة، على شكلٍ فزيائيٍّ هذه المرَّة، في العلاقة بين السبب والمسبب، وذلك حين أثبت رواد "مبدأ الريبة" أنَّ للجسيمات إرادة، وأنها ليست بالضرورة ملتزمة بمنظومة الأسباب، فزعزعوا عرش إينشتاين -وهم تلامذته- ذلك أنه بنى كلَّ صرحه النظري على الأسباب، ومن ثمَّ صعب عليه ما دافع عنه "بور" و"هايزنبرغ" وغيرهما، حتى قال يوما، على إثر هذا الجدل: "ليتني كنت إسكافيا، ولم أعرف الفزياء!"(ديفيد ليندلي: مبدأ الريبة).

وها هو الحوار الرياضيُّ والمعرفيُّ حول الأسباب والمسببات يتمثل مرة أخرى، على صورة محاورات فكرية حضارية في العالم الإسلامي الذي يشهد فجر نهضته، ويأمل عصرا ذهبيا أفضل مما مضى؛ فيما نحا البعض منحى تقليديا، ودافعوا عن الواقع الإسلامي كما هو، وبرَّروا له كثيرا من ضعفه، وتشبثوا بالحرفية واللفظية والنصية، راح آخرون يعيدون الأمور إلى نصابها، ويضعون العقل في موقع الذروة، ويعرضون فكر المسلمين "لصعقات كهربائية"؛ حتى يدرك أنَّ كلَّ نتيجة اليوم لها سبب في الماضي، وأنَّ كلَّ سبب اليوم سيؤدِّي إلى نتيجة حتمية غدا... وأن لا شيء خُلق هباء أو عبثا.

• فها هو مالك بن نبي يقف طودا شامخا بنظرية "القابلية للاستعمار" التي هي عبارة عن تفسير لظاهرة الاستعمار، عاين فيها السبب الذاتي للتخلف والتبعية، بينما كان الكثير من المفكِّرين يُرجعون كلَّ هزيمة إلى العدوِّ وإلى المستعمِر... ويوضِّح ابن نبي أنَّ من كانت ذاته "قابلة للاستعمار" استُعمر لا محالة، ومن كانت ذاتة "رافضة للاستعمار" تحرَّر

ولا ريب، فالمعالجة الحقيقية لا تكون في الأسباب الخارجية بل في الأسباب الداخلية الذاتية.

واتهم الرجلُ بالتبرير للاستعمار، فلاقى عنتا شديدا...

• وهذا عبد الوهاب المسيري في قراءته لليهود واليهودية والصهيونية، دافع عن التفسير العقلانيّ للظاهرة، باعتبار الأسباب الحقيقية، بعيدا عن التفسيرات الخرافية، التي تؤمن بالشعب الذي لا يُقهر، وبالقوَّة الخارقة لليهود، وبأنَّ القدر شاء أن يسودوا ومن ثم فإنَّ العمل في اتجاه التحرر هو مواجهة للقدر... فبنى المسيري ما يسمى بـ"النماذج التفسيرية المركَّبة"، التي تغوص في عالَم الأسباب، التي قد تبدو متباعدة متناقضة أوَّل وهلة، فجمع بينها في نظام ومنطق وتفسير واحد، وخرج بنموذج تفسيري أقرب إلى الحقيقة، يمتلك قوة تفسيرية عالية.

واتهم الرجل بالنيَّات المبيَّتة، وبأنه يعمل لصالح اليهود، فلاقى عنتا شديدا...

• ويأتي محمد فتح الله كولن في سياق مختلف، فيعالج ظاهرة ارتباط الأسباب بالمسببات في عالم الأنفس والآفاق، تحت مسمَّى "المعيَّنية"، ويعرِّفها بأنها: "التناسب بين السبب والنتيجة". وهي كما عرَّفها عوني لطفي أوغلو: "الخصلةُ التي تحقِّق ذاتية الشيء (عند هيجل)، وتختلف "وضعية" الشيء عن المعيَّنية بأنها تحدِّد العلاقة بين الشيء مع الأشياء الأخرى. وفي المعينية تكون عائدية الخصال والصفات إلى الشيء بذاته وعلاقاتها فيما بينها ذاتيا وفي نفس الأمر"(صرح الروح، ص١١٥).

ولقد نقل الأستاذُ كولن مفهومَ المعيَّنية من حقل المنطق إلى مسار التاريخ، فرآه رؤية شمولية، متحرِّرة من ضغط الساعة واليوم، فقال: "إنَّ

تماسُك أجيال الغد وقوامُها وسعادتها، حاصلٌ من حواصل الأرواح والأنفاس المضحّية هذا اليوم. وإنَّ انتظار مستقبل متكامل ومنظَّم من رُكام البشر الضجِر الشريد السادر في الراحة والرخاوة، ليس إلاَّ محض وهم وسلوان كاذب".

ويصوغ كولن القاعدة السببية في هذه العبارة: "وكما يحمل وجودُنا اليوم سمات أمسِنا، بخيرها وشرِّها، كذلك يكون الغد نسخة من اليوم بصورتها المطوَّرة والموسَّعة والمتحوِّلة من الفردية إلى الاجتماعية".

وبما أنَّ القاعدة الفلسفية الجافة تعجز عن إبلاغ العقول بجميع مستوياتها هذا المعنى العميق، عمدَ كولن إلى الصورة البلاغية، عادته كلَّما بلغ المركزَ في فكرة من أفكاره، فراح ينسج تعريفا للمعيَّنية يسهل على كلِّ إنسان إدراك مغزاه وبعده، ويقول: "إنَّ حياتنا "الملّيّة" بألوانها وأحوالها الخاصَّة، تشبه نهراً يسيل متسرّباً من جبال الماضي ووديانه، وسهوله وأريافه، فينحدِر إلى المستقبل بتلوُّناته الخاصَّة. وإذ ينحدر نحوَ قابل الأيام، يحمل معه خصوصيات الأرجاء التي يمرُّ منها. وسنرى إن أمعنا النظر في الشلال الذي ننحدر نحن أيضاً معه، آثار أقدامِ أجدادنا، وخلجاتِ أرواحهم، ونتاجاتِ أدمغتهم وعضلاتهم، وأفكارهم، وخفقاتِ قلوبهم. فلا جرم أنهم منابع حياتنا، وأننا بأنفسنا وبحركيات تاريخنا، عصارة وجود الأجيال القادمة".

ولكن هل "المعيَّنية" عند الأستاذ مدخلٌ إلى القدرية والجبرية، والاستسلام لعالم الأسباب؟ أم هي حركة وحركية في عالم الأسباب، وضمن عالم الأسباب؟

يسارع كولن ويجتهد في تنبيهنا إلى أنَّ عالم الأسباب -بإذن الله- من

صنع أيدينا، وأنَّ "روحَ الأمَّة تحافظ على جِدَّتها وشبابها، وتبقى إلى الأبد، مهما هرمت أحوال الدنيا، وتبدَّل الزمان كلاًّ، وتغيَّرت العصور..." ما دمنا قد اتخذنا الأسباب التي أمرنا بها الله تعالى، ولم نستسلم للأوهام والأحلام.

ولا يفوت الأستاذَ أن يؤصل حكم اتخاذ الأسباب، باعتماد لغة الفقه وأسلوبه، ذلك أنَّ المسلم يخضع أبدا إلى الحكم الشرعيّ، ولا يصدِّق دائما ما يأتي من آراء في الفلسفة وغيرها، فيقول: "فلا يصح في روح الدين -وقواعد الشريعة الفطرية- إهمالُ الأسباب، ثم توقُّع حصول النتائج المتعلقة بالأسباب، أعني من جهة العلية بداهة. وما نشهده دائماً في صدر الوجود من "مُعَيَّنِية" (Determination) بقدر معلوم وشروط متعلقة بظروفها، جارية في أحداث التاريخ أيضاً".

والمقرَّر تاريخيا ومنطقيا أنَّ "الذين يزرعون الفتنة، أمس أو اليوم، يحصدون الشرَّ، والذين يزرعون فسائل الخير يجنون ثمار الخير والبركة" ولكن لسلسلة الأسباب قانون آخر يحكمها، وهو قانون الزمن، فربما أمهِلت النتيجة ولم تظهر مباشرة، وإذا آن أوانها لا يؤخِّرها شيء، إلاَّ قضاء الله وقدره "وقد تنقضي سنوات أو عصور بين السبب والنتيجة، ولكن حين حلول الوقت المرهون، والإحساس بالأثر، تغدو النتيجة عين الجنة للأبرياء، وعين الجحيم للعصاة والظالمين".

والمعيَّنية أساسها عند المؤرِّخين، ومن أبرزهم "توينبي"، ما يُعرف بروح التاريخ؛ غير أنَّ كولن يعود إلى المنطلق ويعدِّل المصطلح، موافقا على الأساس، فيقول: "الأصح والأصوب، أن نشرحه وفاقا لروح العدالة في الشريعة الفطرية" عوضا عن روح التاريخ.

وما أروع اعتبار الأسباب عقديا "ستاراً لمشيئة الله تعالى وقضائه، أحاط دنيانا بها. فهذا لطف إلهي ذو حكمة... وهو وسيلة لنا وزينة لازمة نتزين به لتنفيذ التكاليف التي علينا".

ولعلَّ المطَّلع على النظريات المعاصرة يقع على ما يسمَّى بنظرية الفوضى "Théorie du Chao"، والتي كانت وليدة الرياضيات والفزياء، ثم انتقلت إلى العديد من المجالات، منها علم المناخ وغيره. وتقرر هذه النظرية مبدأين أساسيين، هما:

حساسية كلِّ شيء بالظروف الأولية لنشأته (أي أسبابه الأولى).

تكرار النتيجة بتكرار السبب.

ولقد اعتمد الأستاذ هذه النظرية، أو هو حلَّلها من مدخل مغاير، مدخل عقديّ لا فزيائي، ثم طبَّقها على التاريخ وعلى الأفعال البشرية، فقال: "مِن هذه الوجهة: قد يكون دبيب تحرُّكٍ صغيرٍ بدايةً لِكيان كبير بعد سنوات وسنوات، وقد تحصُل نتائج وخيمة تزلزل العصور من قناعة خاطئة أو تصرُّف سقيم" ويقرر علماء نظرية الفوضى أنَّ "رفّة جناح فراشة في مكان ما من العالم، قد تتسبب في حدوث إعصار في مكان بعيد عنه" (جايمس غليك James Gleick: نظرية الفوضى: علم اللامتوقّع).

ولكن، بينما يستنتج أصحاب نظرية الفوضى أنَّهم عثروا على نظرية تفسر كلَّ شي، وهي شاملة لكلِّ العلوم، وأنهم أمسكوا بخيط فهم الكون كلِّه؛ إلاَّ أنهم توقَّفوا في الطريق، ولم يعلنوا بعدها أن لا شيء خُلق عبثا، وأنَّ كلَّ شيء مخلوق بنظام محكم، وله دور في سلسلة الموجودات، وأنَّ الإنسان ضعيف وعاجز عن إدراك كلِّ الأسباب، وأنَّ الله وحده هو الذي يعلم كلَّ سبب وكلَّ نتيجة، مهما كانت بعيدة أو غير محتملة عقلا... فهو سبحانه

خالق الأسباب والنتائج ﴿مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(يونس:٦١).

ولذا، فإنَّ الأستاذ لم يعرض هذا القانون لمجرَّد الترف الفكريّ، ولكن ليزرع في النفوس بذور الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة، فهذا دوره وهذه وظيفته، وأيُّ فعل مهما بدا صغيرا، إذا كان خيرا، فسيأتي أكله بعد حين، ومن ثمَّ لا يجوز أن نستهين بأيّ فعل صادر من مؤمن ما دام صادقا فيما أتى، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧)، ويقول الرسول ﷺ: "لا تحقرنَّ من المعروف، ولو أن تلقى أخاك بوجه حسن".

وبالمقابل لا يجوز الاستهانةُ بالشرّ مهما كان صغيرا، فقد يكون سببا لشرّ أكبرَ، ومقدّمة لشرٍّ مستطر، ولو بعد حين، يقول سبحانه ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨)، ويقول ﷺ: "إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله، لا يرى بها بأساً، لِيُضحك بها أصحابه، يَهوي بها في جهنم سبعين خريفاً"(رواه البزار).

ولذا يوجّه الأستاذ الناس إلى البعد العقدي الإيماني لمبدأ المعيَّنية، فيقول في كتاب "صرح الروح": "فلنقرَّ أولا بمراعاة الأسباب؛ لأننا نعيش في عالم محاط بها، نحن نعيش في عالم الأسباب، فإهمالها محض جبرية وضلالة بالحاصل، وليست مراعاة الأسباب وحدها، بل العناية بالمناسبة بين السبب والنتيجة من أهمّ لوازم التكليف"(ص٩٨).

ومن تطبيقات مبدأ "المعيَّنية" نقرأ مقالا عند الأستاذ في العلاقة بين القرآن والقلب، حيث يجعل "الصفات القرآنية" سبب كلِّ حضارة، ويعتبر كلَّ تخلف إنما نشأ عن الإعراض عن كلام الله تعالى، بعيدا عن الأسماء والمسمَّيات، وفي منأى عن الاعتبارات الكلامية والتقليدية، وقد لا يقبل

هذا التصريف من جُبل على الجدل الكلاميِّ دون الولوج إلى عمق دلالة الأسماء والأحكام والصفات، أمَّا من أوتي فهما عميقا للعقيدة، وإدراكا واسعا لحقيقة كنه صفات الله تعالى، ولقوانين الكون وسننه، فإنه يجد هذا التوجيه بديعا ورائعا وموفقا.

يقول كولن: "إنَّ سبب تفوُّق الغرب في الوقت الحاضر، هو ما أخذوه من صفات المسلمين، لذا تراهم يجولون في الذرى. بينما تحوَّل العالم الإسلامي إلى حمَّال رذائل صفاتهم، فهو عندما يأتي إلى المسجد يلقي صفاتهم كالمعطف على كتفه، والآخر يسعى إلى الكنيسة بالصفات التي تخصُّ المسلمين. بمعنى أنَّ الغالب في الوقت الحاضر ليس الغرب نفسُه، وإنما الصفات الإسلامية التي فيهم. وكذا المغلوبون ليسوا هم المسلمين، بل الصفات الكافرة التي قلَّدوها. فلا نجاة لنا حقاً إلاّ باعتصامنا القويّ بالقرآن الكريم"...

بهذا تمكن الأستاذ من الفصل بين الإسلام والمسلمين، ولم ينحصر في التسميات؛ لأنه بنى فكره على مبدأ تناسب العلَّة والمعلول، والسبب والنتيجة؛ فالحضارة والتطور والتفوق كلها نتائج لأسباب معيَّنة، والتخلف والانهزام والذلة جميعها نتائج لأسباب سابقة لها، فإذا تمت الأسباب، حتى وإن كان ذلك على يد غير المسلمين، جاءت النتائج متناسقة، وفقا لعدل الله تعالى، وإذا امتنعت الأسباب امتنعت النتائج، وسلسلة الأسباب سنن من سنن الله تعالى، لا تحابي أحدا.

ولقد اعتمد الأستاذ للوصول إلى هذا الغور على مبدأ المعيَّنية، لكنه لم يجعل منه إلها آخر غير الله، كما عند بعض الفلاسفة، ولذا قيَّده بعبارة "إلى حدٍّ ما"، في عنوان المقال: "المعيَّنية إلى حدٍّ ما"، علما أنه كان في

معرض الردِّ على بعض الفلاسفة الذين نادوا بالمعينية بلا حدٍّ، ولا قيد ولا شرط. و"البراديم كولن" له ميزة الاعتدال والنضج، والرشد، وهذا دليل آخر على هذا الحكم.

الأسباب الدعوية الحضارية

أولا: سرُّ الدعوة، أو قلوب تشرَّبت المحبَّة

لعلَّ الغرض العمليَّ يلزمنا بأن نبدأ بقصَّة عن أثر المحبَّة والشفقة في كسب القلوب، وزرع الطمأنينة في النفوس، أوردَها الأستاذ فتح الله، وذكر أنَّه كرَّرها مرارا، لِما لها مِن بعد ومعنى في فكره.

قال: "شاب اهتدى حديثا، وعندما وجد نفسه في هالة من نور، تردَّد كثيرا إلى مجالس الذين يغمُرهم ذلك النور. وفي إحدى المرَّات عندما ذُكرت تعدِّيات قاسية لا تخطر على بال من الجبهة المخالفة، قام أحد الشباب المتحمِّسين وقال: يجب أن يُذبح جميع هؤلاء!. وما إن سمع ذلك المهتدي الجديد هذا الكلام حتى اصفرَّ واكْفَهَرَّ وجهُه. وقال للمتحمِّس: لا تقل هذا يا صديقي، فلو كنتَ قد نفَّذت هذا القرار قبل أيام لما كنتُ الآن بينكم، وكنتُ من أهل النار. والحال ترَونني الآن واحداً منكم. وإنسان تلك الجهة المخالفة لنا محتاج أيضاً إلى ما شاهدتُه من طيب المعاملة وحسن المعشر. وإلاّ ما نكون إلاّ هدَّامين لآخرتهم فحسب. وهذا لا يكسبنا ولا يكسبهم شيئاً"(طرق الإرشاد، ص١٦٢).

ويؤكِّد فتح الله في موطن آخر، أنَّ هذا السبيل القلبي، المتسم بالحبِّ والرحمة والشفقة، هو منحَى الخدمة، لا تنحرف عنه قيد أنملة، وهو مقتنع به، عامل على أساسه، وكذا كلُّ من التحق بالخدمة رضي بهذا المنهج سبيلا وطريقا.

وليس أفضل من الوقائع عنوانا على هذا الاختيار والمنحى، فقد أورد الأستاذ ما ينبغي أن نتصَّرف به حيال المذنبين، مِن رحمة وعطف وشفقة، فقال: "إذا ما شملتم قلب إنساننا اليوم بالعطف والحنان، سمعتم صدىً حزيناً منه؛ لأنَّه لن يَسعد إنسانٌ يغوص في الآثام ويخوض في الرذائل. ولا جرم لا يبقى إنسان برضاه ورغبته في هذه الحياة الآسنة، سوى الذين أظلمت قلوبهم، واسودَّت وجداناتهم نهائياً وتفسَّخ عالمهم المعنوي؛ إلاّ أنه قد زلَّ ووقع فيما هو فيه الآن فلا يجد مخرجاً له. فأنتم بأيديكم الشفيقة الحنونة تدلُّونهم على طريق الخروج الذي يبحثون عنه. فإذا تقرَّبتم إلى هؤلاء بالإشفاق عليهم وبيَّنتم لهم المسائل ضمن رحمة ورأفة موزونة، فسينظرون إليكم وإلى ما تقدِّمونه لهم من مسائل بعين اللطف وإن لم يتقبَّلوها. هذه حقيقة مشاهدة، حيث إنه قد انشرح بالإيمان قلوب مَن لا نتوقَّعه مِن أناس وفيما لا ننتظره من زمان، ولهذا مئات الألوف من الأمثلة"(نفسه).

نعم، مئات الألوف من الأمثلة الواقعية دالَّة على أثر الشفقة على قلوب العصاة ونفوسهم، وكلُّ ألسن الذين سألناهم عن سرِّ نجاح الأستاذ في منهجه أحالونا إلى "قلبه الذي ينبض برقَّة" فائقة، فهو شفوق على كلِّ المخلوقات، بكَّاء لكلِّ ألم قد يلمّ بأيِّ إنسان، مهما بدا هذا الألم صغيرا أو حقيرا في عيون عامَّة الناس.

وهل فتح الله في مسلكه هذا شاذٌّ، أم هو بدع من البشر؟

كلاَّ، إنه من رسول الرحمة والشفقة والقلب الحنون تعلَّم وتتلمذ، وقد قال في ذلك:

"لقد اعتلت الشفقة الذروة في أخلاق الرسول ﷺ، كما هي في جميع خصاله الأخرى. فلقد أسَّس ﷺ دعوته العظيمة على ركائز جليلة كالشفقة،

وبلَّغها في جوٍّ دافئ من الحنان والعطف. حيث يقول: "إنّما أنا لَكم مِثلُ الوالِد". وكيف لا، وهو الوالد الرؤوف الرحيم الذي قال حين ولادته: "أمّتي... أمّتي..." وبقوله لأمَّته "أولادي" كأنَّه يضمُّ إلى صدره الحنون فلذات كبده، فلئن كان ليعقوب وحيده يوسف عليهما السلام، فكلُّ فرد من أفراد أمَّته يوسفٌ له. نعم، إنه يفتح صدره ليضمَّ كلَّ فرد من أفراد أمَّته فرداً فرداً، كما يضمُّ الأب الرحيم ابنه الوحيد إلى صدره، وبالمقابل كلُّ فرد من أفراد أمَّته يحبه أكثر من حبِّه لوالديه بل حتى لنفسه. بمعنى أنَّ الصفة التي تلازم المبلّغ هي: المحبَّة النابعة من الشفقة والحنان، والسلوك الذي يقابل بالاحترام. هذه الصفة لها امتياز خاص، لأنه لا محلَّ للمحبة والاحترام فيما يخلو من الشفقة والرأفة"(طرق الإرشاد، ص١٥٩).

ولقد وصف الله تعالى رسوله الكريم بوصف يخرس كلَّ لسان، ويُعجز كلَّ بيان، بأنه كان نبيًّا عظيما لأنَّه كان شفوقا عطوفا ليّنا رحيما، فقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، وهذا الوصف يستفيد منه كلُّ مؤمن مسلم حتى يزداد تعلُّقا برسوله الرحيم، فتكبر طاعته له واتباع سنته وسبيله، ولقد قال تعالى مخاطبا جميع المؤمنين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨).

ويطول المقام بتفسير الآيات الواردة في هذا الشأن، كما يطول بتتبُّع مواطن الرحمة والشفقة في سيرة خير البرية محمد ﷺ، والنتيجة التي يجب أن نخرج بها هي أنَّ الرحمة والشفقة عاملان أساسيان في "التأثير الإيجابي على الآخرين"، وفي القدرة على تحويل المخطَّطات والبرامج إلى واقع وحياة وإمكان، ولقد عانت الأمَّة الإسلامية كثيرا، وبخاصَّة في

سنواتها الأخيرة، من التصرُّف بغلظة في العلاقات التي بين أفرادها من جهة، وبين أفرادها وباقي الأمم من جهة أخرى، ثم إنَّ الإعلام راح يلصق صفات "القسوة" و"العنف" والإرهاب" بالإسلام والمسلمين، راصدا لذلك الصور النمطية، ومستغلاًّ غلطات بعض الأغرار السذَّج ممن لم يفقه في الدين شيئا، فراح يعلن أنَّ "الإسلام جاء ليحصد الأرواح"، و"هذه رسالته المقدَّسة"، فهو "لا ينتشر إلاَّ على حدِّ السيف"، مجتزئا آيات وأحاديث عن سياقها، ضاربا عرض الحائط بحقيقتها ومقاصدها وروحها وأبعادها.

والصواب، الذي لا يشك فيه مؤمن عالم صادق، "أنَّ المبلِّغ هو بطل الشفقة والرحمة قبل كلِّ شيء، لا يتوسَّل لدفع الآخرين إلى قَبول الحقِّ الذي يدعو إليه بالوسائل الخاطئة، كاستعمال القوَّة والخشونة والإكراه؛ لأنَّ استقرار الإيمان بالله في القلوب ليس بهذه الوسائل قطعاً. بل الشفقة في الإرشاد تليِّن القلوبَ وترقِّق الوجدان، وتجعلهما يستأنسان ويتهيآن لقَبول الإيمان بالله وبرسوله ﷺ"(طرق الإرشاد، ص١٥٧).

ولا يزال التاريخ يذكر بداية التسعينيات من القرن الماضي، في الجزائر، يوم كانت الروح الإسلامية تسَّابق إلى قلوب الشباب وتغمرهم بالإيمان والحماس، غير أنَّ شرارة من الكُره والحقد والبغضاء والشحناء كانت كافية وكفيلة بإحراق المحصول كلِّه، ولكَم كان شباب الدعوة يومَها في حاجة إلى نهج الرحمة والشفقة وسعة القلب، ولكَم كان الدعاة المخلصون والعلماء الربانيون ينبِّهون إلى ذلك، ويحذرون من خطر العنف وسوء عاقبته!، لكن -للأسف- قلَّ من الشباب المندفع مَن استمع إلى النداء، وندر منهم مَن قبِل النصيحة، فراحت جماعات من هؤلاء تنحو نحو الفتنة، معطية بذلك أكبر فرصة للمتربِّصين بدين الله، فانقضوا

على بلدنا الوليد، وأخفتوا جذوة الإسلام في وطننا العزيز.

ولقد زارنا في تلك الأيام العصيبة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، إلى جامعة الجزائر، قسم العلوم الإسلامية، وألقى محاضرة في ملأ كبير، ثم عند خروجه أوقفته فتاة لتسأله، فأصاخ لها الشيخ العالِم سمعه، وطرق أمامها رأسه منصتا، وهي تبكي، وتشتكي أنها لم تكن متحجّبة بدايةً، ثم هداها الله فتحجَّبت، غير أنَّ بعض الشباب المتحمّس -باسم الدين- راح يضايقها ويلزمها بأوامر شديدة قاسية، مما أفسد عليها حياتها كلَّها.

سكت الشيخ برهة، وهو يتأمَّل في شكواها، ثم قال: "دعوا الشمس تسطع بهدوء، فوالله لو أنها سطعت مرَّة واحدة لعميت الأبصار كلُّها... دعوا الشمس تسطع بهدوء!..."

إنَّ "البراديم كولن" قد استفاد من الدرس، ولم ينجرَّ شبابُ الخدمة إلى أيِّ نوع من أنواع الشدَّة والعنف مهما كان شكلها، رغم أنَّ الظروف أمامهم كانت قاسية، ومبرّرات العنف لا تعدم مرحلة من مراحلهم، وبخاصة في بدايات المشروع، حين اعتُقل الأستاذ كولن من قِبل قوات الأمن؛ ولعلَّ اختيار الابتعاد عن السياسة والتشبث بالتربية والتعليم، كان حلا ومدخلا حضاريًّا، وكان نتيجة من نتائج هذه القناعة؛ ذلك أنَّ السياسات، والانتخابات، وحمَّى المنافسات... تقتل -غالبا في النفس- الحبَّ والشفقة والرحمة، وتُحيي البغضاء والشحناء والفرقة؛ وكلُّ ما أدَّى إلى ذلك كان حراما بنص الشارع: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾(المائدة:٩١)؛ ولا يجوز من السياسة -في فقه كولن- إلاَّ ما كان موافقا لروح الشارع، مدعاة لحبِّ الله، داع إلى سبل الخير... وهكذا كان

فحواها ومدلولها عند رسول الرحمة محمد ﷺ.

والحصيلة أنَّ من أراد أن يتخذ أسباب الدعوة، ويحقق ثمراتها، فعليه بالحبِّ والشفقة والرحمة؛ ومن أراد أن يجعل من فكره حركية، ومن علمه عملا، فعليه بالحبِّ والشفقة والرحمة؛ ولقد نبهنا رسول الرحمة بذلك في قوله: "ما دخل الرفق في شيء إلاَّ زانه، ولا نزع عن شيء إلاَّ شانه"، وقال لعائشة رضي الله عنها: "مهلا يا عائشة، إنَّ الله يحبُّ الرفق في الأمر كلِّه"(رواه البخاري)... ومَن بلغ هذه الدرجة الرفيعة صحَّ أن يعدَّ من الراشدين.

ثانيا: التخطيط وفن استشراف المستقبل

مِن أبرز الكتب التي أُلِّفت في توجيه الحركات الإسلامية إلى أهمية التخطيط، وإلى دوره في نجاح الدعوة وفعاليتها، كتاب المرحوم سعيد حوى، المعنون بـ"جند الله تخطيطا"، وهو كتاب علمت من بعض تلاميذ الأستاذ كولن أنه طالعه، وقدَّم عليه ملاحظات.

ولقد قرَّر المؤلِّف المرحوم في مقدمة كتابه "أنَّ التخطيط الأعلى للأمة الإسلامية، والتنظيم والتنفيذ المناسبين لذلك، هو أعظم المهمات على الإطلاق" في حقل الدعوة وخلافة الله في الأرض.

بل إنَّ المؤلف -وهو مرجع في الحركية الإسلامية المعاصرة- لخَّص تصوُّره لمكمن إشكال التخلف عند المسلمين اليوم، فقال: "لقد توصَّلتُ منذ أمد بعيد إلى أنَّ سرَّ المعضلة في الأمَّة الإسلامية يكمن في الفرد المسلم... ومعضلة الفرد المسلم، على أيِّ مستوى كان، تكمن في خمسة أمور: الثقافة، الأخلاق، التخطيط، التنظيم، التنفيذ"(ص١٠).

سواءً أَوَافقْنا على الأسباب الخمسة أم خالفنا، فإننا نؤكِّد ما ذهب إليه

الشيخ سعيد حوى من أهمية التخطيط وأثره على مصير الأفراد والأمم، ولقد اعتبرنا هذا السبب ضمن أسباب الرشد في البراديم كولن، ذلك أننا وجدناه حاضرا في كلِّ مؤلَّف من مؤلفاته، وواضحَ المعالم في كلِّ مشروع من مشاريع الخدمة، حتى تملكتنا الحيرة، ونحن نكتب هذا الفصل: من أين نبدأ، وأين ننتهي؟

ولقد عالج الأستاذ التخطيطَ ضمن "قدَر الله تعالى"، وعالجه في سيرة المصطفى ﷺ، وفي حياة الصحابة الكرام عليهم التحية والرضوان، وضمن تجارب الرجال الأفذاذ في الأمَّة عبر مختلف مراحلها الحضارية المشرقة...

ولقد ولج الأستاذ إلى التخطيط من باب العقيدة والتوحيد والإيمان، ومن نافذة الفلسفة والسياسة والتدبير؛ ثم عرض شروطه، وأنواعه، بعدما بيَّن أهميته... ولذا فإننا نعتبر مسبقا أنَّ مِن بين أبرز سمات البراديم كولن ارتباطه بالمستقبل، وقدرته على التخطيط والتنظيم والتنفيذ.

ولئن حدَّد سعيد حوى الشروط التي ينبغي أن تتوفَّر في أيِّ فرد أو مشروع حتى يتسم بالتخطيط ويوسم به، ومن ثم يطرق أبواب النصرة والتوفيق والتمكين، وعدَّ هذه الشروط ثلاثة: الرسوخُ في العلم، والحكمةُ، والحركيةُ، أي وجود جهة منفذة للمخطَّطات"؛ فإنَّ هذه الشروط اجتمعت في البراديم كولن، وزيد إليها شروط أخرى عديدة، ليس المقام مقام حصرها وسردها.

وسنعرض منطلقات التخطيط لدى الأستاذ، من خلال كتاباته، حسب التصنيفات التي برزت في فكره، ورسمت خطَّ السير في مشاريع الخدمة:

أ – التخطيط والقدَر الجبري:

في مقال بعنوان "القدر الجبري المهيمن في الكون" يغوص الأستاذ

في صفات الله تعالى، وفي بديع صنعه، مؤكِّدا "أنَّ الحاكم المهيمن على الكون كلِّه هو القدر والتقدير، والنظام والانسجام، والتخطيط، والميزان والاتزان" مستشهدا بالعديد من الآيات الكريمات، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١)، وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧).

والأستاذ في هذا الغوص يسير على نهج تمثُّل الصفات التكوينية لله تعالى، بمقابل تمثُّل صفاته التشريعية؛ وهذا المنحى متناسق مع محورية أسماء الله تعالى وصفاته في فكر كولن وتنظيره، وفي حركيته وتنفيذه وقيادته، ولذا ينقلنا مباشرة من التخطيط في بديع صنع الله تعالى إلى وجوب التخطيط في تحقيق خلافته ووراثته في الأرض؛ أو بالأحرى إنَّ منطق الكون والوجود يوجب التخطيط، وإنَّ سنن الله تعالى تلزمنا به، فكأننا في حقل الفيزياء الكمومية،[1] التي تثبت للمتناهي الصغر ما ثبت للمتناهي الكبر، في نسق واحد، ومنطق واحد، ونظام واحد.

إلاَّ أنَّ كولن لا ينحو منحى الفزياء، وإنما يبني نظريته على القرآن والإيمان، وعلى البصيرة والتبصُّر، فيكتشف أنَّ التخطيط في الكون يوجب التخطيط في الحركية، ويقول: "لا شكَّ أننا عندما نقوم بمشروع بناء أو عمل ساعة، فإننا نبدأ أولاً بوضع تصميم وتخطيط بمواصفات

---

١ الفيزياء الكمومية (La physique quantique): تسمية لجملة من النظريات الثورية في الفيزياء، مؤسسة على ثابت بلانك (constante de Planck)، وعلى النظرية النسبية؛ من أشهر منظريها شرودينغر، وفاغنر... وغيرهم. و"تقوم النظرية الكمومية بتقديم تصور غريب عن العالم الذري ودون الذري يصدمنا ويبعدنا عن كلِّ ما ألفناه في الواقع الحياتي، وما تقدمه الفيزياء الكلاسيكية من تصورات . لكنها بالرغم من كلِّ ذلك تنجح إلى حدٍّ بعيد في تفسير حقائق العالم دون الذري، وتعزِّز صحَّتها يوما بعد يوم بتقديم تنبؤات غريبة. لكن كل التجارب العلمية تأتي فيما بعد لتؤكد هذه التنبؤات"

معيَّنة؛ فنبدأ نقدِّر ونحسب كلَّ ما يمكن أن يظهر في المستقبل ضمن هذه المواصفات سلفاً. فلئن كان هذا التخطيط والتصميم في بناء بسيط أو في آلة بسيطة، فكيف يمكن تصوُّر هذه الأنظمة الدقيقة والتوازن الدقيق المحيِّر للعقول بدءً من الذرات ووصولاً إلى الإنسان، دون تخطيط أو منهاج؟ "(القدر، ص١٦).

وسهمُ المقارنة ثنائي الاتجاه، من روعة خلق الخالق إلى المطلوب من الأفراد والجماعات، ثم من أبسط حركيات الإنسان إلى عظيم قدر القادر المهيمن... كلاهما مبني على التخطيط والحكمة والإحكام، ألم يقل رسول الرحمة ﷺ: "تخلَّقوا بأخلاق الله؟"(رواه الأصفهاني).

ب – إنسان التخطيط:

أطلق الأستاذ كولن على رسول الله ﷺ صفة "إنسان التخطيط"، لملازمة هذه الصفة له في كلِّ مراحل حياته الشخصية والاجتماعية، الإرشادية والدعوية؛ ذلك أنه ﷺ يتميز ويمتاز عن غيره بـ"وحدة الفكر والتطبيق، واستخدام التخطيط ومحاربة العنصرة"،[1] وبـ"وحدة الفكر والتطبيق؛ فأيُّ هدف توخَّاه استطاع أن يسير نحوه، وأيُّ فكرة اقترحها استطاع تطبيقها"؛ ولذا جاز لنا أن نطلق عليه اسم "سيِّد المخطِّطين"، إذ لم يعرف التاريخ إنسانا أبعد نظرا منه، ولا أقدر على ربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالمستقبل، أكثر من النبي ﷺ، فقد "كان الرسول ﷺ يعرف الأيام المقبلة مثلما يعرف يومه، بل مثلما يعرف راحة يده، وكان هذا كيفية خاصة به".

والملفت للنظر أنَّه ﷺ "لم يكن يملك كومبيوتراً، ولا عقلاً إلكترونياً،

---

١ العنصرة: التجزيئية، وهي معالجة كل عنصر على حده، دون تنظيم ولا تخطيط ولا معالجة شمولية.

ولا هيئة تخطيط، ولكنَّه كان يعطي القرارات الصائبة في التو واللحظة ثم يخطو لتنفيذها... كان يعطي قراراته لمسائل بعُمْر مئات من السنين، ولم يكن يترك أيَّ مشكلة في أي مسألة من هذه المسائل"(النور الخالد، ص٣٧٥).

وإذا كان التخطيط ملكة وسجية عند رسول الله ﷺ، فهو اكتساب ومهارة وتعلُّم لدى غيره، من هنا وجب على المسلمين الحرص على اقتفاء أثره، والتأسِّي به، ومن جملة ذلك: تعلُّم التخطيط، وتعليم التخطيط، والعمل بالتخطيط، وتسطير المخطَّطات، وتنفيذها، وصياغة الأهداف بناء على الغايات... لا بروح مدنية باردة، لكن بأبعاد إيمانية نافذة؛ ويكون التخطيط بناء على هذا المنطلق والتصور نوعا من العبادة، بل من أكثر العبادات فضلا وأجرا ومثوبة عند الله تعالى.

ج – التخطيط في مستوى الفرد:

وصف الله تعالى الذين لا ينظِّمون حياتهم، والذين يسيرون في الدنيا سَبَهْللا، بأنهم فرَطوا عقد أمورهم، وأمرنا سبحانه وتعالى، بل أمر رسوله الكريم بعدم اتباعهم وطاعتهم وقبول مقترحاتهم، فقال جل من قائل: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف:٢٨)؛ يفسر ابن كثير الآية بقوله: "وكان أمرُه فرطا، أي أعماله وافعاله سفهٌ وتفريط وضياع" ثم قال: "ولا تكن مطيعا له، ولا محبًّا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه"(تفسير ابن كثير، نسخة رقمية).

ومن فحوى الآية نستنتج أنَّه على كلِّ مسلم –حتى يكتمل إيمانه– أن يسير وفق هدف ومخطَّط ونظام، وأن لا يتخذ أمره سفها وتفريطا وضياعا، وإلاَّ ضيع معية الرسول ﷺ، وخسِر محبَّته، ومن كان شأنه هذا خسر الدنيا والآخرة. يقول كولن في هذا المعنى، تحت عنوان "الحيطة": "على

كلِّ إنسان أن يتناول كلَّ عمل ضمن خطَّة مسبقة وتدبير، وعليه تجنُّب كلِّ شيء لا يؤدِّي في النتيجة إلى فائدة مادية وفضيلة معنوية تجنباً قطعيًّا. فكلُّ محاولة لم يؤخذ لها مثل هذا التدبير منذ البداية تعدُّ عبثاً. والاشتغال بالعبث يدلُّ على نقصان عقل ذلك الشخص وطفولة عقليته" ثم "إنَّ اتخاذ الحيطة والتدابير اللازمة رأسمالٌ كبير للإنسان الذي يأمل الوصول إلى مبتغاه"(الموازين، ص١٦).

وينتظر من مثل هذا التأصيل للتخطيط وأهميته، أن يتحول إلى منهج تربويّ متكامل، سواء في المدارس التابعة للخدمة، أم التي تستقي منها الخبرة والتجربة، فهل من مواد تعلِّم التخطيط؟ وهل من مقرَّرات وبرامج للتخطيط؟ وما حال التخطيط في كلِّ مشاريع الخدمة؟

هذا ما يجب الجواب عنه بالتفصيل، إذا ما رمنا التحليل ضمن نموذج الرشد، المتتبع للعلاقة بين التنظير والتنفيذ، وهذا الذي لم نجده مكتوبا في المشاريع التي زرناها، وكأنه ترك للعلاقات البشرية، ولجهود الأستاذ ضمن نظام الزمر؛ غير أنه ولا شك نقص يجب تداركه، وضعف يجب جبره.

د – التصرف الحركي والتخطيط المحكم:

بالتخطيط تنتصر الدعوة، وبغيره تفشل لا محالة "ونجاح الدعوة في ظل هذه الشروط يستند قبل كلِّ شيء إلى خطَّة محكمة والتصرف والحركة ضمن هذه الخطة. وعلى هذا فقدر أي شخص [أو أي مشروع] وقيمته تتناسب مع مقدار نجاحه، ويتناسب نجاحه مع صحَّة القرارات التي اتخذها قبل البدء في مشروعه وعمله تناسباً طردياً"(الموازين، ص١٦).

وفي مقال "الأجيال المثالية" يبيّن كولن "أنَّ العلل الاجتماعية، وأمراض

الأمَّة الجسيمة، والآفات الطبيعية، وما يشبه هذه الأزمات التي تستشري في جسد المجتمعات لا تعالج بتدابير يومية قصيرة الباع. فإنَّ معالجة أزمات واسعة الآثار كهذه منوطة بشيوع البصيرة والعلم والحكمة في المجتمع" فإذا ما توفَّرت هذه الشروط أمكن حلُّ أكثر المعضلات، ولا يتم ذلك إلاَّ بـ"بتحريك قسم من مصادر قوَّة اليوم لحساب المستقبل" وحساب الغد مع اليوم ليل نهار، قياما وقعودا، واستعمال الإمكانات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغد، فحلُّ "عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتحرُّر من قيود الزمان... إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل، والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه"(ص١٠٩).

والحق أنَّ القضية الكبرى اليوم للأمَّة الإسلامية هي التفكير في المستقبل، ولذا "فلا شكَّ في أنَّ مِن واجب كلِّ مثقَّف أن يفكّر ملياً في مستقبل وطننا وشعبنا"، غير أنَّ القليل النادر منهم مَن يقوم ويقعد "منذ سنوات مديدة حالمين بالمستقبل ومضطربين، على أملٍ بأنَّ الطرُق الوعرة ستوصل إلى الممهَّدة في يوم آت"، وهذه القلة المباركة هي أمل الأمَّة وغدها المشرق الوضاء، وهي طاقتها ومحرّكها "فترى إحدى يديهم ورجليهم منشغلة بالعمل اليومي، وأخراها منشغلة في تجهيز الخطط والبرامج للمستقبل"(صرح الروح، ص١٠٤).

هـ – "خَضِرُ" التخطيط:

القارئ لمؤلَّفات فتح الله يقتنع أنه كان "خضراً" في التخطيط، عارفا بالأسباب، معطٍ للزمن قدره ومقداره، غير مستعجل في شيء، واثقا من فكره وفعله، وذلك من منطلق ارتباطه بالله العالِم الحكيم، مراجعا لكل

خطوة يخطوها، باعتبار بشريته وبشرية الناس من حوله، الذين هم حقل التحقيق وميدانه.

ولقد تجاوز الأستاذ مرحلة التنبيه إلى "أهمية التخطيط وضرورته"، وهي مرحلة أساسية لا بدَّ منها؛ إلى مرحلة "التأصيل الشرعي للتخطيط، والحكم بوجوبه شرعا وعقلا، على الأفراد والتجمعات، وعلى الأمم والمجتمعات"، ثم راح يُنزل الحكم إلى ساحة الدفع الحركيّ الحضاريّ... فكان منذ الستينيات يرسم الخطط ويصوغ البرامج، ويقترح الغايات والمنطلقات والأهداف، بل وحتى الوسائل والمناهج والآليات؛ ولم يقتصر على هذه المرحلة، لكنه أسقط هذه الخطط على محكِّ الزمن والواقع والناس، وتابع كلَّ نبرة وكلَّ حركة، كأنه يشاهد دقَّات القلب على شاشة طبية حسَّاسة، وكان في كلِّ منعرج أو تحوُّل ذي بال يتدخَّل بفكره الثاقب الوثَّاب، فيصوِّب ويعدِّل في الميدان أولا، وقد يضطر إلى التعديل في المخطَّط ثانيا؛ حتى إنه أحيانا يصطدم بعسر الفهم لدى الناس، ويعاني من رفضهم لمخطط معيَّن، مثلما وقع له في مخطط تحويل بيوت الطلبة إلى مدارس نظامية... إلاَّ أنَّ "خضر التخطيط" لا يني ولا ينثني، بل يغيّر في الأسلوب والطريقة، وفق مبدأ "التصريف"، إلى أن يحصل الفهمُ الصحيح، والتطبيق الموفق.

وإنَّ مجموع رجال الخدمة ونسائها، بعد أمد، وثقوا في رائدهم، وحمَّلوه كلَّ مصيرهم، وصدَّقوه في كلِّ لفتة، وأبدوا استعدادا غير مشروط لتنفيذ ما يأتي به من مخطَّطات، حتى إنَّ الواحد منهم -وهو الناشط في ساحة الواقع- مهما بلغ مستواه الفكري والثقافي والاجتماعي، لا يكلِّف نفسه عناء السؤال عن التصوُّر العام، وعن تفاصيل المخطَّط، ولا مسؤولية

مناقشة الخطط والنظر فيها، بل يحمِل نفسه على إتقان الجهد في العمل، والخدمة في الثغر الذي صوِّب إليه.

ولقد تلمَّست هذه الصفة القيادية لدى الأستاذ، وهذه الصفة الانقيادية لدى كلِّ فرد في الخدمة، من خلال الجمع بين المسطور والمنظور، بين المؤلَّفات والمقالات والأفكار والطروحات من جهة، والمشاريع والمؤسَّسات والحركات والتصرفات من جهة أخرى... فلمَّا سألت عن بعض المناصب لبعض قيادات الخدمة، أجِبت أنَّ للأستاذ قوة إدراك عجيبة في معرفة حقيقة معادن الرجال، فهو ببصيرة نفَّاذة يختار القائد والجنديَّ، ويضع الرجل المناسب في مكانه المناسب، متفاديا بذلك علامات الساعة التي تظهر من حين لآخر في بعض بلاد المسلمين، بتولي غير المؤهَّلين مناصب ليسوا أهلا لها، يقول المصطفى عليه السلام: "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(رواه البخاري).

ولكلِّ مرحلة من المراحل التي ذكرتُها شواهد من تاريخ فكر الأستاذ، ومن تاريخ حركية الخدمة، قد يصعُب تعدادها ويطول، ولكن يكفي أن نورد للتمثيل لا للحصر، ما أورده هو بنفسه في "النور الخالد"، مقدِّرا لعظمة محمد عليه السلام في التخطيط والتنفيذ، معترفا بضعفه هو، بكل تواضع، فقال: "ولقد حاولت بنفسي، ولم أستطع، إقناع أقرب الناس إليَّ بنظام التربية المثلى، التي وضعتُها، والتي استلهمتها طبعا من رسولنا ﷺ تمام الإقناع؛ دعوت إلى الفضيلة حتى تعبت، ولكني لم أستطع حمل الناس عليها"(ص٧٠).

مِن هذا النص نستتنج أنَّ فتح الله "وضع مخطَّطا للتربية والتعليم"، ثم "عمل على إقناع الناس به"، وبدأ بأقرب الناس إليه، وهو قد استلهم المخطَّط من سيرة المصطفى عليه السلام، ومع أنه ذكر هنا أنَّ الناس لم يقتنعوا،

إلاَّ أنَّ المتجوّل في مشاريع كبرى، من مثل: مدارس فاتح، وبرج، وجوشكون، وأنافان، وفام... وكذا جامعة فاتح، وذروة... وغيرها، يتيقن أنَّ المخطَّط آتى أكله، وأنه اليوم صار ظاهرة عالمية، حيث تنتشر خارج تركيا عبر العالم اليوم أكثر من ١٢٠٠ مدرسة، من الطراز الرفيع، دع عنك المدارس وبيوت الطلبة والمشاريع التربوية داخل تركيا، من شرقها إلى غربها، من شمالها إلى جنوبها.

حقا إنَّ البراديم كولن، ليس فكرا مجردا حبيس النظر والنظريات، ولا ممارسةً فجة وليدة التهور والمحاولات؛ لكنه جمع بين التخطيط والتنفيذ، وقدرة على وضع مخطَّطات للمستقبل، باعتبار ظروف العصر، وبالحفاظ على الثوابت والمنطلقات، والليونة والمرونة في الوسائل والآليات...

الأسباب الفنية الجمالية

أولا: الفن، المفتاح السحري للحضارة

كانت البداية من مدرسة "برج"، أو ما يعرف في تركيا بـ"بورج كوليجي"[1] يوم زرتها مع وفد من الأصدقاء، ونحن حينها نتلمَّس معالم الخدمة، ونحاول اكتشاف خصائصها، فقادنا القدر إلى هنالك، ولقد تملَّكنا العجب، وغمرَنا التقدير، لكلِّ ما شاهدناه من نظام، وانضباط، وتخطيط، ووضوح للرؤية، وجمال... ولكنَّ الشيء المختلف حقًّا هو وجود "ثانوية فنية" داخل المؤسَّسة، وهي الأولى في تركيا، مما حرَّك فينا جملة من العواطف والأحاسيس والأفكار، ونحن نستحضر تلكم الصورة السافلة للفنِّ في أرجاء العالم، من جهة؛ وذلكم المستوى المتدني للجمال في بيئتنا ومحيطنا التربوي والمدني، من جهة ثانية.

(١) عنوانها في الإنترنت: (http://www.burcistanbul.com/index.aspx).

ولم أكن أعلم يومها أنَّ الأستاذ فتح الله قد كتب شيئا عن الفن، أو قال شيئا معتبَرا في خصوص الفن والجمال، وإن لم أستبعده باعتبار التناسب بين السبب والنتيجة، أي بالنظر إلى قانون العلية والمعيَّنية. والعادة في النموذج الإسلاميّ التقليديّ في عصرنا أنَّ العالِم والشيخ والمفكِّر لا شأن لهم بالفنِّ والجمال، وأنَّ الفنَّان إنسان أقرب إلى القاذورات والانفساخ منه إلى الفعل الحضاريّ البنائي التربوي. ولقد وفِّق مالك بن نبي أيما توفيق في اعتباره "التوجيه الجمالي" مدخلا أساسا للحضارة، جنبا إلى جنب مع المداخل الأخرى (مشكلة الثقافة، ص٧١). وما أروع مقولة علي عزت بيجوفيتش في هذا الصدد: "العلم دقيق، أمَّا الفنُّ فصادق"(الإسلام بين الشرق والغرب، ص١٤١).

وتوالت الأيام، فكنتُ كلَّما زرت مؤسَّسة من مؤسَّسات الخدمة، أو التقيتُ فردا من أفرادها، أو جماعة من جماعاتها، سُحرتُ بالأداء الفني والجمالي والذوقيّ، في كلِّ التفاصيل، حتى صرتُ أسيرًا لا أملك سوى الإعجاب، ولا أجد أفضل وأصدق من القول: "ما شاء الله لا قوة إلا بالله".

ثم تبين لي بعد أمد، أنني لست الوحيد الذي نحا هذا المنحى، بل هو انطباع كلِّ زائر دخل تركيا من باب الفكر والواقع. من هنا، ولهذا كلِّه، شرعت في البحث عن "الفن" و"الجمال" في فكر الأستاذ فتح الله، متسائلا عن دورهما في تحويل هذا الفكر إلى واقع، معترفا أنَّ هذا البحث ليس متعمِّقا، وإنما هو موفٍّ بغرض السياق، داعيا إلى بحوث أكثر تخصُّصا في منظومة الفنِّ والجمال في "البراديم كولن".

والحقُّ أنَّ فتح الله لا يلبث أن ينبِّه إلى ضرورة الفنِّ والجمال في كلِّ

مقال يكتبه، حتى إنَّه عدَّ من أبرز الصفات الثمانية لـ"ورثة الأرض"، ما سمَّاه "بالوصف السابع، وهو "فكرنا الفني"(صرح الروح، ص٤٤). وتأسَّفت كثيرا أنَّ الأستاذ لم يفصِّل القول -في هذا المقال- حول مقصده من الفكر الفني، فضاع منا الخير الكثير. لكنَّه ما لبث أن أضاء سماءنا بمقالة عنوانها "مِن الفوضى إلى النظام"، وهي غاية في تحليل ظاهرة الفنِّ، وضرورتِه لإقامة صرح حضاريٍّ ذي شأن.

ونقطة الانطلاق كانت مع البحث والتنقيب تحت عنوان "خلافة الله في الأرض"، والنتيجة أنه "منذ عصور والناظر إلى مجتمعنا يرى أنقاضاً وأنكاثا من حيث الأخلاق والفضيلة والعلم والفكر. فما زال المجتمع يبحث عن نظام وفكر بديل في التربية والفن والأخلاق. والصحيح هو أننا بحاجة إلى إرادات فولاذية وأدمغة أصيلة تحتضن الوجود بأعماقه جميعاً، والإنسان برحابه الدنيوية والأخروية، وتفسرهما، بل وتتدخل في الأشياء بعنوان خلافة الله في الأرض"(صرح الروح، ٩٥). ومدلول هذه العبارة هو البحث عن "نموذج بديل"، بناء على الرؤية الكونية لخليفة الله في الأرض، يصل بين الأعمدة الثلاثة البارزة للحضارة الحقة "التربية، والفن، والأخلاق". والناظر في واقع المسلمين اليوم ينتهي إلى ملاحظة أنَّ هذا النموذج لما يوجد بعدُ، أو أنه وجد ولما ينضج بعدُ.

والمصدر الوحيد للفن -في هذا النموذج- هو "مخافة الله تعالى" والنظر إلى بديع صنعه "نعم، إن تأمّلَ الوجدانُ لحظةً واحدة في كتاب الوجود فأبْصَر، لشهِد في كلِّ مكانٍ النظامَ والانسجام فوّاحاً، وغنىً في الجمال والمعاني مدهشاً. ولا تمسُّ الحاجة إلى تحسُّس شديد الرهافة، فالقلب المشحون بشيء من المشاعر يحسُّ كلَّ لون وصورة وصوت

ونَفَس شعراً ونغماً متلوناً بألوان اللانهاية، في الرعد المهيب كما في تغريد الطيور وزقزقة العصافير، وفي وجوه الأزهار الفاتنة كما في أضواء صفحة السماء الساحرة. ومن يدري ما يشهده الذين يتقدَّمون خطوة إلى الأمام في فيزياء الوجود وكيميائه وحياتياته وفضائياته"(صرح الروح، ص١٠٠).

وإذا اعتمدنا لغة "الرؤية الكونية" فإننا نقرِّر -بناء على فكر كولن- أنَّ الفنَّ السمج، والجمال القبيح، واللانظام المقنَّن، والذوق الشاذ... كلُّ أولئك نتيجة رؤيةٍ لله والإنسان والكون، توصف بأنها رؤية اختزالية ظاهرية عقيمة.

وما أبدعَ الربط بين بواطن الإنسان القلبية وظواهره الجمالية "فمن المعلوم أنَّ في كلِّ ثغرة من ثغراته، كالحرص والحقد والكره والغضب والعنف والشهوة، بُعدٌ موجيٌّ مختلف القوَّة من نزعات التخريب وميول العبث ودوامات الفوضى"(صرح الروح، ص١٠١).

ولكن، هل المستوى المرتفع من الذوق والفنِّ والجمال والنظام، فطريٌّ في بني البشر؟ أم هو قدَر على بعض الأمم والمجتمعات دون غيرها؟ أم هو غير ذلك؟

يجيب كولن بصراحة ووضوح أنَّ الأمر كسبيٌّ جهاديٌّ تربويٌّ، إذ "لا بدَّ أن تكون التربية التي تسمو به من درجة إنسان "بالقوَّة" إلى إنسان "بالفعل"، ذات أفقٍ لاهوتي ومحورٍ وهبي. فينبغي أن تغذى ثقافتنا الذاتية بورود حدائقنا وعصارات جذور معانينا وأرواحنا" حتى نبلغ مبتغانا من الفن والذوق الرفيع في كلِّ شأن من شؤون حياتنا.

والفنُّ لا يُستورد مع البضائع والأفكار، وإنما هو ذاتيٌّ مِلِّي، وأيُّ محاولة لمسخ مجتمع ما بفنِّ منظومة أخرى، أو برؤية كونية مختلفة، هي

محاولة لألقاء ذلك المجتمع في هاوية سحيقة من التخلف والفوضى والتبعية والذل.

ولا يفوت كولن -ضمن نموذجه- أن يغرس قيم الجمال والذوق الرفيع في أفراد الخدمة، عبر رسائله المشفَّرة، في مجلة "الرشحة" أو في غيرها، مثل "حراء"، و"زمان"... والبديع أنَّ المحتوى والشكل قد تآلفا لإعطاء صورة نيرة للفن عبر صفحات هذه المجلات والجرائد.

ولقد تتبعت أوصاف الفنِّ في هذه اللوحات والرسائل المشفَّرة، فاكتمل عندي عقد به صدف، أنتقي منها للقارئ أمثلة، وهي:

- الفنُّ من أهمِّ الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر.
- الفنُّ مثل مفتاح سحريٍّ، يفتح الكنوز السرية المكتشفة.
- الفنُّ طائر فكريٌّ يأخذ الإنسان في سياحة إلى فسيح بديع خلق الله تعالى.
- الفنُّ من أهمِّ العوامل التي تحافظ على المشاعر الإنسانية.
- الفنُّ هو اللوحة الأولى التي تستطيع تصوير قدرة ابن آدم وعمقه.
- الفنُّ هو الذي جعل الأرض معبدا للجمال الإلهي.
- يُظهر العمل الحقيقيُّ نفسه بالفنِّ.
- من لا فنَّ له شبه حيٍّ، وشبه ميِّت.
- الفنُّ هو الذي يجعل الحديد أغلى من الذهب، والنحاس أثمن من البرونز...
- الأرواح الخالية من الفنِّ والمنغلقة دونه يستوي وجودهم وعدم وجودهم... الخ.

ولا تغادر الذهنَ تلكم اللوحة الزيتية المعبِّرة لرجل مهموم، والكلمات الشعرية تهزُّه هزا، وتدعُّه دعًّا، ليستفيق، وينزع عنه نظاراته السوداء، فينطلق في عالم الإيمان الرحب، بالنظر إلى جميل صنع الرحمن، تحت عنوان "الإنسان والجمال"، وبجوار تلك اللوحة، يقول كولن معلقا عليها:

"أنعم يا إنسان النظر،

ومِن سجن نفسك تحرَّر،

ولوحات الجمال تشرَّب،

ودع قلبك يطر فرحا،

وروحك يرقص طربا...

واستشرف جمال "الجميل" في كلِّ جمال،

تطمئنَّ نفسك،

ويزدد إيمانك،

وإلى ربِّك تغدُ إنسانا،

خالصا في إنسانيتك" (ألوان وظلال، ص٨٤).

ولقد شهد شباب الخدمة، وتلاميذ الأستاذ، الملازمون له في خلواته وجلواته، أنه لم يدعُ إلى الجمال والفنِّ بقلمه وحبره فقط، بل عاشه في كلِّ نبرة، ومع كلِّ زفرة، وعند كلِّ نظرة، حتى إنه غالبا ما أرهقهم برهافة حسِّه، وأورثهم شعورا متوتِّرا تجاه كلِّ كلمة ينطق بها، أو سكتة يسكتها، أو إيماءة يومئها... ولعلَّ هذا القدر الرفيع من الإحساس الفني والجمالي، ومن رهافة الحسِّ والذوق، هو من أبرز الأسباب التي ساهمت في تحويل أفكار الأستاذ إلى واقع، وصاغت مخطَّطاته ومشاريعه بشكل يعجز القلم

عن وصفه، مشاريع هي في روحها ربانية، إيمانية، وفي ظاهرها فنية، ذات أجود المقاييس العالمية، فلا تعارض بين المخبر والمظهر، إنما هو التكامل والتعاضد والتوازن.

ومما ذكِر في هذا السياق أنَّ الأستاذ يحبُّ مشاهدة الأفلام الوثائقية، وبخاصَّة ما كان منها حول الطبيعة وجمالها، وهو أوان مشاهدته يتأثَّر، ويفرح، ويحزن... وقد تحرّكه لقطة أسدٍ افترس غزالة مثلا، فيبقى الأيام الطويلة -بعد ذلك- وهو يفكّر فيها، حتى إنه ليقترح مخططات لهذه الغزالة لِتنجو من مخالب الأسد، فيصف المقترح لمن حوله من الشباب... والحال أنَّ الغزالة قد أكلت منذ أمدٍ، وإنما هو فعل المشاعر والأحاسيس الصادقة في قلب رقيق رفيق (جمال ترك، نوزد صواش).

ولا يزال هؤلاء الشباب يذكرون يوم اقترحوا على الأستاذ، وهو في أمريكا، تغيير أثاث صالون الاستقبال، وقد بلي وتقادم، والزوار في هذه المرحلة قد تكاثروا نوعا وعددا، فمنهم علماء كبار، وبعضهم وزراء، وآخرون سفراء، وشخصيات عالمية معتبرة... الخ.

قبِل الأستاذ المقترحَ على مضض، لكن أمارات الحزن بدت في تقاسيم وجهه، فلمَّا سئل عن السبب، قال: "لقد ألفتُ هذا الأثاث، وألفني، وإني معترف له بخدمة كبيرة، ويحزنني أن يغادرني أو أستبدل به غيره... بيني وبينه إلف وحب، وحظ من الذوق والجمال لا ينكر"!

ولهذه الحال أمثلة كثيرة، لا تعلِن إلاَّ عن حقيقة واحدة، هي أنَّ الفنَّ والجمال والذوق إكسير الحياة، ومفتاح سحريٌّ، وطائر فكريٌّ، لا غنى عنه في مشروع، أو فكرة، أو حركة؛ وهو في "البراديم كولن" سبب من أسباب الرشد والنضج الفكري والحضاري والحركيّ.

ثانيا: الأدب والبيان والشعر

الأدب والبيان والشعر أزهار ضاربة جذورها في أرض اللغة، وهي أنهار ووديان نزلت من السماء رحمة ربانية، حيث كانت مودَعةً المزنَ والسحب الثقال... فإذا كانت الفروع نعمةً، فالأصول نعمة النعمة، ولهذا فاللغة -التي هي الأصل- "نعمةٌ كبيرة من النعم التي أسبغها الرحمن الرحيم على الإنسان. فبها يتغنى الإنسان بإنسانيته، وبها يتوجَّه نحو العلم، وبها يعيش في الأجيال القادمة. لذا فهل يدرك من أفسد هذه اللغة مدى الجريمة التي ارتكبها"(الموازين، ص١١٢).

واللسان هو آلة اللغة ومبعثُها، لذا وجب صونه من كلِّ ما يشينه، من ثرثرة، أو كلام سفيه، أو سبٍّ، أو حتى كلام غير موزون، ذلك أنه "لا ترتفع قيمة الإنسان وقدَرَه بطول كلامه، بل بمدى فائدة هذا الكلام، بل على العكس فالشخص الذي يتحدَّث على الدوام سيقع في أخطاء كثيرة لا سيما إن كان حديثه يتناول مواضيع فكرية دقيقة أو مواضيع تتطلب الاختصاص"، و"لقد كان شعار قلَّة الكلام شعاراً من شعارات الناضجين" (الموازين، ص٥٦-٥٧).

فإذا ما التزم الإنسان بآداب اللسان، وصان كلامَه من كلِّ شائبة، وقدَّر قيمة اللغة وقدرها وشرفها، وجب عليه الاعتناء -بعد ذلك- بالجودة والإجادة، وبالأدب والبيان، وبفنِّ الخطابة والخطاب؛ حتى تتحوَّل كلماته إلى سيول من الماء الرقراق، تَسقي القلوب، وتُنعش الأرواح. وبخاصَّة إذا كان هذا المتكلِّم واعظا، أو مفكِّرا، أو قائدا، أي له مكانة ذات اعتبار...

وأوَّل أسرار نفاذ الكلام أن يُعرف المخاطَب، وتُعتبر أحواله، فعلى المبلّغ أن "يتفقَّد أحوال مخاطبه عن كثب"، قبل أن ينبس ببنت شفة، فأيُّ

امتعاض أو إشارة خاطئة أو كلمة نابية "ربما تكون سببا لتنفير الناس"، فهل من خسارة أكثر فداحة من هذه؟ "وسنتحمَّل جميع المسؤوليات في الآخرة إن كانت نابعة من أحوالنا وسلوكنا".

وواجبٌ أن نتنبه إلى أسلوب القرآن الكريم أولا، كيف ينفذ إلى القلوب بلا تأشيرة، فيُلينها ويُذيبها في مساحات وأكوان "لا إله إلا الله"، وهو الذي يوصف بكونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾(الزمر:٢٨)؛ وقال جلَّ من قائل في حقّه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾(الرعد:٣١)، وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(الحشر:٢١).

كما يجب أن ننظر في أسلوب أسوتنا محمَّد عليه السلام، ذلكم الأسلوب البليغ الحكيم "تأمَّلوا، كيف كان الرسول ﷺ، يبلّغ بأسلوب لا يشعر معه المخاطَب أنه غارق في الإثم"(طرق الإرشاد، ص١٠٦). كيف لا وقد قال عنه ربُّ الجلال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾(النجم:٣)، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، فلم ولن ينطق لسان، من لدن آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، بأفضل مما نطق به أبلغ البلغاء، وأفصح الفصحاء، وأحكم الحكماء، محمد ﷺ.

يدرك فتح الله، من أوَّل وهلة، أنَّ الأدب رسولُ الفكر والحركة، فيعتني به، ويدرسُه، ويدرِّسه، ويتذوَّقه، وينتجه... وقليل من المعتنين بفكر الرجل -من غير العارفين بالتركية- يعلمون أنه كان يكتب في مجلة أدبية مقالاتٍ ناصعةً، ذات جواهر ولآلئ نفيسة، وعنوان هذه المجلة هو: "الغيث".

فلم يمارس فتح الله الأدب للأدب، بل مارسه معراجاً لأداء رسالة مقدَّسة، فهو يقول: "والكلمة أهمُّ واسطة لانتقال الأفكار من ذهن إلى آخر، ومن قلب إلى آخر. والذين يُحسنون استعمال هذه الواسطة من

أرباب الفكر يستطيعون جمع أنصار عديدين للأفكار التي يريدون إيداعها في القلوب وفي الأرواح، فيصلون بأفكارهم إلى الخلود. أمَّا الذين لا يُحسنون هذا ولا يستطيعونه فإنهم يقضون أعمارهم في معاناة فكرية ثم يرحلون عن هذه الدنيا دون أن يتركوا أثراً فيها"(الموازين، ص١١٤).

وهل كان فتح الله إلاَّ رائدا في الأدب، من الطراز الأوَّل؟

إنَّ مَن يطالع مقالاته المختلفة بعناية، يسْمُ بروحه إلى علياء الفكر والفنِّ والأدب الرفيع؛ ومِن عجب أنها تُرجمت، مع أنَّ كلَّ نصٍّ ترجم يضيع منه بعضه، ولكن ما بقي من هذه المقالات كان كافيا لإعطائنا صورة قريبة إلى الكمال عن بيان الرجل وبلاغته، وإني لأتساءل دائما: ترى، كيف يكون أدب الأستاذ باللغة التركية؟ وكيف يتلقاه المتذوّق للتركية؟ وبخاصَّة أنني طالعت "النور الخالد"، المتميز بفكره الأخاذ وأسلوبه النفاذ، فقيل لي: إنَّ أصله دورس مسجدية سمعية، أفرغت من أشرطة، ثم ترجمت إلى لغات عدَّة، بعدما طبعت بالتركية... فسبحان الذي حَبَا فتح الله هذا الأدب الفريد.

نعَم، قد تُقدَّم أفكار سامية بأدب هزيل، فتضيع؛ وقد تُعرض أفكار رديئة بأدب رفيع، فتُضِل. والواجب هو "تقديم الأفكار السامية والمبادئ السامية بأسلوب بليغ، له قدرة النفوذ إلى الأذهان، وتحريك القلوب وإثارتها"(الموازين، ص١١٥).

ويقف الشكل في مواجهة المحتوى عند كثير من المدارس النقدية المعاصرة، فمنهم من يقدِّم هذا، ومنهم من يدافع عن أولوية ذاك، لكن فتح الله يرى في كلٍّ منهما أساساً لا غنى عنه:

"فلو لم يكن الأدب موجوداً ما كان بإمكان الحكمة أن تأخذ مكانها

الحالي، ولا الفلسفة أن تصل إلى الأيام الحالية، وما كان بإمكان الخطابة أن تؤدي دورها"، هذا عن قيمة الشكل وأهميته.

"ومن جانبها قامت الحكمة والفلسفة والخطابة، كلٌّ من زاويتها ومن ساحتها بتقديم ثروتها كرأسمال ومادة لا تنتهي للأدب مما أكسبته عمراً مديداً وخلودا"، وهذا عن شأن المحتوى وقدرهً.

ولا بدَّ من الاعتراف مع ذلك أنَّ الأدب جمال وفنٌّ ذلك أنَّ "الأديب كالفنَّان، يبحث دوماً في ألوان الكون وخطوطه وأشكاله عن نفسه. وفي اللحظة التي يجد فيها ما يبحث عنه ويعبّر... عنه يكسر قلمه ويرمي بفرشاته ويغيب بذهول وإعجاب عن نفسه"، و"الأدباء والشعراء بترنمهم بالجمال الباطنيّ والظاهريّ، أي الجمال في الأنفس وفي الآفاق يشبهون عازفي الناي"(الموازين، ص١١٥).

ومع كون الفن والجمال إكسير الأدب، إلاَّ أنَّ "العنصر الأساسي في الأدب هو المعنى. لذا يجب أن تكون الكلمات المذكورة قليلة وقصيرة وغنية بالمعاني". هنا نجد فتح الله قد انتصر للمحتوى على حساب الشكل، لكن بغرض الدفاع عن حقيقة الوجود، وعن الإيمان بربِّ الوجود، فالأدب لا يبحث عنه عند الأدباء واللغويين، بقدر ما يطلب "عند المفكّرين من ذوي القلوب الملهمة التي تحيط بالوجود وتعرف كيف تتسع قلوبها للوجود كلّه، وذوي الخيال الواسع الذين نجحوا في رؤية الدنيا والآخرة وجهين لحقيقة واحدة، والذين يملكون إيماناً عميقاً وفكراً تركيبياً قوياً"(الموازين، ص١١٦). أي أنَّ مصدر الأدب هو الرؤية الكونية الشاملة المتزنة، الكاملة المعاني والمعالم.

وعن الرؤية المتكاملة الجامعة بين الشكل والمحتوى يقول فتح الله:

"عندما لا تتمُّ التضحية بالشكل من أجل المعنى، ولا المعنى من أجل الشكل في النظم، بل على العكس عندما يرتبطان مع بعضهما ارتباط الروح بالجسد، يصل آنذاك إلى مستوى من التناسق والتلاؤم يحبه كل وجدان"(الموازين، ص١٢٠).

وينبغي أن لا يغيب عن الأذهان أنَّ فتح الله شاعر: كتب الشعر، وكتب في الشعر، وكتب عن الشعر؛ له مقطوعات فنية جميلة، مبثوثة في كتبه ونتاجه الفكريّ، وجُمع له ديوان شعر بالتركية، يعترف له الأدباء بالإجادة والعمق؛ ثم إنَّ فتح الله -مع ذلك- عشق الشعراء الكبار وسار على خطاهم، من أمثال: جلال الدين الرومي، ويونس إمره، ومحمد عاكف، ونجيب فاضل... ولطالما استشهد بجميل أدبهم وشعرهم، الذي يحفظ منه الكثير، ولطالما قام شارحا لمقطوعة من فنهم وإبداعهم.

وفي تقديم أورخان محمد علي لكتاب الموازين، أشاد بالجوانب المختلفة والمتكاملة من فكر فتح الله، فقال: "هذا الكتاب عبارة عن نظرات في مختلف شؤون الفكر والحياة والمجتمع. يقترب فيه المؤلف من هذه الشؤون مرَّة بنظر العالم... ومرَّة بنظر المفكِّر... ومرَّة بروح الشاعر... ولكنه لا ينسى في أيِّ مرَّة من هذه المرَّات أنَّ أبرز صفة عنده هو أنه داعية يدعو إلى الله تعالى على بصيرة... "(ص٨).

لي صديق مرتبط إلى حدِّ الهوس بما يكتبه فتح الله، فهو يتتبع المقالات التي ننشرها تباعا في موقع "فيكوس"، وهو كلَّما قرأ مقالا كرَّر قراءته العديدَ من المرات، ثم بعد ذلك، غالبا ما يهاتفني، ويعبِّر لي عن أشجانه ومكنوناته، وهو في كلِّ مرَّة يذرف دموعا، لا يخفيها ولا يكاد يقدر على ذلك؛ فيسقي ما حوله ومن حوله، وما ذلك -حسب

رأي صديقي- إلاَّ للصدق الذي يلمسه، وللأدب الذي يسحره... وليس صديقي هذا بالأديب ولا بالناقد، ولا بالذواقة للأدب بمعناه الأكاديمي، ولكنها الفطرة تخاطب الفطرة، والجمال يحل في الجمال، فيولد على إثرهما المعنى والحقيقة والخلود.

وما كان "للبراديم كولن" أن يبلغ حدَّ الرشد والسموِّ الحضاري لو أنه أعرض عن هذا الجانب الفنيِّ الأدبيِّ، فهو لذلك وبذلك يقال عنه إنه مشروع راشد، ودافع إلى توليد الحركية في مختلف مجالات الحياة: من التربية إلى الاقتصاد، ومن الفن إلى الصناعة... ذلك أنَّ الصحبة، وهم شباب الخدمة في هذه المشاريع، دائما تجدهم ينتظرون مقالات الأستاذ، وغالبا ما تأتيهم أسبوعيا، فيجلسون في "مجالس الصحبة"[1] حول كؤوس شاي تركي أحمر، ويطالعون هذه المقالات، فيتأثرون بها، ويتأملون عمقها، ويحللون محتواها... ثمَّ يركّبون -بعقلهم التوليديِّ- مركَّبات تطبيقية لإنزال ما قرؤوا على أرض الحياة والواقع، كلٌّ حسب تخصصه واهتمامه وقدرته... وهكذا تتحوَّل أفكار الأستاذ مشاريع حضارية في أزمان قياسية، ولا ريب أنَّ للأدب دوره الأساس في هذا التحوُّل، وفي ذلكم الرقيِّ.

١ مجالس الصحبة: من أبرز الطرق لتحويل فكر الإستاذ إلى مشاريع؛ وهي غالبا ما تعقد أسبوعيا، في بيت أحدهم، أو في صالونات المشاريع، المخصصة لذلك. ولقد استعرنا المصطلح، ووظفناه في مشروعنا، وأسسنا ما يعرف بمجلس الصحبة، التابع لمكتب الدراسات، ولمعهد المناهج.

الفصل السادس

مقالات فاتح القسطنطينية

"إذا كنتَ في كل صباح تستيقظ فتتنظف، ثم تدعو الله تعالى بقلب خالص، أن يحقق لك أهدافا نبيلة، فإن الله تعالى لا شك سيجيبك".

(إسلام كريموف، الرئيس الأوزباكي)

مقالات فاتح القسطنطينية/ ١[١]

مِن "سما"[٢] حيث الفكر سما

حين يقصد المرء مستشفى فإنَّ الغرض دائما يكون هو الاستشفاء من أسقام الجسد وأمراضِها، والمنتظَر عادة هو أن يلتقي بأطبَّاء وممرّضين في مقابل مرضى ومعلولين؛ هؤلاء يعانُون ويأملون في الشفاء، وأولئك يُبدعون في استعمال معلوماتهم لوصف الدواء.

لكنَّنا هذه المرَّة -على غير العادة- دخلنا مستشفى في زمرةٍ من الإخوة الأتراك المتفنّنين في الإحسان، يترأس وفدَنا الشيخ عثمان ولد الشيخ أحمد، وهو عالم موريتاني، ووزير سابق في بلده، صاحب حظوة ومكانة اجتماعية.

دخلنا المستشفى وليس بيننا مَن يعاني أو يتألم من سُقم الأبدان، غير أنَّ جميعنا يقاسي الأمرَّين من وهن الأديان، ويعلن الويلين من الخلل في حضارة البلدان...

توجَّهنا إلى مكتب المدير، فاستقبَلَنا بوقار، وبشَّ في وجوهنا بشَّ الأبرار، وهو رجل دمث الأخلاق، حسن الطالع، يلج القلوب دون أن يطرقها، يذكّرنا بالسلف الصالح من علماء الإسلام أمثال الرازي وابن سينا...

---

١ مقالات "فاتح القسطنطينية" هي ثمانية، نشرت في موقع فيكوس تباعا، وذلك أثناء تفرغي في تركيا، شهري جويلية وأوت من عام ٢٠١٠م.

٢ سَما: هو مستشفى sema، في إستانبول، للتجول افتراضيا في المستشفى انتقل إلى الرابط الآتي: http://www.semahastanesi.com.tr/2009/excomponents/sanaltur/index.html

فهل كان مدير أحسن مستشفى في تركيا، وأكثرها تطورا، طبيبًا، أو مِن سِلك الأطباء؟

وهل أغرقَنا في وصف محتويات المستشفى من خبرات بشرية، ووسائل تقنية؟

وهل شهَّر لمستشفاه، وردَّد مع المردِّدين: إنه أكبر... وأفضل... وأعظم؟

لا، لم يقع شيء من ذلك؛ لكنَّه استضافنا في قاعة مُطلة على بحر البوسفور، منها تُرى "جزر الأميرات"، وأجلَسَنا حسب مقامِنا، ثم أكرمنا بشاي أحمر -على عادة أهل الترك دوما-، وسلَّم لكلِّ واحد منَّا دفترا وقلمًا، وبدأ يحلِّق عاليا في سماء الفكر والفهم، بعد أن استأذن واعتذر...

إنه العالِم مصطفى أوزجان، خرِّيج كلية "الإلهيات"، وأحد أبرز تلاميذ الأستاذ محمد فتح الله كولن، كان واعظا في أكبر مساجد تركيا، وهو الآن بالإضافة إلى إدارة المستشفى، مديرٌ وعضو في إدارة أربع جامعات، منها ما هو في الوطن، ومنها ما هو خارجها...

من هنا تبدأ المفارقات:

فهل يُعقل أن يتولَّى إدارة مستشفى خرِّيجُ كلية للعلوم الإسلامية في عالمنا العربي، مثلا؟ وهل يمكن للمرء أن يجمع بين إدارة مستشفى وإدارة جامعة، وهما ضرَّتان، في بلادٍ لا تطيق الواحدةُ منهما الأخرى؟

لا أنتظر الجواب... ولكن أواصل في تحليل حديث الأستاذ مصطفى:

فقد شرح لنا أنَّ العالم ينقسم إلى منظومتين:

- منظومة نبوية مصدرها الوحي،
- ومنظومة فلسفية، معتمَدها العقل...

أمَّا الأولى فكليةٌ شمولية، وأمَّا الثانية فجزئية اختزالية... ولقد جُرِّبت المنظومتان عبر التاريخ، وكانت ثمار الأولى دائما طيبةً وخيِّرة، أمَّا الثانية فكانت دوما تُردي بالبشرية إلى الويلات والنكبات...

وفي القرون المتأخِّرة، عَرف العالم فشل المنظومة البشرية الفلسفية، ووُلدت محاولات في كامل العالم الإسلامي للنهوض والإصلاح، بكلِّ المناهج والطرق والوسائل... ومع جميع هذه الجهود، لم يتمَّ لهذه المحاولات النجاح المنشود، ولا التمكين المقصود...

فأين الخلل؟

يواصل الأستاذ قائلا:

الخللُ يكمن في كون هذه المحاولات ركَّزت على الأوامر التشريعية، وأغفلت الأوامر التكوينية... ركَّزت على الشعائر وفقه العبادات، وأهملت أصول الإدارة والاقتصاد وفقه الحضارات... فما كان من غير المسلمين إلاَّ أن أخذوا قصب السبق في الأوامر التكوينية، وعمَروا الكون، وشيَّدوا المدنيات، فتفوَّقوا، وبزوا الأمم كلَّها... مِن هنا أوسِد الأمرُ لغير المسلمين، مع أنَّ المسلمين يمثِّلون ما يقارب ربع العالم.

كلُّ ذلك، وقول الله تعالى يُتلى علينا، ونحن نؤمن به، ونعتقد صدقه، وهو القائل سبحانه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨)، ويقول تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾(طه:١٣٢)، ويقول جلَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)...

- **أين الخلل، إذن؟**

الخلل في عجز المسلم -الحديث للدكتور مصطفى- وليس في قوَّة الكافر، ولقد استعاذ الرسول الكريم، سيِّد الأنام ﷺ "من العجز

والكسل" في الحديث المأثور، وعلَّمنا في أحاديث أن نستعيذ بالله منهما في دعائنا... فلا بدَّ إذن أن يرتفع العجز عن المسلمين حتى يتحقَّق لهم النصر، ويتمَّ للبشرية السعادة والرفاه.

ومِن جهة أخرى، لا بدَّ أن ننظر إلى القرآن الكريم على أنه تجلٍّ لصفات الله تعالى: فهو من جهةٍ التجلِّي لصفة الكلام، ومن جهة أخرى هو التجلِّي لصفة القدرة والإرادة في الكون... وعلى المؤمن أن يتمثَّل هذه التجليات كلِّها في أقواله وأفعاله، في سلوكه وصفاته...

فهل عندما يقول الواحد منَّا -نحن المسلمين-: أنا مسلم، ولكنني سأنام، وأعتزل الحياة، ومع ذلك سأربح وسأفوز في العقبى... يكون صادقا؟ وهل يمكنه أن ينتصر على الكافر العامل المجدِّ المجتهد؟

يجيب الأستاذ بحزم وانفعال:

لا، وألف لا... ففي الدنيا، هذا الكافر هو المتمكِّن والمستخلَف، وذاك المسلم هو المهزوم والذليل... ولكنَّ أحكام الآخرة شيء آخر... ثم إنَّ المسلم بهذا لم يراع صفتَي القدرة والإرادة اللتين هما من أعظم تجليات صفات الله في القرآن الكريم، وهذا نوع من أنواع المعصية... طبعا.

مِن هنا، فإننا نقرِّر أنَّه في أصول التشريع، لا يمكننا أن نأخذ شيئا عن غير المسلمين، فقد اكتمل ديننا والحمد لله... أمَّا في المجالات الأخرى، وفي أصول التكوين والعمارة، فإنَّ العلوم وما توصَّلت إليه البشريةُ مُشاع، وعلينا أن نستفيد منها، كما استفاد الغرب منَّا يوم كنَّا سادة في الأرض.

والتحدِّي الأكبر الذي يعترضنا اليوم هو: كيف نفهم -في ضوء القرآن والسنة- أصولَ الحياة كلَّها؟ من مثل:

ما هو الإنسان؟ وما هي الحياة؟ وكيف نحقِّق أفضل شكل من

أشكالهما؟ وكيف نُعطي نظرة جديدة للعلوم الوضعية؟ وكيف نستفيد من العلوم والتكنولوجيا لسعادة الإنسان ولخير الحياة؟

يقصُّ علينا الأستاذ مصطفى حادثةً، وقعت له في إحدى الدول العربية، تدلُّ على هذه المفارقة بين الأوامر التشريعية والأوامر التكوينية، ويقول:

كنا في إحدى البلاد العربية، فأخذَنا أحدُ العلماء إلى مدرسة قرآنية كبيرة، يزاول فيها حوالي ٤٥٠ طالبا مختلَف علوم الشرع، بجدٍّ واجتهاد... وهم في هذا غير مقصّرين... غير أننا لاحظنا وبكل وضوح أنَّ هؤلاء الطلبة لا يعيشون عصرهم، وإنما يعيشون في القرون الخوالي، ويحيون عصورا غابرة، بكل ما تحمل الكلمة من دلالة.

والأستاذ كولن في أواسط الستينيات لاحظ هذه المفارقة، فأعمل فكره وجنَّد روحَه لحلِّها، بكلِّ الوسائل والطرق... فكان-هو بنفسه- يدرِّس العلوم التقليدية والعلوم العصرية جنبا إلى جنب... ويستوعب التراث والفكر الفلسفي معًا... وكان هذا المنحى عنده جديدا على تركيا في ذلك العصر...

والسرُّ في نجاح الأستاذ كولن، هو أنَّه يؤمن أنَّ أيَّ فكر إذا لم يُقبَل لن يُكتب له النجاح، وأنَّ أيَّ فكر إذا لم تكن فيه إمكانية التطبيق لن يحقّق شيئا.

وعلى إثر هذا المنهج أسَّس الأستاذ دُورا للطلبة، على شاكلة دار الأرقم، ووضع لها مخطَّطا تربويا بديعا، منطلقا من قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾(النور:٣٦).

فلمَّا تبيَّن نجاحُ هذه الخطَّة، تسابق التجَّار والمحسنون في بناء العشرات من البيوت على شاكلتها... حتى عمَّ خيرُها تركيا كلَّها، بعد أمدٍ قصير...

وكان الأستاذ فتح الله يستغل فصل الصيف لإقامة مخيَّمات للعلوم الشرعية، وللتدريب على أصول الإيمان والتزكية، والمعرفة والمعاشرة، منطلقا من القرآن الكريم، وسنَّةِ المصطفى الأمين... فأقام أوَّل مخيم سنة ١٩٦٧م، لمدة ثلاثة أشهر كاملة، وواصل فيها إلى غاية سنة ١٩٧٥م ... وبعد هذه السنة غيَّر الأستاذ منهجه وطريقته، وكان متميّزا بليونة منقطعة النظير...

وبعد سنة ١٩٨٥ أسَّس الأستاذ منهجًا للطلبة المتخرِّجين في كلية الإلهيات، بحيث ينقطع للدراسة المعمَّقة المتواصلة، متبتلا، مجتهدا، محتسبا... إلى أن يتخرَّج...

وقبل ذلك، في سنة ١٩٨٠م، تحوَّلت دُور الطلبة "دُور الأرقم" إلى مدارس نظامية رسمية، تمشِّيا مع الظروف والأحوال... وقد فهم الأستاذ قوله تعالى، من سورة الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾(الكهف:١٩)، فهمًا مباينا للفهم التقليدي، الذي يفسِّرها بدلالة القاموس: "وليختفِ وليحذر"... لكن الأستاذ فسَّرها بمعنى "الشفافية والوضوح والظهور اللطيف، الذي لا يعطي الفرصة للشك والريب"... معناه هنا، وفي سياق التدافع الحضاريِّ: بناء مدارس، ذات مقاييس عالمية عالية، قوية ومتميزة، متفوقة ورائدة... تفرض إيقاعها على الأمَّة كلِّها، ولا يقدر أحد على إذايتها أو التنكر لها...

من ذلك التاريخ إلى اليوم تحقَّق للمشروع من الإنجازات ما لم يتحقَّق لغيره، ففُتحت مؤسَّسات في كلِّ مناحي الحياة، وفي كلِّ متطلَّبات الحضارة، إمعانا في صناعة الإنسان السويِّ، وتركيزا على الأوامر التكوينيَّة إضافة إلى الأوامر التشريعيَّة... ففُتحت إلى هذه السنة، أي ٢٠١٠م، أكثر من ١٢٠٠ مدرسة في خارج تركيا، في حوالي ١٦٠ دولة، تتوزَّع على ستِّ قارات... والآلاف من المدارس، بمختلف المسمَّيات والأشكال

والمستويات، في داخل تركيا وفي جميع الولايات...

ثم اقتحمت "جماعة الخدمة" بهذا المنطق مجالَ البحث العلمي، والصحَّة، والاقتصاد، والإعلام... وكلَّ المجالات الأخرى، بفكر حضاريٍّ، يقوده الأستاذ بحكمة وروية، ويستجيب له المحبون بإخلاص وتفان: جامعات، ومجلات، وجرائد، ودور للنشر، وإذاعات، وقنوات فضائية، ومستشفيات، ومؤسَّسات إغاثة... الخ.

ومن المناسب التذكير بأنَّ الأستاذ يقرّر أنَّ أعداء الأمَّة ثلاثة، ولعلَّه في ذلك استفاد من أستاذه بديع الزمان النورسي:

الجهل،

والفَقر،

والفُرقة...

من هذه الثلاثية ننطلق -كما يقول الأستاذ مصطفى- لنبني مشاريعنا، وليس لنا فكرٌ إقصائي أو تبريريٌّ... وإنَّما فكرنا عمليٌّ بنائيٌّ حضاريٌّ... وليس هدفنا تركيا فقط، وإنما هدفنا أن نُرشد العالَم كلَّه إلى الفكر القرآني التربوي الأخلاقي، هبة من الله تعالى، وأداء للواجب المنوط بنا...

* * *

أغمضت عينيَّ، ثم فتحتُهما... فإذا أنا داخل مستشفى.... لا داخل جامعة، أو كلية، أو مسجد جامع... أنا أمام مدير مستشفى راق، لا أمام مفكِّر مجرَّد أو واعظ محترف، أو صاحب نظريات ونظرات... فكرٌ يسنده فعل، وفعل يسبقه فكر... في تناغم وتناسق نسيناه في عالمنا العربي منذ قرون...

انتهت الحصَّة، وارتفعت الجلسة... وما حلَّت الحضارة بعد في أوطاننا... فلنواصل المسير، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمرا...

مقالات فاتح القسطنطينية/ ٢

جنازة في مدينة الإسلام

ليس للموعظة لغة ولا لسان...

ليس للعبرة بلد ولا عنوان...

ليس للموت حيِّز ولا مكان...

ولكن ثمة في الوجود قلوبٌ تنبض بالإحساس، تحملها صدور جُبلت على التعقُّل والتذكر والتفكر... وهنالك أرواح لبِست أجسادا، وأجساد آوت أرواحا، متى ما اتَّصلت رشحت الحياة من كلِّ جانب، وإذا ما انفصلت دبَّ السكون المطلق في الأوصال، فسُجِّل صاحبهما في قائمة الأموات إلى يوم الدين.

بعض البشر أجساد بلا قلوب ولا أرواح، كأنهم حجر صلد، أو جلمود صخر... وفيهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩).

بعض من الناس، على النقيض من هؤلاء، ولله الحمد، قلوبٌ وأرواح بلا أجساد، وفي مثل هؤلاء يقول الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

* * *

زرت تركيا مرارا، وفي كلِّ مرَّة أكتشف عِبرا جديدة نابضة بالحياة، فأشحن بطارية الإيمان والتقوى في قلبي، وأجد أسباب الإمكان الحضاريّ في عقلي، فتنشط للمشاريع والمخطَّطات جوارحي... ثم أعود إلى بلدي، وكلِّي رجاء أن نكون يومًا ما في صف العثمانيين جنودا، ولنصرة دين الله أسودا...

وآخر إشعاع هزَّ كياني وهزَّ العالَمين مِن قَبلي، تلكم الملحمة العظيمة التي نسج خيوطها الذهبية "أسطولُ الحرية"، مصمِّمة على فكِّ الحصار عن غزَّة المكلومة المظلومة... فكان للأبطال -بإذن الله- ما أرادوا، بل أكثر مما خطَّطوا؛ ووُلد على يدهم عهدٌ جديد، حان فيه خفوتُ نار الظَّلَمة، وآن حينها إشراق شمس المسلمين الدافئة. وما كان لهذا النصر أن يتحقق لولا تلكم الأرواح الطاهرة من شهداء القافلة، الذين وهَبوا أرواحهم فداء لحياة الملايين من بني البشر المظلومين... وما خذلت أبطالَ القافلة دولتُهم، لكنها وقفت طودا شامخا وحصنا حصينا بجنبهم...

يومها، تحرَّك وجداني مع الحدث، وتحرَّك فيَ كلُّ عرق نابض، فولدتُ من جديد، أنا الذي أقتَل يوميًّا ألف مرَّة جراء انتكاسات بلاد العرب، وأهل الحي، ممن وصفهم مالك بن نبي بـ"الغاشي".. ونعتَهم آخرون بـ"الرعاع"، لكنَّ أصدق وصف فيهم قول الرسول الكريم: "غثاء كغثاء السيل".

* * *

وفي هذه الأيام الصيفية اللطيفة...

المكان: جامع "يونس أَمْرَه"، بمنطقة "أتاكوي"، في الجهة الأوروبية من مدينة الإسلام.[1]

١ مدينة الإسلام: هي إسلامبول، أو إستانبول اليوم، وهي القسطنطينية. ولقد أطلق عليها محمد الفاتح ﷺ هذا الاسم نسبة إلى الإسلام، وشيد فيها المساجد، وأعلى مقامها في تاريخ الأمم.

والزمان: بُعيد العصر من يوم الخميس، أواخر رجب الخير، من عام ١٤٣٠ للهجرة النبوية.

والحدث: شهود جنازة مهيبة، حضرها الرجال والنساء على السواء، كلٌّ من مصلاَّه... ألقِيَت فيها مواعظ، وتحرَّكت مواجد، وفي كلِّ ما قيل لم أفهم كلمةً واحدة، ولم أفقه جملة واحدة، إلاَّ ما كان تلاوة لآية، أو قراءة لحديث...

أمَّن الحضور على الدعاء، وصلَّينا الجنازة بعد النداء، ثم حُمل النعش إلى مثواه مغادرا دار الابتلاء إلى دار الجزاء.

والحق أنَّ هذه الجنازة كانت أكثر عبرةً لي من جنازات أخرى شهدتُها؛ ذلك أنَّ لغةَ اللسان صمتَت وخرَصت، ثم تركت المساحة شاسعة للغة الوجدان، فرقَّ القلب، ودمعت العين، واستُذكرت الآيات القرآنية العظيمة، والأحاديث النبوية الشريفة، بعضُها مما تلاه الواعظ، وبعضها مما لازم مثل هذه المواعظ:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(آل عمران:١٨٥).

- ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر:٤٢).

- ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ (الرحمن:٢٦، ٢٧).

ولقد شدَّ انتباهي تكريرُ الإمام قبل الصلاة حديثَ الرسول الكريم، مخاطبا المستمعين: "عش ما شئت فإنَّك ميت"، ذكره مرارا، وبنبرات

مختلفة، ثم شرحه، وفصَّله، فأطال فيه؛ وهو في الأصل وصية من جبريل عليه السلام، أوصى بها نبينا الكريم، ثم إنه عليه الصلاة والسلام أوصانا بها، وها نحن نتواصى بها في كلِّ يوم إلى يوم الدين... قال جبريل: "يا محمد، عِش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واجمع ما شئت فإنك تاركه، واعمل ما شئت فإنك مجازىً به، واعلم أنَّ شرف الإنسان قيامه بالليل، وعزَّه استغناؤه عن الناس".

* * *

الصلاة هي ذات الصلاة، في القسطنطينية أو في مكَّة، في إيران أو في طيطوان... أربع تكبيرات، وتلاوة للفاتحة، ودعاء... ولقد جال بخاطري عقبها سيل من الملاحظات والتصويبات:

• منها أنني لو كنتُ -لا قدَّر الله- رهينَ الانتماء المذهبيّ الإقصائيّ، لما اعتقدتُ إمكان أن يكون الهالك في رحمة الله، ذلك أنَّ العصبية المذهبية[1] حملت بعض الحركات، وبعض الجهات، وبعض الجماعات، إلى الاستئثار برحمة الله، ودفعتهم إلى احتكار رضا الله، وأغرتهم بأنهم هم وحدهم وارثو الجنان، أمَّا من خالفهم فهو من المبعَدين، مهما ارتقى في سلَّم الإسلام والإيمان.

ألا لعنة الله على ضيق الأفق...

ألا لعنة الله على التعصُّب والتحجُّر...

• ثم إنَّ الإسلام -بحمد الله- ونحن في مدينة الإسلام ليس محلِّي النزعة، ولا قرويَ المشرب... الإسلام لم يختصَّ بقبيلة، أو عرق، أو

١ انظر: المذهبية فقه لا عصبية"، فصل "مشكلتا التصنيف والحد الفاصل"، من هذا الكتاب.

فئة دون أخرى... الإسلام دين عالميُّ اللُّحمة، كونيُّ الوجهة: ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، ﴿كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(سبأ:٢٨)... شاء من شاء، وأبى من أبى... ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ...﴾ (الإسراء:١٠٠).

بهذا المنطق القرآني المتعالي، كان محمَّد الفاتح ﷺ قائدا مسلما، وكان بديع الزمان النورسي عالما مسلما، ولا يزال فتح الله كولن مجدِّدا مسلما... فهُم جميعا إخوة لأمراء وعلماء ومجدِّدين مسلمين من الجزيرة ومصر، ومن الجزائر وعمان، ومن كازخستان والهند، أو حتى من أمريكا وأوروبا... من العالم كلِّه، ومن الأرض قاطبة... حقا: "الإسلام رحم بين أهله"، "والحق رحم بين أهله"...

* * *

ومما استذكرتُ دبر الصلاة أولئكم الناس الذين يسافرون إلى شتى البلاد، ولا يغادرون فيها الثلاثي المعتاد: السوق، والفندق، والمتحف... هذا إن زاروا المتحف.

فلا هم يتعرَّفون على الناس، ولا هم يَغشون المساجد، ولا هم يعتبرون أو يتعلَّمون؛ ولا يهرولون إلى جامعة، أو إلى عالِم، أو مكتبة، أو دائرة للحوار...

وبعض الناس لا يعرف من البلاد إلاَّ معالمها السياحية، ثم يسَّارع إلى الحكم عليها بشتَّى أشكال الحكم القاسية، وقد يُخرجها -ظلما وزورا- من ربقة الإسلام؛ والحالُ أنَّه هو الذي يصطاد في الماء العكر، فلو صفى معدِنه لصفى مورده ومصدره... ولله في خلقه شؤون.

* * *

أسدَلَ مشهدُ الجنازة ستاره، وعاد الحضور إلى بيوتهم... إلى حين، وقصدتُ منزلي... إلى أجل؛ لا أعرف من بينهم أحدا، ولا يعرفني أحد؛ لكنني تيقَّنت أنهم إخوة لي في الملَّة، ودعوتُ الله لهم بالتوبة والمغفرة والرضوان، راجيا أنهم دعوا الله لي بالتوفيق والهداية والجنان... جمعَنا الله في رحمته يوم لقائه، وجمع بيننا في جنة الخلد إخوانا على سرر متقابلين، ويومها سنتعارف أكثر، وسنتذكَّر أمسيةَ مدينةِ الإسلام، ونحمد الله على هذه الجنازة وعلى هذا الحدث...

مقالات فاتح القسطنطينية/ ٣

"كِركْلاَرْأَلِي": قرية آوت ونصرت

إنَّه العشُّ الذي آوى عصفورا مبلَّلا، فقَدَ -فجأة وبلا سابق إنذار- الحضنَ الحاضن، وعدِم الحصن الحصين؛ وألفى روحَه المرهفة الليِّنة الرقيقة تُصارع أعتى العواصف والإعصارات، في بدايات ليل بهيم، لـمَّا تبدُ أمارات الفجر الصادق في أفقه بعدُ... فيا ويح العصفور ليلتَها، ذلك الذي أحدق به الخطر؛ ويا سعد العشِّ يومها، ذلكم الذي آوى ونصر...

بل إنَّ عصفورنا كان في تلك الحال، على حدِّ ما جاء في "ألوان وظلال":

"حمامةً بيضاء كالثلج،

رقيقة وادعة كالزهر،

وحولها شرٌّ وأشرار،

ومخلب وناب،

فيا ويل الحمام،

من نيوب كالمنشار..."(ألوان وظلال، ص١١٤).

لكنَّ الله فتح أمام ناظرَي الحمامة المسكينة "طِيبةً جديدة"، فكان لها موعد مع "يثرب الجديدة"؛ وكأنَّ أهلَها قد سمعوا همسات الرسول الكريم ﷺ، وهي تنفث في روع الأنصار: "أيُرضيكم أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون أنتم برسول الله".

التفتَ أهل "كِرْكْلاَرْأَلِي" إلى بعضهم، آحادُهم وزرافاتهم، وتفاءلوا خيرا، فاعتبروا قريتهم "طيبةَ العصر"، وهي التي آوت فتح الله، بعد محن "أدرنة" الهوجاء...

وفتحُ الله طالب مجدٌّ في قسم من أقسام رسول الله العظيم... فما بال الزمان الذي امتحن المعلِّم لا يمتحن تلميذه، ولو بعد حين؟

* * *

على متن سيارة مريحة، بجوار رفقة طيّبة، حملني الأُنس[1] إلى ربوع "كِرْكْلاَرْأَلِي" (kırklareli)؛ حالِما بساعات أقضّيها على أرض القرية التي آوت ونصرت، قرية يصعب نطق اسمها على العربيّ، كما صعُب فهم كنهها على الأجنبيّ: هي سرٌّ من أسرار تركيا العجيبة، موقعُها غرب البلد على بعد كيلومترات من "بلغاريا"، التي كان بينها وبين الجارة ما بين الجار وجاره، من أوجُه شبه أحيانا، ومن حزازات أحيانا، ومن تأثير وتأثر دائما وأبدا.

إنها قرية تقع على حدِّ من حدود جغرافية الإسلام، إنها ناصية ناصعة

١ كنت رفقة الأستاذ الكريم أنس أركنه، صاحب كتاب: "فتح الله كولن، جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"... وأصله من هذه المنطقة.

في "جسم الإسلام"، إنها جبينه الواسع العريض؛ فهي تارة تلتفت نحو الجنوب فتجابه حضارة "اليونان" بما فيها وبمن فيها، وهي أخرى ترنو إلى الشمال فتقف أمام لون أحمر قاتم،[1] ملأ الدنيا لعقود، فصُبغ من صُبغ، ونجا من نجا، ثم غادر وقد ترك "آثار الدم القاني، ملطِّخا الظاهر والباطن، وذاهبا بروعة المظهر والمشهد، وبروع المخبر والمحتد"...

"كِرْكْلاَرْأَلِي" لمن يدخلها أوَّل مرَّة مِثلي، تشبه جنديًّا لم ينضُ ثوب الحرب عنه، فهي قلعة عسكرية منذ القدم، ثم ما لبثت أن تحوَّلت إلى مأوى جديد للاَجئي البلقان من إخواننا البوسنيين الأطهار، يوم اكتووا بشرٍّ لا يُطاق، ويوم وقفَ العالم كلُّه متفرِّجا أمام مجزرة كانت وستبقى عارا وشنارا على جبين العصر والديقراطية، وعلى مسلمي هذا الزمان، وعلى النظامِ الدولي، والمؤسَّسات العالمية...

* * *

لمدينة "كِرْكْلاَرْأَلِي" سحرٌ خاص، فأهلها غايةٌ في البساطة والرقَّة ورهافة الحس، بل والعفويةِ والهدوء، وسرعةِ البداهة... ليسَ بينهم غريب... فمَن نزل بينهم صار منهم قبل أن يرتدَّ إليه طرفُه، ولا تعرفُ الوحشةُ إلى قلب نزيلها مَسلكا... وقريتنا في هذا ذات شبه آخرَ بالمدينة المنوَّرة، ويثرب الخير، وطِيبة الطيبة.

آوت القريةُ ونصرت مرَّات ومرَّات، ولكنَّ التاريخ المعاصِر سجَّل لها يومين من أيام الله:

يوم آوت فتح الله، ويوم آوت لاجئي "البوسنة"...

فإن كنَّا قد أشرنا إلى اليوم الثاني، فإنَّ الأوَّل كان يومَ اصطلى الأستاذ

---

١ إشارة إلى الشيوعية.

فتح الله بنار "أدرنة"، ونال منها نزرا مما نال المصطفى ﷺ بالطائف... فكان لأهلها فضلُ الأنصار وأجرُهم، ولقد وجد الرائدُ فتح الله مِن بين أهلها شبابا كالصخور، ورجالا كالصقور، لا يخافون الموت، ولا يخشون المهالك، شبابا يعشقون التحديات والمغامرات... إلاَّ أن يبلغوا الذروة أو يهلكوا دونها... لكنَّ هؤلاء افتقدوا مَن يرسم لهم خطَّ المسير، إنهم لم يُرزقوا من يحدِّد لهم الأهداف الدقيقة، ويصلها بالغايات العميقة...

فجاء فتح الله على قَدَر...

* * *

سُرعان ما اكتشف فتحُ الله هذا السر، فشمَّر عن ساعد الجد، وأسَّس مِن بينهم ثلَّة من الشباب الربَّاني المحمَّدي، وجنَّدهم للخدمة، وأخلصهم لزرع الخير، فكانوا له طيِّعين كموسى للخضر، عليهما السلام، يوم قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(الكهف:٦٩).

ولعلَّ هؤلاء أحيانا قد خالفوا وعدهم ولم يصبِروا، ولكن أنَّى لهم أن يصبروا وما صبر نبي الله موسى، وهو مِن أولي العزم، فالقاعدة التي لا تتخلَّف إلى أبد الأمد، يختصرها قول الحكيم بإذن من ربِّه العليم: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾(الكهف:٦٧-٦٨)...

ولكن، ما أضرَّ موسى نفادُ صبره، ولن يضرَّ أهلَ "كِرْكْلاَرْأَلِي" نفادُ صبرهم... وما كلُّ الناس يدرك أسباب الأمور، ولا أسباب أسباب الأمور...

وقد كان فتح الله، عازما لمنظومة أسبابٍ تضع الحجر الأساس لنهضة جديدة في تركيا والعالم الإسلامي أجمع، وما "كِرْكْلاَرْأَلِي" إلاَّ محطَّة من محطَّاتها، ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة...

* * *

وما كنتُ حاضرا يوم غادر فتحُ الله القرية، بعد ستَّة أشهر من المكث تحت ظلالها، وذلك يوم الجمعة الحادي عشر من مارس سنة ١٩٦٦م... أصلا لم أولد بعدُ، ولعلّي كنت يومَها جنينا في بطن أمّي؛ لكنني على يقين أنَّ القلوب بلغت الحناجر، وأنَّ الدموع سقت التلال والوهاد، وأنَّ الحزن خيَّم على الربوع، فأحالها إلى ما يشبه "المأثم"، وحين الشدِّ والفراق والمحن تُبلى الأنفس، وتظهر الطباع، ولقد ظهرت طباع بعض الناس، ممن ظنَّ أنَّ فتح الله صار -للأبد- حظَّ "كِرْكْلاَرْأَلِي"، ولم يظنَّ يوما أنه سيغادرها إلى "إزمير"، أو إلى مطار الخدمة ومصعدها، كما يحلو لي أن ألقبها.

غادر فتح الله، بُعيد صلاة الجمعة، وما غدَر... لكنه، صابر وصبر...

ولم تكن المغادرة بأيسر عليه منهم، ولكنَّه تجلَّد ولم يُرهم من نفسه ضعفا؛ حتى لا يضعُفوا، ولا يرتبطوا بالشخص، بل بالفكرة... على وقع: "من كان يتبع فتح الله ففتح الله ذاهب، ومن كان يسير على نهج الخدمة فالخدمة باقية إلى يوم الدين..."

* * *

ما إن وصلنا "كِرْكْلاَرْأَلِي" قبيل المغرب بقليل، حتى كنَّا على موعد للعشاء بالكفتة مع ثلَّة من الشباب والأئمة، ولقد قيل لنا: "مَن دخل "كِرْكْلاَرْأَلِي" ولم يأكل كفتة، كمن وصل ماء زمزم ولم يرتو". ثم صلَّينا في مسجد صغير قديم. وبعدها أوينا إلى مقهى رحب، وبه عقدنا "مجلسَ صُحبةٍ"، جمعَ القلوب إلى بعضها، والألسنُ مختلفةٌ، لولا أنَّ الخبير "أنس" آنسنا بالترجمة الفورية، فزاد لمجلسنا روعة إلى روعته... وقلت حينها: "ما أعظم ديننا، فهو الجامع، حتى وإن اختلف كل شيء: الأعراق،

والألوان، واللغات، والأعمار، والبلاد، والمستويات...".

حملَنا الحديث إلى الجزائر في العهد العثماني، يومَ قال أبو عبيد الله الزوواي لعرُّوج مستنجدا به ضدَّ العدو الكافر من الإسبان: "الجزائر لك، أو لأخيك، أو للذئب" فاستجاب وحملَ الراية، ودحر الشرك...

ثم عادت سفينةُ الحوار في مجلسنا إلى "سعة الأفق"، وإلى "رسالة المسلم في هذا العصر"، وإلى "وجوب التلاقي والتفكير الإيجابي المشترك، بعيدا عن منظومة الإعلام المزيَّفة"... إلى أن حطَّت بنا "طائرة الكلام" عند الشاعر نجيب فاضل، ذاك الذي كتب يوم استقلَّت الجزائر قصيدة رائعة بعنوان: "خيل الجزائر"... واطَّلعتُ عليها بعد أيام في مكتب صديقي الكريم أنس، وهي بالتركية غير مترجمة...

ولقد تساءلت حينها: لماذا نجيب فاضل بالذات؟

وعلمتُ من فريد الأنصاري -رحمه الله- أنَّ الشاب فتح الله يوم تولى الإمامةَ في القرية الصغيرة "كِرْكْلاَرْأَلِي"، استدعى الشاعرَ نجيب فاضل، وما كان في الحسبان أن يستجيب، وهو حينها نجمٌ في سماء تركيا، تقصُر عن أفقه مدن كبرى مثل "أنقرة" و"إزمير" و"أدرنة"، فما بال القرية النائية البعيدة تدلي بدولها مع الدلاء، وترسل رسالة دعوة إلى الشاعر الكبير، وهي موقنة أنَّ طلبها لن يتحقَّق، إلاَّ بمعجزة، وعصرُ المعجزات قد ولى؟

يقول الأنصاري: "فأن يحلَّ الأستاذ نجيب فاضل بـ"كِرْكْلاَرْأَلِي" ضيفا على فتح الله، وهو الداعية الشاب المطارَد في كلِّ مكان، له أكثر من دلالة"، ويمكن أن نضيف كذلك: "أن يحلَّ الشاعر على هذه القرية المباركة، أمرٌ له أكثر من دلالة..."

يقول الأنصاري واصفا تلك اللحظات السعيدة بأدبه الجم: "في تلك الليلة التفَّ الشباب حول نجيب فاضل ببيت أحدهم، واجتمعوا معه في العَشاء جميعا على مائدة واحدة... وهنالك اكتشفَ نجيب فاضل عن قربٍ الداعيةَ الشاب فتح الله كولن... كان الشاعر الروائي يقرأ في وجه فتح الله رواية درامية، سيكون لها أثر كبير في تغيير مجرى التاريخ".

* * *

ولن أنسى ما حييتُ تلكم الطُّرفة التي قصَّها الأنصاري يوم ودَّع الشاعر العبقري نجيب فاضل "كِرْكُلاَرْأَلِي"، إذ كانت بها جريدة صغيرة محلية -ضيقة الأفق- اسمها "آطَايُولُو" "وكانت تنشر مقالات ضدَّ الإمام فتح الله باستمرار.. ثم نشرت يوما مقالا ضدَّ الأستاذ نجيب فاضل -بعد زيارته-، فأرسل فتح الله نسخة من المقال للشاعر الكبير، فكان أن نشر الأستاذ نجيب بعدها في مجلة "الشرق الكبير" -الواسعة الأفق- صورة كاريكاتورية ساخرة، هي عبارة عن مشهد كلبٍ كبير ضخمِ الجثة، وإلى جانبه كلبٌ صغير جدًّا، وكتب تحت الكاريكاتور تعليقا ساخرا نصه: "نحن نواجه هذا الكبير، فمن أين ظهر هذا الصغير".

* * *

أمَّا نحن، فودَّعنا مجلس فتح الله ونجيب فاضل، وعُدنا إلى مجلسنا وصحبتنا، تدور بيننا كؤوس الشاي الأحمر، وفناجين القهوة التركية، حتى ناصَف الليل أو زاد عن النصف، وودَّعنا إخوةً لنا في أقاصي البلاد الإسلامية، إنهم ممن قال فيهم الحكيم: "ربَّ أخ لك لم تلده أمك"، نحسُّ سويا، ونفرح سويا، ونحزن سويا، ونفكر سويا، ونعمل سويا... حتى وإن طالت المسافة وبعُدت الشقة بيننا...

ودَّعت إخوتي وأنا ألعن ضيق الأفق بملء فمي: "لعن الله ضيق الأفق... لعن الله ضيق الأفق... لعن الله ضيق الأفق"، ذلك أنَّ ضيق الأفق يقتل المواهب، ويهدر الطاقات، ويوجد التربة الخصبة لميلاد "فراعنة صغار" و"مدَّعين كبار"... وما أكثر هؤلاء في بلاد الإسلام اليوم...

* * *

برهةً وجَّهت وجهتي شطرَ بلدي وموطني، وفكَّرت في أهلي وأقربائي، ودعوتُ الله لي ولهم بسعة الأفق، وبالتوفيق، وبالتمكين، فسميت هذا الدعاء "دعاء كِرْكُلاَرْأَلِي"، قلت فيه:

"اللّهمَّ وسِّع لنا في قلوبنا وعقولنا، كيما نستوعب الأرض والسماوات، وقد وسِعتنا رحمتك...اللهمَّ لا تُمت مواهبنا بالانتماءات الضيّقة... ولا تجعلنا ممن يهدر طاقات الأمَّة بالعصبيات الخانقة...

أرضُك يا ربِّ رحبة، وكونك أرحب... وروحي متشوِّفة للسياحة من طرف الكون إلى طرفه، عبر الملايير من السنوات الضوئية... اللهمَّ إنَّ همَّتي متوثِّبة إلى ما وراء الدنيا والعالَم الجسماني، إنها آملة في عطائك ورحمتك، طامعة في رضاك وجوارك...

اللهمَّ أعط كلَّ واحد من أهلي وإخوتي، وكلَّ واحد من المسلمين، سؤله وطلبه، ورضِّه وأرضه، ووسِّع في مداركه ومدارجه، وفي فلاته وفؤاده، وفي عقله وعلمه، وفي خلقه وأثره... آمين... آمين... يا ربَّ العالَمين".

مقالات فاتح القسطنطينية/ ٤

وقف الكتاب والصحفيين أو:
من إسلام القوة، إلى قوة الإسلام

مع مرور الوقت، وأثناء التأمُّل في النصوص التأسيسيَّة للإسلام، والنظرِ في حقيقة المسلمين عبر تاريخهم المشرق، ومقارنة ذلك بواقعهم اليومَ في عهد النكسة والنكبة؛ تأكَّد لي بما لا يدع مجالا للشكِّ، أنَّ الإسلام نزل للكبار، لا يفهمه إلاَّ الكبار، ولا يستطيعه إلاَّ الكبار...

نعم، اقتنعتُ أنَّ الإسلام لا يأبه بالصغار، ولا يعتني بالأصفار، ولا ينفعُ من آثر سُكنى الغار، وإضرامَ النار، وملازمة الفار...

فكلَّما أخلد إنسان، أو أمَّة، إلى الأرض، صار الإسلامُ أبعدَ عنه -عنها- من بُعد مشرق الكون عن مغربه؛ أي أنَّ الملايير من السنوات الضوئية تحول بين الإسلام الحقِّ وبين المتخلِّفين المنتكسين المرتكسين... فلا إسلام بلا قوَّة، ولا قوَّة بلا إسلام، هما وجهان لعملة واحدة، واسمان لحقيقة واحدة؛ دع عنك العملات المزوَّرة، والأسماء المحرَّفة... فاليوم وجب علينا أن نتحوَّل من "إسلام القوة" إلى "قوة الإسلام" إيمانا بهذا البعد الحركي العالمي الحضاري لديننا الحنيف.

كان نبي الرحمة -وهو في أعلى مقام من مقامات قوَّة الإسلام- يحاور المشركين، والمنافقين، والملحدين، والمتمرّدين... ويدعو الجميع إلى الاحتماء بالدليل، والجدل بالبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾(البقرة:١١١)؛ بل إنَّ الحوار عند رسول الرحمة لا ينطلق من مبدأ: أنا على صواب، يقينًا... وأنت على خطأ، يقيناً! بل على قاعدة: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(سبأ:٢٤).

مِن هذه النافذة أطلَّ علينا "وقف الصحفيين والكتَّاب"؛ وهي مؤسَّسة خيرية، جمعوية، يدل عليها وصفُها بالوقف، ذات مقاييس عالمية عالية؛ أنشئت بتشجيع من الأستاذ فتح الله كولن سنة ١٩٩٤م، بل هو الذي خطَّ لها خطواتها الأولى بأناة، ورسم لها مخطَّط السير بروية؛ فكانت البداية من تركيا، وفي تركيا، لأجل تركيا؛ ثم ما لبثت أن صارت عالميةً بكلِّ المقاييس.

كان التشنُّج سيِّدَ الموقف في تركيا بداية الثمانينيات، وكان الناس يتقاتلون فيما بينهم، يقتل الواحد منهم الآخر لمجرَّد كونه من الجهة الأخرى، حتى إنَّ الناس لا يخرجون من بيوتهم ليلا، وإذا صادف أن خرج أحد فإنَّ احتمال أن يُغتالَ أو يؤذى قائم وممكن؛ وهنالك تأمَّل الأستاذُ في الحال والمآل، فرأى أنَّ المثقفين والكتَّاب والصحفيين والسياسيين... وكلَّ من له أتباع ومستمعون ومهتمون، هو الأصل في المسألة، فإن تسامحوا تسامح الناس، وإن تناحروا تناحر الناس، ووجد أنَّ الإسلام هو دين السلم والسلام، بلا منازعٍ، وأنه دين الرحمة والمرحمة، بلا مثيلٍ، بل هو دين التواصي بالصبر والحبِّ... فشرَع هو نفسُه في محاورة كلِّ الجهات، حتى التي يبدو أوَّل وهلة أنَّها أعتى أعداء الإسلام والمسلمين، فكان يزورهم ويدعوهم لزيارته، ويدعو الناس في الخدمة إلى كسب قلوب كلِّ من يعرفونه من أبناء البلد، مهما كان دينهم، وحزبهم، وإيديولوجيتهم، وسلوكهم... يقول مدير المركز: "علَّم الأستاذُ كلَّ واحد

منَّا أن يعتزَّ بإسلامه، ويثق في دينه، ويخلص في عبادته، ويحاور كلَّ أحد، بلا استثناء". وكان يقول لنا: "إذا مرض أحد ممن تختلفون معه، فيجب أن تزوروه في المستشفى، حتى إذا فتح عينه لم يجد سوى أهله وأنتم... هكذا كان رسول الرحمة يفعل".

ولقد استجابت لدعوة الحوار كلُّ الجهات، مِن أعلاها إلى أدناها، وشارك فيه أكبر أسماء البلد، إذ كانوا جميعا مبهورين من كونه جاء مِن "عالم دين"، ومصطلح "عالم الدين" له دلالة تقليدية سكونية، لا حضارية ولا حركية، غير أنَّ كولن خالف النموذج المعتاد، وغيَّر البراديم الكلاسيكي، وأظهر شكلا جديدا، غير مألوف في تركيا يومها، للعالِم المسلم، بما آتاه الله من مواهب فطرية، ومن قدرات علمية، ومن آفاق معرفية، ومن رؤى مستقبلية...

اليوم، على إثر هذه البدايات تأسَّس وقف الكتَّاب والصحفيين، وهو يحوي سبعة منتديات تعنى بالحوار، هي:

- منتدى "أبانت" (Abant platform) وهو منتدى عالمي للحوار بين الحضارات، وبين الديانات، وبين التيارات الكبرى... وقد نظَّم الكثير من الملتقيات العالمية، من أرواسيا إلى أمريكا... إلى الكثير من مناطق الصراع في العالم.

- منتدى الفنِّ والثقافة (Culture and art platform): يشارك فيه أكبر المثقفين والفنانين، والشخصيات الشهيرة، من أمثال لاعبي كرة القدم، والمغنين... أي كلُّ من له شعبية في مجال الإعلام، ويتناقشون قضايا التسامح، والحوار، وغرس قيم الحبِّ، والصداقة، والمعاشرة الحسنة، ونبذ سلوك العنف والإقصاء والتصادم... الذي يودي بالبلد إلى المهالك لا محالة.

- منتدى الصحفيين (Medialog platform): وهو خاص بالصحفيين من كلِّ وسائل الإعلام، ومن كلِّ الاتجاهات، يطوِّرون فيما بينهم أسلوبا صحفيا هادئا مسؤولا، ويزيلون فتائل الجدل الخانق، ويهجُرون أسلوب التعبير والشتم والسبِّ غير المبرَّر، وكلَّ ما يشوِّش على القيم والأخلاق وعلاقات المواطنة...

- منتدى حوار الأديان والثقافات (Intercultural dialog platform): وهو شبيه بمنتدى "أبانت"، لكنه يهتمُّ بداخل تركيا، وينظِّم حوارات بين المسلمين والمسيحيين، وبين المسلمين والموسَويين، وبين المسلمين فيما بينهم، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم... ويزيل الوهم والتهمة التي تقول: "وراء كلِّ فتنة وعنف في العالم تقف الديانة سببا"، بل يُظهر أنَّ الدين بريء من هذا، وإنما المصالح السياسية، والحسابات الضيقة، والفهم الخاطئ، هو السبب والدافع والباعث لكلِّ عنف وشدَّة.

- منتدى المرأة (Women's platform): للحوار بين النساء، من مختلف المشارب والمضارب، حول اهتماماتهنَّ، بعيدا عن الادعاءات، والحسابات الضيقة، وبذلك يمنعن توظيف المرأة كشعارات ذات حساسية مرهفة وبالغة، من قبِل المغرضين والفتانين...

- منتدى البحث العلمي (Research platform): وهو منتدى للبحث العلمي، والطروحات النظرية والفكرية والعلمية العميقة، وهنا تتمُّ مناقشتها بدون خلفيات إيديولوجية أو حسابات لا أخلاقية.

- منتدى أوراسيا (platform Eurasia): وهو منتدى يدور حول قضايا أوراسيا (روسيا، وبيلوروسيا، وكازاخستان، وقرغيزيا، وطاجيكستان، وأوزبكستان)، ويشارك فيه أبناء هذه البلاد؛ يُسهمون في نزع فتيل الخلاف

بين أبناء الأرض الواحدة، والتاريخ الواحد، والحضارة الواحدة؛ لصالح نموهم ورقيهم، ولأجل وضع أكثر سلاما وأمنا وتقبلا للآخر.

ولقد أصدر "وقف الصحافيين والكتاب" العشرات من الكتب والمؤلفات، بمختلف اللغات، كما أنَّه يُصدر مجلات دورية وشهرية، حول قضايا الحوار، بالتركية والانجليزية، راقية الإعداد والطبع، وواسعة النشر والتوزيع.

وقد أنشئ حديثا "مركز بحوث فتح الله كولن"، ضمن الوقف، وهو المسؤول عن البحث، وعن تنظيم مؤتمرات عالمية، لمناقشة فكر الأستاذ كولن، فقد نظَّم ملتقيات في أرقى الجامعات العالمية: في أمريكا، وروسيا، والسويد، وألمانيا... وغيرها. أمَّا عن الملتقيات المنظَّمة في العالم العربي -مصر، اليمن، الأردن...- فهي بإشراف مجلَّة "حراء" الغراء.

ولقد كان سؤالي لمدير المركز الدكتور فاروق عن مدى الاستفادة من هذه الروح أولا، ومن الفكرة ثانية، ومن المؤسَّسة ثالثا، ومن الخبرة رابعا...وخامسا، وسادسا... فكان الجواب أنَّ "قلوبنا وعقولنا مفتوحة لاحتضان أيِّ تعاون في هذا الشأن، من مثل استقبال أساتذة من العالم العربي، أو عقد منتديات حوار على هذا الأساس في أيِّ بلد عربي...". لكن ثمَّة حساسية وصعوبة، لم يُخفها المسؤول عن المركز في شأن البلاد العربية.

* * *

هكذا، يكون الإسلام: مبادئُ كبرى، تجد أفعالا كبرى، من رجال كبار، وبالتالي تحقِّق إنجازات لا حدَّ لها، وتنشر خيرا عميما لا مثيل له، فيصير المسلم في عالَم اليوم هو مَن يقود قاطرة الحضارات، ولا يبقى في

ذيل الأمم والمدنيات، يلهث وراء السراب، يلعق دماءه وجراحاته، ويثير الشفقة عند القريب، ويستوفز الشماتة عند البعيد...

الإسلام حضارة، والإسلام عمارة، والإسلام حركية وفكر، وعلم وعمل، وتخطيط وتنفيذ، وإبداع وريادة... هكذا لنكن، أو لا نكون... أمَّا ديننا فهو أعظم، وأرحب، وأوسع... وصدق الله العظيم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣).

مقالات فاتح القسطنطينية/ ٥

"زمان" و"جيهان" حين يصير الإعلام نظيفا...

ارتبط اسم الإعلام عبر العالَم، مشرقا ومغربا، بالقذارة، والفساد، والعداء للقيم، ونشرِ الرذائل، والاستثمار في الفضائح والأعراض، والجري وراء السبق الصحفيِّ المربح، حتى ولو كان كاذبا؛ وقلَّما تتمُّ مراقبة ما يأتي في الإعلام من معلومات وأحكام، فهي مثل نهر جارف، يُهلك الحرث والنسل، ولا يحاسبُه أحد...

مِن أجل ذلك تتخذه الجهات النافذة، والأطراف المتحكِّمة، والأنامل المحرِّكة "لماريونات الشعوب"... تتخذه وسيلة لتحقيق مآربها، مستثمرةً بذلك في سفاهة الناس، على شاكلة فرعون الذي ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾(الزخرف:٥٤)، غافلين -حتى وإن كانوا من المسلمين أحيانا- عن تحذيره تعالى من الشياطين وغواياتهم، بقوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ

اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾(الروم:٦٠)، والاستخفاف كما في أدبيات التفسير وأصول اللغة العربية هو: "الاستفزاز، وحمل العقول على الخفَّة"، لكن لا يكون الاستخاف إلاَّ إذا كانت لدى المستخَفِّ بهم "قابلية للاستخفاف"...

"زمان" و"جيهان"، مؤسَّستان إعلاميتان خارج المألوف، ذلك أنهما تضربان بجذورهما في أرض القيم والأخلاق والمسؤولية الشرعية، قبل المسؤولية القانونية، والذي كان له الفضل في التأسيس هو المفكِّر الكبير، صاحب المشروع الحضاري المتميز "الأستاذ محمد فتح الله كولن".

ما إن سألنا مدير الوكالة عن الفرق بين هذه وغيرها من مؤسسات الإعلامية العالمية، حتى أجاب، وبوضوح: "عادة ما لا تجتمع القيم مع الاحترافية، فإذا ما كانت المؤسَّسة محترفة جدًّا فقدت القيم، وإذا ما كانت ذات بعد قيميّ، كانت ضعيفةً وهزيلة في مستواها الاحترافي، أمَّا ما نحن عليه فهو الجمع بين الاثنين، والإسلام أساسا جاء ليحقق الجمع بينهما".

جريدة "زمان"، جريدة يومية، تصدر بدايةً باللغة التركية، وهي الآن تصدر ورقيا بالانجليزية، ورقميًّا بالعديد من اللغات، منها الألمانية والفرنسية...؛ هي الأولى في تركيا، وتطبع يوميا حوالي مليون نسخة، تباع في العديد من النقاط عبر العالم، ولقد شاركت في مسابقات عالمية للتصميم والعمل الصحفي وفازت بأعلى الجوائز... لها مطابعها الخاصة بها، وتُصدر مجلَّة أسبوعية تابعة، هي مجلة "أكسيون"...

البناية غاية في الإبداع والجمالية، زُجاجية مفتوحة، ذات سبعة طوابق، لها بهو كبير، يشرف على كلِّ الطوابق، وكلُّ شيء يسيَّر باللمسات الإلكترونية، ويعمل فيها المئاتُ من الموظفين، من الجنسين، من مختلف

بلاد العالم، وبمختلف اللغات، والتخصُّصات، والاهتمامات...

وفي سؤال: "ما هو حضور الأستاذ كولن في المشروع؟"

قال مدير الوكالة: "هو الأب المؤسِّس، وهو صاحب الفضل، وليس للجريدة عليه فضل، فثقة الناس فيه، وتوجيهاته الحكيمة، هما سبب النجاح والتميُّز، وفي كلِّ يوم جُمعة تصدر صفحةٌ خاصة بالأستاذ، تنشر فيها أفكاره وتوجيهاته، والأجوبة على الأسئلة التي تُطرح عليه، ونظراته في مختلف القضايا..."...

ولقد علمنا من بعض المقرَّبين، أنَّ الأستاذ يطالع كلَّ الأعداد، بعناية فائقة، ويوجِّه، ويصوِّب، وينصح... بلا ملل ولا كلل، فهو بمثابة الميزان القسط، والمرشد العدل... الذي يتخذ من الآية القرآنية، ومن سيرة المصطفى، ومن القيم السامية، مرجعا، وموئلا، وحكَما...

عِلمًا أنَّ الجريدة بدأت صغيرة بعشرة آلاف نسخة، ونمت طبيعيا، لكن بفضل الإيمان والصدق والتفاني، وبفضل الرؤية الواضحة للأستاذ، والخطِّ المتسامح والمتفائل الذي دعا إليه "البراديم كولن" تجد أنَّ القراء ليسوا جمعيا من توجُّه واحد، بل كل الأطياف في تركيا تتخذ الجريدة مصدرَها الموثوق، بل والكثير من الجهات الرسمية تعتمد عليها، وتستند إليها، واثقة من صدقها.

والجريدة تنأى عن كلِّ ظنَّة في أحد، أو خدش للعرض، أو حتى قبولٍ أو رفضٍ بناءً على الانتماء... فإن أصابت جهةٌ ما، مهما كانت، ساندت الجريدةُ هذا الصواب، ودافعت عنه، وباركته؛ وإن أخطأت جهةٌ ما، مهما كان مصدرها، نقدت الجريدة هذا الخطأ، ولا تبالي... فليس للجريدة مصلحة، إلاَّ مصلحة القيم والصدق والسلم، بل وروح الإسلام.

قد يبدو فيما أقوله -لدى البعض- نوعٌ من المبالغة، لكن ليس ما ذكرته رأيي أنا لوحدي، وإنما هو رأي الآلاف من الزوار للجريدة، ومن القرَّاء، بل إنَّ النصوص متوفرة في "النت"،[1] والجريدة تطبع يوميا، ولمن أراد أن يستقل برأيه وحكمه فليفعل ذلك دون حائل؛ إذ ليس الإعلام ممَّا يخفى على أحد...

أمَّا وكالة "جيهان"، فهي وكالة أنباء، ذات سيط عالمي، تزوِّد "زمان" وغيرَها بالجديد، وتصنع الأخبار بما تملك من قدرات فائقة في كامل أرجاء تركيا، وفي الكثير من النقاط عبر العالم؛ والجميل فيها أنَّ فيها قسما عربيا، ولها اهتمام بقضايا المسلمين، وبخاصة فلسطين وغزَّة، فكلُّ مظلمة يتعرَّض لها إنسان تدفع الوكالة للوقوف بجوار المظلوم... ولقد قادت المؤسَّستان حملة إغاثة لغزة، أوان حصارها، وساهمتا في جمع إعانات، وفي تنوير الرأي العامِّ؛ حتى لا يضلَّل، ولا يستخفَّ... فنجحتا في ذلك أيما نجاح.

كلُّ القنوات، والجرائد، والإذاعات، والجهات الرسمية، تستقي معلوماتها من "جيهان"، ولذا يزداد عليها الثقل، ويلزمها بالاحترافية، والصرامة، والوضوح... وهو ما هي عليه الآن، بحمد الله تعالى...

ويزور المؤسَّستين شهريا ما يزيد على أربعة آلاف زائر، من كلِّ بلاد العالم، فيُبدون إعجابهم بهذا الخير العميم، الذي هو أثر للفكر الإسلاميِّ الصحيح، بل ويعجبون من ذلك؛ لإنَّ الإسلام -للأسف- صار عندهم

---

١ الروابط: وكالة جيهان: http://www.cihanmedia.com
جريدة زمان: http://www.zaman.com.tr
زمان اليوم، بالإنجليزية: http://www.todayszaman.com/tz-web
زمان باللغة الفرنسية: http://www.zamanfrance.fr

مقرونا بالإرهاب، والهمجية... وما ذلك إلاَّ من زور الإعلام الظالم عبر العالمين الغربي والشرقي على السواء...

هكذا نجحت "زمان" و"جيهان" في صنع إعلام نظيف... أساسه قيم الإسلام، وشكله روح العصر، وهما بحقٍّ مفخرة للعالم كله، وللإسلام والمسلمين بالخصوص... والفرق شاسع بين من ينظِّر للإعلام الإسلامي، بلا دليل ولا ثمرة ولا نموذج، ومن انطلق من الأسس، وصنع المعجزات، بعيدا عن كثرة التنظير، والتعقيد، والتعليق...

مقالات فاتح القسطنطينية/ ٦

"فَمْ" لصناعة الإنسان

ليس من عادتي أن أخاطب في مقالاتي فئة معيَّنة، أو جهة بعينها، غير أنّي هذه المرَّة أتوجَّه بالخطاب إلى مَن آمن -ابتداءً- بالتعليم بديلا عن الشعارات، وبالتربية أساسا لكلِّ الانتصارات؛ ليس فقط، لكنَّه ما إن مرَّت عليه لحظات من التعب والرهق، وذاق الكثير من المعيقات والمعرقلات، حتى اهتزَّ إيمانه، وضعف جانبُه، فكثر شانؤوه؛ وراح يفكِّر ويقدِّر، ويسأل ويعيد، ويترجَّانا لعلَّنا نغيِّر الطريق من جديد، فنتوجَّه وجهة البرلمان، ونتَّخذ لنا -كما للناس جميعا- مرشَّحين ومنتخَبين، بُغية امتلاك قسط من السلطة، والحصول على حظنا من الُجبنة!

فلأُسمِّ هذا الشخص الافتراضي -غير الحقيقيَّ- "المستعجِل"...

ولأبدأ أولا بشكره، وبالتنويه بقدره؛ فهو صادق النية، صافي الطوية، يحبُّ الخير، ويعمل لنشر البرّ، لا يبطن شرًّا، ولا يخفي ضرًّا... فمعدنه طيب، ومحتده طاهر... بورك له، وبورك فيه...

غير أنَّ صديقنا "المستعجِل" من جهة أخرى، يفتقد الفهم الشموليَّ العميق، والرؤية التحليلية النافذة، والمخطَّط الاستراتيجيَّ البعيد؛ ورؤيتُه للمستقبل قصيرة ضيِّقة، لعلَّه -لسبب أو لآخر- أصيب بعاهة أو آفة، أو لعلَّ عينيه لم تألفا الجهد والاجتهاد منذ الصغر، أو لعلَّ الضباب تكثَّف من حوله، والمعمّيات تناثرت بين حاجبيه... لكنه، مع ذلك يبقى بريئا، لا له ولا عليه...

لمثل هذا "المستعجِل"، أو لمثل هؤلاء "المستعجِلين"، وقد أكون أنا واحدا منهم، أقول:

نعم، كان مشوار التربية والتعليم خيارا شاقًّا، لكنَّه لم يكن بإرادتنا، ذلك أنَّه يصدق فينا قول الجليل: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾(الأنفال:٧)؛ فوالله ما أريحَ الادعاء المنمَّق، والكلام المزوَّق، والحملاتِ الظرفية، والتكتيكات الحرفية... وما أيسر أن نملأ الدنيا "صراخا" ونعمُر الكون "مواءً" -حتى لا أقول نُباحا-، ذلك أنَّ "سوق الكلام" رائج في عصرنا، و"كلام السوق" ثمين في مَصرنا...

لكنَّنا، وهنا أخصُّ كلَّ مدير، ومعلِّم، وولي، وتلميذ... ممن كان معنا -أو كنَّا معه- في البداية، فربطْنا العقودَ، وأوثقنا العهود، وكنَّا -وكنتم جميعا- يومَها، واثقين من صعوبة المسلك، ووعورة الممرّ... ولا يزال الكثيرُ منكم مرابطا، رغم كلِّ الظروف؛ والبعضُ الآخر أفضُل حالا، يصنع

بكلتا يديه مناسباتٍ للانتصار؛ وقسمٌ ثالث آمن وصدَّق، فهو مجاهد بكلِّ المعايير، مرابط بجميع المقاييس... لكن مع ذلك، دونَ هؤلاء وأولئك مَن شكَّ -أو يشكُّ- كلَّما لقِينا من أمرنا نصبا وعنتا... وكأنَّه كان ينتظر من الطريق أن تُفرش حريرا، ومن السماء أن تمطر إبريزا، ومن القدَر أن لا يبتليهم ولا يبتلينا ولو مرَّة...

لكنَّنا... والخطاب لجميع هؤلاء وأولئك، بعد سنين، اكتشفنا مَن نحن، وإلى أين نحن سائرون، ولماذا اخترنا الدرس عوضا عن الكلام، والمدرسة بديلا عن المهرجان... نحن، اكتشفنا ذاتنا من خلال مشاريع "كولن التربوية"، ومن بينها، وهو موضوع هذا المقال: مدارس "فم" لصناعة الإنسان.

إنها مدارس تدعيمية للطلبة الذين هم على باب الجامعة، شُرع فيها منذ سنوات، وهي اليوم أفضل مأوى للطلبة الأتراك من كلِّ الفئات والجهات؛ وقد بلغ عددها في استانبول وحدها -حسب تصريح مديرها- تسعون مدرسة، كلُّ مدرسة -وقد شاهدنا بعضًا منها- بمثابة جامعة صغيرة، بعضها يأوي الآلاف من الطلبة، يحضنهم، ويربيهم، ويعلِّمهم كيف يتعلَّمون، وكيف ينبغي أن يتعلَّموا، ولماذا يتعلَّمون، وممن يتعلَّمون، ومتى يتعلَّمون، وإلى متى يتعلَّمون...

إنَّ مدارس "فام" تبدأ بما ينبغي أن يُبدأ به، يبدأون بـ"اقرأ باسم ربك..."؛ لكن، ليس بأسلوب الجدل العقيم والادعاء المُنيم، وإنما بمنهج "وليتلطَّف"، وبقاعدة "بالحكمة والموعظة الحسنة"؛ ولذا قد تجد في المدرسة الكثيرَ ممن لا يستسيغ الذوقُ سيرتهم، ولا يقبل الدين هيئتهم، ثم لا يلبثون بعد أمد، وقد تلقَّوا العلم والخلق والأسوة الحسنة،

أن يتحوَّلوا إلى حواريين عالِمين عامِلين، وإلى قيادات كونية صافية طاهرة نقية... يدعُون بلسان حالهم، معرِضين عن الدعوة -في هذه المرحلة- بلسان مقالهم!

والملفت للانتباه هو تلكم العلاقة الحميمية بين الأستاذ في "فام" وبين الطالب وأسرته، وللإخوة في هذا الفنّ إبداعات، وهل الطالب سوى شجرة نبتت في أرض العائلة، بذرت ببذرها، وسُقيت بمائها... فالبيت -كما يقول الأستاذ فتح الله- هو المحضن الذي تصنع فيه منطلقات الحضارة، ذلك أنَّ "البيت أمَّة صغيرة، والأمَّة بيت كبير. والشخص الذي ينجح في إدارة بيت -كبيراً كان أم صغيراً- إدارةً صحيحة، ويرتفع بأفراد ذلك البيت إلى المستوى الإنساني اللائق، يستطيع ببذل جهد صغير، القيام بإدارة مؤسسات أكبر إدارة ناجحة"(الموازين، ص١٤٧).

وأوَّل ما يكسب الأستاذُ من الطالب قلبَه لا عقله، عاطفتَه لا منطقه، ولذا تراه يحبّب إليه الخير، ويعلّمه أبسط أسرار الحياة، ويرفع من شأنه، ويكرم محيَّاه... ذلك أنَّ مَن اختار إهانة الطالب ليدفعه إلى العلم، ومن آثر الخشونة في جنب التلميذ، كيما يكسبه المعارف، مخطئ، مُسرف، ظالم، جاهل، بل ومبذِّر أحيانا... ولقد سئل العلمُ يوما: "مَن هو قرينك؟"، فأجاب بلا تردُّد: "الحبُّ والعشق؟"... فمن أحبَّ تعلَّم وعلَّم، ومن كره جهل وحمل الناس على الجهل... وهكذا القاعدة الصادقة المطلقة، التي لا تختلف أبدا!

* * *

أعود إلى ذاتنا، وأقول:

إنَّ طريق الحضارة الوحيد، هو طريق الرسل أجمعين، وطريقُ الأقطاب

الربانيين من بعدهم، إنه طريق التربية والتعليم، فإن نحن صبرنا -لا صبْر موسى مع الخضر، بل صبر الخضر لموسى، عليهما السلام- كانت الثمرة فجرا مشرقا نيرا مباركا، وإن نحن اتبعنا سبيل "المستعجِل" أو كنا نحن "المستعجلين"، فإنَّ السنين ستأكل السنين، والزمان سيلتهم الزمان، ثم لا نسمع جعجعة ولا نرى طحينا، أو لعلَّنا أحيانا نسمع ولا نرى؛ وأمَّا الطحين فسيكون بيد غيرنا، مِن صنع عدونا، وبطعم شانئينا، يطبخونه كيفما يريدون لأجيالنا، ويقدِّمونه في الصورة التي يودُّون... ثم يفعلون فينا، وفي أبنائنا، وفي أوطاننا... الأفاعيل، ولا نملك حينها طاقة، ولا إرادة، ولا حتى فكرة، لكيفية الخروج من المأزق، فنعيش طول العمر داخله، لا ككهف الفتية الذي نُشِر رحمةً ومرفقًا، لكن ككهف "بيكون" الذي أوى الأوهامَ والمغالطاتِ والخرافاتِ... مما سمي أوهام المسرح، وأوهام القبيلة، وأوهام الكهف، وأوهام السوق...

ولكل وهم من تلكم الأوهام -اليومَ في واقعنا- أمثلة ونماذج، ليس المقامُ مقام بسْطها، ولكن يكفي أن نجنِّب أمَّتنا ويلاتها، وتبعاتها، وشرورها... بالاعتناء بالتربية والتعليم، والصبر فيها، والمصابرة عليها...

وبالمناسبة أحيي كلَّ مخلص غيور، وكلَّ عامل صبور، وكلَّ شهم جسور... وأدعو الله أن يرزقه يومَ لقائه جوارَ المصطفى ﷺ، وسكنى الحور... وأكبر من ذلك كله وأغلى: "ورضوان من الله أكبر"... وذلك هو الفوز المبين.

مقالات فاتح القسطنطينية/ ٧

"جوشكن": مدارس من العالَم الملائكي!

منذ سنوات وأنا أسافر بين البلاد مثل هائم سائح يبحث عن "ليلاه"، فمِن ماليزيا إلى إيران، ومِن مصر إلى السودان، ومِن سورية إلى لبنان، ومِن كندا إلى عمَّان... وما بين رحلة ورحلة كانت تركيا العثمانية تلوِّح إليَّ بوجه فاتر، وعينين مغرورقتين، كأنها تقول: "لا يغرنَّك الحسنُ إذا لم يكن أصيلا، ولا يفتِننك المظهر ما لم تختبر خبايا القلوب وكوامن النفوس، ولا يسبينَّك الوجه حتى وإن خِلتَه أسيلا...!"

كان أغلب من يسافر إلى تركيا يكتفي بالاستمتاع بالمعالم التراثية، ويحبس خطواته ما بين "أياصوفيا" و"السلطان أحمد"، وبين "البوسفور" و"مارمارا"، ثم يشدُّ اهتمامه إلى بعض المنشآت الحضارية المعاصرة، ويعود إلى بلاده معجبا، متوجِّسا، حائرا... وقد تجمَّعت عنده المتناقضات جميعُها...

كنتُ كذلك، وبقيت إلى أمدٍ على تلك الحال، إلى أن شاء الله تعالى أن أكتشف، رفقة الإخوة الكرام في "معهد المناهج"، مصدرا جديداً، ونبعاً صافيًا، من خلال الإخوة الذين فتحوا أمامنا آفاقا واسعة رحبة لفهم تركيا على حقيقتها، ولإدراك الأمور بأصولها...

فعلمنا حينها أنَّ تركيا هي مستقبلُ الإسلام، وهي وعد الله في أرض الله ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الرَّحِيمُ﴾(الروم:٤-٥)، ولا يشكُّ مؤمن أنَّ سبيل الله تعالى لا يخلو من زعماء وقادةً، وجنودا وجيوشًا... سيتحقَّق النصرُ على يدهم؛ وأنَّ أيَّ اشتغال بالترَّهات، وأيَّ انشغال بالسخافات، هو تضييع لهذه الفرصة، ولا تنفع يومها الاعتبارات الانتمائية الضيقة الخانقة، وإنما هو الإسلام "رحمة للعالمين"، والدين الذي أنزل "للناس كافَّة"... فمن وسَّع فكره يسَّر الله له سبل التمكين، ومن ضيَّق أفقه أبعده الله عن أسباب النصر...

ولقد زُرنا العديد من الإنجازات الحضارية لتركيا الحديثة المباركة، بقيادة إمامها الحكيم "محمد فتح الله كولن"، الذي نوَّر الله بصيرته، وبعثه مجدِّدا لأمر الأمَّة والدين، ولقد أجمع على ذلك القاصي والداني، من المسلمين ومِن غير المسلمين، ولا يضرُّه -كما لا يضرُّ- "الخدمةَ" جهل بعض قصار النظر، بسيطي الفكر، ممن تبدأ الدنيا في ذواتهم المنغلقة، وتنتهي عند أطراف أنوفهم المجذوعة...

وهذه المرَّة شاء الله تعالى أن تحملنا الأقدار إلى مدارس "جوشكن" الراقية، رفقة إخوة لنا من شباب "الخدمة" الأطهار، ورفقة باحثين من المغرب الأقصى، فقد كان لنا موعد مسبق، مع المدير العام للمدارس... فكنا على الموعد بحمد الله وتوفيقه...

في مدارس "جوشكن"، الحلم الذي حلمنا به منذ عقود:

- بنايةٌ أشبه ما تكون ببنك دوليٍّ، أو وزارة للطاقة في أغنى الدول...

- طاقم استقبال ينقضُّ على قلبك فيكسِبه، قبل أن تلتقط آذانك بعض كلماته التي قد لا تفهم منها الكثير...

- نظافة، ونظام، وإبداع، وجمال، وأصالة... ثم فعالية، وحركية، ونشاط، وجدٌّ، ومثابرة...

قد تنتهي كلمات القاموس ولا تستوعب جميعَ ما تشاهده العين من إيجابيات، وقد يخرس اللسان بعد دقائق، ذلك أنَّ العين تُسكته، وتحمله على التواضع، وتريه مقامه الحقيقيَّ... وقد يعجز البنان، وينكسر اليراع، وهما يحاولان لملمة الألفاظ، وبناء فقرة أو نصٍّ يوصل للقارئ حقيقة ما شاهد...

جلسنا في قاعة الاستقبال، دخل السيد المدير، وجلس في موقعه، ثم سلَّم لنا المضيفون الشايَ وما يحوم حوله، وبدأ العرض على الشاشة بـ"الباوربانت"، بصورة سريعة واضحة دقيقة... وأوَّل ما بهرَنا دلالة "رمز المدرسة"، فهو وكأنه أربعة أرباع من زهرة، كلُّ ربع بلونٍ، قال السيد المدير: "أمَّا الأرباع الثلاثة الأولى، فهي التحضيريات والابتدائيات والكوليجات (متوسطة وثانوية بنظامنا)؛ وأمَّا الرابع فهو مخطَّط الجامعة، لـمَّا ننجزه بعد، وهو بإذن الله في برنامجنا!".

ولمجموعة "جوشكن" أربع ابتدائيات، وثانوية للإناث وأخرى للذكور، ومجموع التلاميذ هو ٣٦٠٠ طالب، يؤطِّرهم ٣٧٠ مدرِّسا، أي ما نسبته مدرِّس لعشرة تلاميذ؛ أمَّا عدد العمَّال الكلي فهو ٧٥٠ عاملا، من الإدارة إلى الحراسة... وما بين ذلك.

أمَّا المطبخ، والمقصَف المدرسي، وأعمالُ النظافة... فكلُّها بيَد شركات خاصَّة، متخصِّصة في هذه الأعمال، تعاقدت المدرسة معها، وهي تتمُّ مهمَّتها باحترافية لا نظير لها... وكذا، النقل، وما يترتب عنه. "كلُّ ذلك يمكِّننا -يقول السيد المدير- مِن التفرُّغ للعملية التربوية، خالصةً دون هموم أخرى هامشية!".

وهدفُ المدرسة هو: "سعادة الزبون، لا رضاه فقط"؛ وفي هذا الهدف

تظهر سمة الإخلاص لله تعالى،[1] ذلك أنَّ الزبون قد يَرضى، ولكنه لا يعرف "مصلحته" أو "ما يصلح به"؛ فهذا ليس هو الهدف؛ وإنما الهدف أن يكون "سعيدا هو وكلُّ العائلة"، بكلِّ مقاييس السعادة الكمية والكيفية...

ويراهن فريق "جوشكن" على معايير انتقاء الإدارة والمدرِّسين، فهي:

- معايير أكاديمية وعلمية أولا،
- ومعايير خلقية وسلوكية ثانيا؛

ولا يُستغنى عن معيارٍ لحسابِ آخر، بل كلُّ معيار هو الأهمُّ وهو أساس نجاح المشروع؛ فجدلية الكيف والكمّ، والمادة والروح، والدنيا والآخرة... هنا، في تركيا الحضارة، وفي "البراديم كولن" بالخصوص، ليست ثنائية إقصائيةً جدلية -كما في الكثير من البلاد الأخرى-... إذ المطلوب هو: الكفاءة والفعالية، معًا، بكلِّ المقاييس.

"وليس لدى الطاقم التربوي عندنا -يقول الأستاذ المدير- مدلولُ الدوام الكامل، أو العدد الساعي مقابل الأجرة... ذلك أنَّ كلَّ واحد مطالَب بتقديم أضعاف ما يقدِّمه قرينه في أيِّ مدرسة أخرى، من الصبر، والوقت، والحرص... وأغلبهم يعمل بحرَ اليوم، حتى الليل، ويعمل خلال العطلة... لا يحاسِب، ولا يطالِب، بل هو مسرور سعيد؛ لأنه -باختصار- في "الخدمة"، يؤدِّي ما أمره الله تعالى به، وما هو نافع للأمَّة والوطن والإنسانية...".

ولتكوين الإطار في "جوشكن" -وفي غيرها من مدارس الخدمة، مثل "فاتح"، و"برج"، و"فام"، "أنافن"...- قصَّة أخرى، ومكانة لا تقاوَم... فهو

---

١ قارن مع مبحث "الإخلاص"، ضمن باب "أسباب الرشد وموانعه"، الفصل الخامس من هذا الكتاب.

تكوين صارمٌ، متواصلٌ، جادٌّ... مؤسَّس على فكرة "الزُّمَر"، فكلُّ تخصص له زمرته: زمرة اللغة، وزمرة الرياضيات، وزمرة الأخلاق، وزمرة الفنِّ... الخ؛ ولكل زمرة -خارج الدوام- لقاءات تكوين أسبوعية، وبينهم وبين زمَر أخرى لقاءات تكوين شهرية، وبين زمر المقاطعة أيام عمل مغلقة مرَّة كلَّ سنة...

يقول السيد المدير: "نحن لا نخاف لجان التفتيش، والمراقبة من قِبل الدولة، بل بالعكس، نرحِّب بها، وهي جزء من عملية تطوير المنظومة العلمية للمؤسَّسة وللوطن؛ وقد استعار مثالا جيدا من التراث التركي للتعبير عن هذا -مع فارق- وهو قولهم: "وجود الصقر، ينمِّي مهارات العصفور!".

قلت في نفسي: "لكنَّ بعض الصقور، في أماكن أخرى، ليس لديها معيار أخلاقيٌّ، وهي ظالمة، جائرة... أمَّا هنا، فالصقور تخضع لقانون واضح... والحقُّ، أنَّنا نحن -كذلك- في الجزائر، وجدنا لجان التفتيش في وزارة التربية، متفهِّمة، واضحة... في أغلب الأحيان... ولله الحمد والمنَّة!".

أمَّا عن المقرَّرات والمناهج، فهي من تخصُّص مركز محترف، تابعٍ لمجموع مدارس "الخدمة"، ينتج أجود الكتب، وأفضل البرامج، وهي توزَّع حتى على مدارس الدولة، وعلى مدارس أخرى في الوطن... فالتخصُّص، والتفرُّغ، والعمل الجماعي، والاحترافية... كلُّها معايير كنا -ولا نزال ندافع عنها- هي هنا قد تحقَّقت على أرض الواقع، وكأننا في عالم ملائكي من نوع جديد!

وعن سؤال حول الهدف من التلميذ، أو: "كيف ترونه مستقبلا، وقد تخرَّج في مدارسكم؟"

أجاب السيد المدير: تلميذ "جوشكن" ينتظر منه أن يكون في المستقبل إن شاء الله:

- واثقا من نفسه.
- منسجما مع بيئته.
- متبنٍّ للقيم الإيجابية.
- مؤمنا بالقيم الإنسانية العامَّة.
- له رؤية شمولية.
- متقنا للغته الأم، وله لغة أجنبية قد تمكَّن فيها.
- يكسب معرفة تكونولوجية عالية.
- بارزا في رياضة واحدة على الأقل.
- له قدرة فنية ومهارة وموهبة في إحدى الفنون (للمدرسة خمس وثلاثون نوعا من النوادي الفنية والرياضية، فيها تنمَّى مهارات التلاميذ).
- متفوقا في التخصص الذي يختاره هو.
- وأولى من كلِّ ذلك: صاحبَ أخلاقية سامية (إيمانية، ربانية، وطنية، مدنية...)

كما أنَّ في كلِّ فصل من فصول السنة هدف عامٌّ لجميع المدرسة، وهدفٌ خاصٌّ لكلِّ تلميذ، يجب أن يتمَّ تحقيقه؛ ونتحاسب على أساسه... ونحن نعمل بمنهج "الذكاءات المتعدِّدة" في مسارنا العام.

وعن سؤال حول التمويل، أجاب السيد: "الحمد لله، فرجال الأعمال، والمنفقون، ذوو سخاء منقطع، وحرص على المشروع، قد يفوق حرص الطاقم التربوي، ولذا فهم سرٌّ من أسرار نجاحنا"

والدليل واضح، وهو "المجسَّم" الذي وُضع في المدخل، لمدرسةٍ تحت الإنجاز، بعشرات الهكتارات، وما يبنى منها هو خمس وثلاثون

ألف متر مربع... وهي أشبه بجامعة من جامعات أكبر الدول العالمية، "هذه سنشرع فيها السنة المقبلة، ونبدأ في بناء مدرسة أخرى أكبر منها، مباشرة بعد إتمام هذه..."

* * *

هنا، أتوقف عن الكتابة، وهنا أعلن أنَّ فرائصي ترتعد، وأنَّ أناملي لا تطاوعني، وأنَّ القلب ليتفطَّر، وأنَّ العينَ لتدمع... وأنا أدعو الله بدعاء، أسميه هذه المرَّة، دعاء "جوشكن" على شاكلة دعاء "الجوشن"، أقول فيه:

"اللهمَّ ربَّ السماوات السبع وما أظللن، وربَّ الأرضين السبع وما أقللن، وربَّ الشياطين وما أضللن... أسألك بكلِّ نسمة، وكلِّ ذرَّة، وكلِّ قطرة، وكلِّ غائبة في السماوات أو في الأرض، وبكلِّ ما نعلم وما لا نعلم... أن تيسِّر لنا أسباب التمكين، وتوفِّقنا لتربية الجيل على الدين المبين، وعلى الخلق المكين، وعلى القوة والنصرة والعزَّة، وكلِّ ما يرضيك، يا مُعين...

اللّهمَّ إنَّا نسألك في وطننا، وفي سائر بلاد المسلمين، مدارسَ ربانية، قرآنية، محمَّدية، كونية، حضارية، تُعيد للأمَّة مهابتها، وللدِّين مكانته، وتكون سببا لظهورنا على الكفَّار والمشركين، وعلى المنافقين والمتخاذلين... آمين.

اللّهمَّ وفِّقنا، ووفِّق مدارسنا، ومدرِّسينا، وعلمائنا، ومُحسنينا، وتجَّارنا، وطلبتنا، وولاة أمورنا... وكلِّ مَن يغار على دينك، ويرجو رضوانك... اللهمَّ وفِّق الجميعَ إلى إنشاء مدارس على شاكلة "جوشكن" و"فاتح" و"برج"...؛ وابعث من مَدارسنا العلميَّة -ومن غيرها- ما تقرُّ به أعيننا، ووفِّق القائمين عليها، والمجاهدين في سبيلها، والمرابطين في ثغورها،

إلى العلوّ بها مقامات عليَّة، وعوالـمَ ملائكيَّة...

اللّهمَّ أزِل الشحناء من قلوبنا، والأنانية من أفئدتنا، والاستعجال من عقولنا... يا أرحم الراحمين...اللهمَّ إنك تعلم ولا نعلم، رضينا ربَّنا بما قضيت لنا، إنك علاَّم الغيوب... والحمد لله ربِّ العالمين".

مقالات فاتح القسطنطينية/ ٨

طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!

بين يدي هذا المقال مسلَّماتٌ، أتوسَّل إلى قارئي الطيب أن يضعها نصب عينيه، حتى لا يحمّلني ما لا أحتمل، ولا يحمِل مقالتي غير محملها!

أولا: كلُّ ما أكتبه، في هذا المقال، وفي غيره، دافِعه الحرقة والهمُّ الذي يمزّق أحشائي، ويذيبني كمدا وأسفا، فليس في قلبي -بإذن الله- شرو نقير من التحقير، أو التعيير... والله على ما أقول شهيد.

ثانيا: أنَّني، غالبا، في مذكراتي حول العالَم، أتتبع النقاط الإيجابية في البلد الذي أزوره، وأجتهد في تصيُّد الإضاءات النيرة لأهل تلك البلاد؛ وهذا -طبعا- لا ينفي وجود ما يَشين، كما لا يبرّر تتبع السقطات والندبات، ولا يسوِّغ العيش في مواطن المزابل، ومعاطن الإبل... وأرى أنَّ ذكر الشرّ والتشهير به كثيرا ما يكون مدعاة للدعوة إليه، والاحتفاء به...

ثالثا: ما أورِده من نقائص عن بلدي، وعن وطني، وعن مَصري، وعن أهلي، وعن نفسي... هو من قبيل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء: ٢١٤)...

مبعثُه الحبُّ، والشفقة، والحرص على أن يبلغوا أعلى المراتب، ويبزُّوا أعتى المواكب.

رابعا: إنَّ الهدف من كلِّ سفر من أسفاري هو نصرة الخير والانتصار له، ومحاربة الشرِّ ونصب الحواجز في طريقه... ولذا أجدني أحمل عقلي معي، لا أزمُّه في حقيبتي، ولا أحنّطه بين الأسواق الشهيرة، ولا بين مرايا الحوانيت الكبيرة، فقد تحرّكني أدنى عبارة، وقد تهزُّني أصغرُ إشارة، فأنطلق منها للتعبير عن أوسع المعاني وأجمل المباني، الفنية والعلمية والتاريخية والحضارية...الخ. فإن وفّقت في ذلك فمن الله، وإن أخفقت فهذا ضعفي، أستغفر الله منه.

خامسا: إضافة إلى جميع تلك النقاط، فإنني هذه المرَّة حملت معي "المنظومة المعرفية الرشيدة" أحفر فيها، وأبحث لها عن تمثُّلات في الواقع، وأصوغ أسسها وأعيد، وفق "نموذج الرشد"، والذي أعرِّفه بأنه: "ذاتية اتباع الأسباب"؛ فأنا إذن أحاول أن لا أنظر في السطوح والسفوح، بل أغوص في الأعماق وأبتلي الأذواق؛ إنني باختصار، في رحلة تتبع الأسباب، مسترشدا بفعل ذي القرنين الذي آتاه الله من كلِّ شيء سببا "فاتَّبع -أو فأتبع- سببا"

سادسا: وأخيرا، إني أعتبر كلَّ حرف كتبته ونشرته، ثم قرأه قارئٌ، من أقصى العالم أو أدناه، صدقة ً أرجو ذخرها وبرَّها عند الله تعالى، ولذا أجد السعادة كلَّها كلَّما علمتُ أنَّ أحدا من الناس استفاد مما كتبتُ، وازداد علما وعملا، وبهذا أفهم قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾(سبأ:٣٩)؛ فـ"الشيء" في هذه الآية واسع الدلالة، منه إن شاء الله ما أكتبه، وكذا "فهو"، عوض "فالله"، لقرب الأجر والعطاء الإلهيّ من كلِّ

واحد منا... فاللّهمَّ لا تحرمنا أجرك، وأخلفنا خلفة طيبة حسنة، آمين... آمين.

إذا توضَّحت هذه المقدِّمات، ولجتُ بحياء في مقالي هذا، وهو مختلف نوعا ما عمَّا سبقه، وعمَّا سيلحقه.

* * *

طبَّاخة العجين

هي امرأة تركية، ذات مسحة من الوقار الممزوج بالرهبة، جمالها جمال العفَّة والحجاب والحياء، قامتُها مربوعة غائرة في لحافها، ووجهها مدوَّر غارق في براءته، كلُّ لحظٍ من لِحاظها الآسِر يحكي أسطورة من أساطير هذا البلد العريق... يهواها القلب، لا هوى الغانيات الفاتنات، لكن هوى الطاهرات العفيفات... كأنها خُلقت من طينة "الفردوس"، وعاشت في عالم المثل سنوات!

عمَّالة، منظَّمة، منضبطة، فنَّانة، واضحة، دقيقة، سريعة، صبورة، محتسبة... صِفاتها الخلقية لا عدَّ لها ولا حَصر، إنها سليلة الأصالة العثمانية المهيبة، وبنتُ أرض الأناضول المُهابة، هي منذ الميلاد في موقع متقدِّم من مواقع الحضارة والريادة، حتى وإن جفاها القدَر ببعض الضرِّ، ورماها الزمان ببعض المحن...

أنا لا أصف فتاة لهائمٍ كيْما يخطُبها، ولا أعدُّ "بروفاةٍ" لممثِّلة قد تغري بعض خِفاف العقول، ولا أرسم لوحة لأميرة من العائلات الثرية الأرستقراطية... وإنما أنقل صفحة من عمق المجتمع التركي، وبالضبط من "حي شعبيّ قريب من المطار"، فوق جسر "الميتروباس"، بجوار مسجد صغير أنيق، حيث المارَّة -وبخاصة في الليل- يُعدُّون بالآلاف،

وحيث الحياة تدِبُّ لحظة خمودها في أماكن أخرى من العالم...

والتاريخ، في اعتقادي، وعند بعض المحقِّقين، ليس هو تاريخ الملوك والحروب، وإنما هو تاريخ الإنسان بكلِّ أحلامه وآماله وآلامه، تاريخُ بني البشر في علاقتهم ببعضهم البعض، وبالحياة، وبالوظيف، وبالرزق، وبالسياسة... الخ.

سألتها بلغة قد لا تفهمها، فأجابتني بلغة لم أفهم منها شيئا، لكنَّ الرسالة انتقلت بيننا مائة في المائة، بِلغة الإشارات والتقاسيم والإيماءات...

قلت: من أنت، وما اسمك؟

قالت: هِتون؟

قلت: اسمك جميل، ما مَعناه؟

فأشارت إلى السماء: السحابة! (وعلمتُ بعد ذلك، أنَّ معناه السحابة المثقلة بالمطر)

قلت: ماذا تعملين هنا؟ وقد لاحظتُ فرنا، وعجينا، ويديْن تعملان بخفَّة ورشاقة، رغم أنها في حوار معي، ورغم عمُرُها الكبير...

أجابت: "بورَك" (وهو أشبه بالمحاجَبْ عندنا)

قلت: كم تبيعين في اليوم، لا بل في الليلة؟

قالت: أكثر من مائة، غالبا...

سألت: كم ثمن الواحد؟

قالت: ليرة تركية ونصف...

فطلبتُ بضع قطع من "البورك" اللذيذ، وشكرتُها، فودَّعتها... ذلك أني لاحظتُ الزبائن يتوافدون، وأنا على رأي المثل "ويل للشجيِّ من الخليِّ"،

فخِفت أن ينالني هذا الثبور والويل...

وفي الطريق، وكان بجواري ولدي الربيع، سألته: هل تعرف ماذا يعني مائة قطعة بِلِيرةٍ ونصف الليرة، في ساعتين، أو ثلاث ساعات؟

قال: طبعا، مائة وخمسون ليرة.

قلت: وهل تعرف لو حوَّلناه إلى الدينار الجزائري كم يكون؟

تردَّد، وسكت!

قلت: هو مبلغ عشرة آلاف وخمسمائة دينار، أي مليون سنتيم، وخمسون ألف سنتيم!

قال: ماذا تعني بهذه المقارنة؟

قلت: في فمي ماء...

ثم صمتُّ طويلا... وأنا أردِّد بنبرة خافتة "طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!... طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!... طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!"

* * *

طبَّاخ البنين[١]

منذ بضعة أشهر، كنتُ على متن حافلة تقلِّني من العاصمة إلى وهران، وإذا بي أجاور رجلا، ساقني القدر إلى جنبه، فتأمَّلت فيه كثيرا، ولعلَّه هو كذلك تأمَّل في كثيرا... ومِن طبيعة الناس في هذه السنوات العجاف، أنهم لا يتكلَّمون مع أحد إلاَّ إذا استأنسوا منه خيرا... فالفتنة قد أحالت

١ ملاحظة لا بدَّ منها: مصطلح "طبَّاخ البنين"، لا يُقصد منه الانتقاص من الأستاذ والمعلم، بل هو من قبيل المشاكلة فقط، ولأنَّ طبخ البنين أصعبُ وأخطرُ وأعظم أمرًا من كلِّ طبخ آخر...من مثل طبخ القوانين التي تضيِّق على الأستاذ خناقه، وتعطي لصاحب "حرز السياسة" مكانة!.

الأخضر غُثاء أحوى، وزلزلت العلاقات بين بني البشر، ولذلك قال عنها رسول الرحمة ﷺ: "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها...".

بعد حين من الزمن، توجَّهتُ إليه، وأعدت السلام ثانية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أجابني: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

سألته: ما اسمك؟ ومن أين أنت؟

قال: عبد القادر، أنا من مدينة تيارت، معلِّم متقاعد!

فعرَّفت نفسي كذلك، وزيادة، ثم سألته: كيف تقوِّم سنوات التدريس والتعليم التي قضيتها من عمرك؟

قال: أمَّا ضميري، فمرتاح، ومطمئنٌّ، والحمد لله... وأمَّا... وأمَّا...

سكتَ هنيهة، وواصل: وأمَّا ما سوى ذلك، فنسأل الله أن يلهمنا الصبر!

تظاهرتُ بعدم فهم ما يقصد، فقلت: ماذا تعني من قولك "ما سوى ذلك؟"

قال: الكرامة... الكرامة... الكرامة!... ثم تأتي أمور أخرى، مثل الاستغناء عن الناس، وكفالة العائلة، والعيش مثل باقي البشر...

لم أتمالك، واستذكرتُ دعاءً مأثورا، فقرأته بجهر: "اللهمَّ لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين... يا أرحم الراحمين"

ثم سألته: هلاَّ شرحت ما تقول، وبيَّنت مغزاه؟

أخذ نفَسا عميقا، ثم ألقاه متأوها، فقال: أخي، أو بنيَّ -فأنت في عمر ولدي- إنّي قد اخترت مهنة التعليم حبًّا في هذا الوطن، وطمعا في

مستقبل زاهر لهذه الأمَّة، واجتهدتُ ما كتب الله لي أن أجتهد، فصبرت على الحرِّ والقرِّ، وبِتُّ ليالي على الجوع والطوى... فمرَّت السنون تطويها السنون، ثم كانت المدرسة عندنا آخر همٍّ من هموم أغلب الساسة وأصحاب القرار، بل كانت عدوَّهم الأوَّل، وكان المثقفون والمعلِّمون والمتعلِّمون هم "شرُّ الناس، والعالة على المجتمع، وأراذل القوم!"... فحوربوا، ولوحقوا، وشرِّدوا، وفقِّروا، وأحوِجوا... وها أنت ترى أمامك أحد هؤلاء المعلِّمين، فهو ليس أشقاهم، ولكنه أحد منهم!

توجَّست شرًّا من حاله، وسألته: أستاذي، ما بك؟ وهل ألمَّ بك ضرٌّ؟

قال: نعم، فابنتي البالغةُ من العمر سنَّ البلوغ، ابتُليت بمرض عضال، كلَّفني الكثير، وأنا لا أملك حقَّ الدواء، فما بالك بالعمليات الجراحية، أو بالسفر إلى الخارج للمداواة؟!

قلت: فكيف تتصرَّف؟

قال: محتاجا للناس... إنهم -سامحهم الله- أحوجونا، وأشبعوا "لاعبين"، و"مغنين"، و"شبابا محتالا"...

فسألته بجرأة: وكم كنت تتقاضى من الأجرة؟

قال: حوالي ثلاثين ألف... دينار، لا تقضي لي حاجة... وأمَّا الآن، فالتقاعد أنقَصَ من هذا المبلغ كثيرا... وهكذا يا بنيَّ مَن كلِّف بتربية البنين، وبإعداد الأجيال؟!

ثم أردف مستدركا ومصححا: نحن لا نبتغي الغنى، فقد آثرنا الحياة البسيطة، لكنَّنا كذلك لا نقبل الذل، ولا الحاجة، ولا قلَّة ذات اليد... مما يسلبنا الكرامة والعزة والحياة العفيفة.

سُرعان من انتهت الرحلة، وودَّعت الرجل الشريف الأبيَّ، داعيا الله أن لا يبخسه أجره، وأن يفرِّج عنه وعن أمثاله... وعن أمَّتنا ووطننا وأهلنا...

* * *

طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين

عودٌ على بدءٍ، إلى تركيا، وإلى الأخت "هيتون"... في تلكم اللحظة التي كنت أحاور ابني، كانت صورة "الأستاذ عبد القادر" تلاحِق عقلي، وتجرح مشاعري... ففكَّرت مليًّا، وإذا بي أنادي: "طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!".

تذكَّرت أنَّ تلكم المرأة، في تلكم الحالة، وهذا الرجل، في أولئكم الموقف... تحظى بأجرة أعلى منه بعشر مرات كاملة!، ولقد يقاطعني أحد ويقول: كذلك الحياةُ أغلى، ولكني أستدرك، وأقول: بكَم مرَّة؟ ثلاث...؟ أربع مرات؟ ها نحن في وضعٍ المرأة الطبَّاخة للعجين أحسنُ حالا من الرجل الطبَّاخ للبنين بخمس مرات أو أربع أو ثلاث... لا يهمُّ...

وقلت لابني الربيع: تصوَّر أنَّ معلِّمك يتبرَّع لك بثلثي قيمة دراستك، وأنَّ أهلك -في المدرسة الخاصة- يدفعون الثلث، والحكومة هي الدافعة للثلث في المدارس العمومية... أفلا يستحق هذا المجاهدُ منَّا وقفة، ومراجعة، وإعادة اعتبار؟!

وتذكَّرت يوم بدأنا مشاريع المدارس العلمية، وهي لما تبلغ بعد المبتغى، قلنا حينها: "إنَّ المعلِّم الكريم هو الذي يمنح الكرامة للتلميذ!"، وحاولنا ولا نزال نحاول، وقد حقَّقنا شيئا، وبقيت أشياء... ومع ذلك فالأجرة، والمال، ليس هو كلُّ شيء... فثمة معان أكبرُ وأعظم... ينبغي أن

نظر فيها وإليها، ونحن نقارن بين "طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!"؛ وهي معاني الحضارة، والأخلاق... وغيرها...

ولقد وصفتُ -في مقالي هذا- تلكم المرأة بأنها: "عمَّالة، منظَّمة، منضبطة، فنانة، واضحة، دقيقة، سريعة، صبورة، محتسبة..." فهل طبَّاخ البنين عندنا، هو دائما كذلك؟!

طبعا، أنا أستثني الكثير ممن هو كذلك وأعظمُ من ذلك، ولكنني مع ذلك أسجِّل أنَّ الكثير هم -للأسف- خلاف ذلك!

فكيف إذن أقِيم موازنة بين "طبَّاخة العجين... وطبَّاخ البنين"؟ ومن أيِّ وجهة؟ وعلى أيِّ مقياس؟

أترك الباقي للقارئ، وللمعلِّم، وللتلميذ، وللوليِّ... ولكلٍّ غيور، داعيا الله أن يسدِّد مقولتنا ورأينا، ويهدينا سبل السلام والرشد والرشاد..

مسرد المصطلحات والمفاهيم المعرفية الواردة في الكتاب

الابتداع

الإبداع والتوليد

الإبستمولوجيا

الأبعاد الإيمانية النافذة

أبعاد العلم

أثناء استكشافنا خطَّ السير

الاجتهاد

الاحترافية

الاحتمالات

إحياء الهجرة

اختلاف الأهداف

الإخلاص

الأدب رسولُ الفكر والحركة

الادعائية

ادفن نفسك في غياهب النسيان

إذا امتنعت الأسباب امتنعت النتائج

إذا تمت الأسباب جاءت النتائج متناسقة

الإرادة والقدرة

أرض المجاهدة والذكر والفكر

ارفَع شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف

اِرقَ على كلِّ المعادلات

أركان ظاهرة الحضارة

الأزمة المعرفية

إزمير، مطار الخدمة ومصعدها

أسباب الإمكان الحضاريّ

الأسباب الأولى

أسباب الحضارة

الأسباب الحقيقية

الأسباب الدعوية الحضارية

أسباب الرشد وموانعه

الأسباب الظاهرة والباطنة

الأسباب الظاهرية المادية المباشرة

الأسباب العقلية المعرفية

الأسباب الفنية الجمالية

الأسباب القلبية الإيمانية

أسباب المدِّ الحركيِّ الفعليِّ

الأسباب ستارٌ لمشيئة الله تعالى وقضائه

الأسباب لطفٌ إلهي ذو حكمة

الأسباب والمسببات

الأسباب وسيلة لنا لتنفيذ التكاليف التي علينا

الأستاذ، الأوجا

الأستاذ، المعلِّم المربِّي

الأستاذ، المؤسِّس

الاستحالة

الإستراتيجيات المختلفة
الاسترخاء الذهني
الاستسلام لعالم الأسباب
الاستسلام للحكمة
الاستناد إلى الله
استنطاق الإشارات
استنطاق الأشخاص
استنطاق الحوادث
استنطاق المؤسَّسات
استنطاق النصوص
الإسلام إبداع وريادة
الإسلام إيمان وعمل
الإسلام تخطيط وتنفيذ
الإسلام حركية وفكر
الإسلام حضارة
الإسلام دين عالميُّ اللُّحمة، كونيُّ الوجهة
الإسلام رشد كلُّه
الإسلام شيءٌ، وفهم الإسلام شيءٌ آخر
الإسلام علم وعمل
الإسلام عِمارة
الإسلام ليس محلِّي النزعة، ولا قرويَ المشرَب
الإسلام نظام إلهيٌّ يربط العلم بالعمل
الأسلوب الإيمانيّ الإيجابيّ للفرد والمجتمع
أسئلة العصر المحيّرة
الإشعار بوجود الله
إشكالات التخلُّف والحضارة
إشكالية الانفصام بين العلم والعمل
الأصالة العثمانية المهيبة
أصحاب الأرواح السامية بالعرفان
أصول الإدارة والاقتصاد
أصول الإيمان والتزكية
أصول التكوين والعمارة
الأصول العشرون لحسن البنا
أصول المعرفة والسلوك/والمعاشرة
إعادة السبب إلى المقدّمات
اعتبار الفروق والبيئة والمرحلة
الاعتبارات الكلامية
أعداء الأمَّة ثلاثة: الجهل، والفَقر، والفُرقة
الأعضاء المنتشرة في العقبى
الإعلام النظيف: أساسه قيم الإسلام
الإعلام النظيف: شكله روح العصر
أعماق عالَم الإمكان
أعمدة الحضارة: التربية، والفن، والأخلاق
آفاق مركَّبات فكرية مختلفة
أفق اللاهوت/الأفق اللاهوتي
أفكار كولن كيانات حية تنبض بالحياة
الإقصائية
الأكاديميا
إمام الذكر والدعاء
الإمبريالية
الأمثلة المشوِّشة
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
الإمكان الحضاري

إنَّ للجسيمات إرادة، ليست بالضرورة ملتزمة بمنظومة الأسباب
أن نغيِّر يعني أننا نتعلم
الانبعاث الثاني
الانبهار الذهني
انتقال المعرفة من المداخل إلى المخارج عبر العقل
الانتماء المذهبيّ الإقصائيّ
الانتماءات الضيِّقة
الإنجاز حضاريٍّ
الانخراط في المجتمع
أنسام أخروية، ومشاعر لاهوتية التلوُّن
إنسان التخطيط
الإنسان الجديد
الإنسان الربَّاني
إنسان الفكر والحركية
الإنسان الكامل
الإنسان الكونيّ الزمان
الإنسان الكونيّ المكان
إنسان النظر
إنسان بالفعل
إنسان بالقوَّة
الإنسان عاجز عن إدراك كلِّ الأسباب
الإنسان غير الطبيعي/المادي
الإنسان في الخلوة كالفرجال
الإنسان والدولة والزمن
الإنسان/الإنسان
الإنسانيُّ
الانسياق الذاتي
الانفصام المعرفي بين الحركية والفكر
أنماط العرض
أنماط فكرية جديدة
الأهداف
الأهداف السامية والمثُل العليا
إهمال الأسباب محض جبرية وضلالة بالحاصل
الأوامر التشريعية
الأوامر التكوينية
الأوهام
أوهام السوق
أوهام القبيلة
أوهام الكهف
أوهام المسرح
البحث المنهجي
البحث في اللغة والمنطق
بحوث الفعل
البدعة
بذور الحبِّ والعشق والشوق
البراديم الجديد
البراديم الكلاسيكي
البراديم كولن
برامج جديدة
برك الماء العقيمة والمحرومة من البَرَكة
برنامج الانسياق المشترك
البرهان على وجود الله

البعد الحركي العالمي الحضاري للإسلام
البعد الحركي للدلالة والتعريف
البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق
البعد العقدي الإيماني لمبدأ المعيَّنية
البعد المعنوي في الأعمال
البُعد الموجيُّ المختلف القوَّة
بقاؤنا بذاتيتنا يمر عبر انبعاثنا بذاتيتنا
البناء الإبداعيُّ المركَّب
بنية لغوية مجرَّدة
البنيوية
البيان
بيوت الطلبة
البيئة الصالحة
تاريخ العلوم
التاريخ هو تاريخ الإنسان بكلِّ أحلامه وآماله وآلامه
تأصيل الأفعال
التأصيل الشرعي للتخطيط
التأليه
التجاوز
تجاوز الذات الإنسانية الطبيعية
تجاوز الزمن الحاضر
تجاوز مراقبة المخلوق إلى مراقبة الخالق
التجربة البشرية النسبية المحتملة للخطأ
التجربة البنائية الشمولية الحضارية المتكاملة
التجربة قابلة للتعميم
تجربة كولن

التجزيء والاختزال
التجزيئية
التحرُّر من القوالب والأنماط
التحرُّر من المستحيل إلى الممكن
التحرُّر من قيود الزمان
تحرُّك آلة السلوك والجوارح
التحرُّك وفق إدراك حقيقة الفانيات الزائلات
تحريك قسم من مصادر قوَّة اليوم لحساب المستقبل
التحسينيُّ
التحليل المضموني الكلاسيكي
تحليل ظاهرة الفنِّ
التحليل والتركيب والمقارنة
تحوُّل أفكار الأستاذ إلى مشاريع حضارية في أزمان قياسية
تحوُّل السلوك إلى لسان ناطق بتصديق الحقِّ
تحوّل اللسان كقرص مرن لـالكلمة الطيبة
تحول المعرفة إلى سلوك
تحوُّل المعلومات إلى معرفة
تحوُّل في البراديم
التحوّل من إسلام القوة إلى قوة الإسلام
تحويل البلاد إلى مشاغل لثقافتنا الذاتية
تحويلُ ما في الوجدان إلى الواقع وخطِّ الزمان
التخصُّص
تخطِّي الأسباب الظاهرية
التخطيط في الكون يوجب التخطيط في الحركية
التخطيط وفن استشراف المستقبل

التخلف والانهزام والذلة نتائج لأسباب سابقة لها
التدافع الحضاريّ
التدقيق
التراب
تراتبيّة قاتلة
التراكم العلمي والتجريبي
التربية أساسٌ لكلِّ الانتصارات
التربية بالخبرة
التركيب
تركيبية الظاهرة
التِّرْمُومَاتر
التساقط الحركي
التسامي على كلِّ المقاييس
التسرع والاستعجال
تسطير المخطَّطات
التصرف الحركي والتخطيط المحكم
التصرُّف السقيم
التصرُّف المفرِط للحروفية
التصرُّفات الذاتية للأستاذ
التصرُّفات العفوية، والسلوك الواعي
تصريف الفكر إلى الفعل
التصور والخطة والموقف
التصورات الروحية والمعنوية
التصوفية المتخدِّرة الخالية من الروح
تطبيق المعرفة
تطبيق النموذج
التطور المادي
التعارض الحركي
التعاريف الاصطلاحية
التعاريف الفلسفية
التعاريف القاموسية
التعاريف المعرفية
تعريض فكر المسلمين لصعقات كهربائية
تعريفات تصل بين المادة والمعنى
التعصُّب للمذهب
تعلُّم التخطيط
التعلُّم عن طريق الممارسة والخبرة والفعل
تعليم أسرار الحياة
تعليم التخطيط
التعليم بديلٌ عن الشعارات
التعميم
التغريبيُّ الحاقد
تغيير الذات والآخرين
تغيير النماذج الإدراكية
التفرُّغ
التفسير العقلانيّ للظاهرة
التفسيرات الخرافية
تفعيل المعارف
التفكير في المستقبل
تقنيات التعليم
التكامل بين الخوف والرجاء
التكامل بين الظاهر والباطن
التكامل بين القول والفعل

التكامل بين المبدأ والمنتهى
تكثيف النوذج وصقله
تكرار النتيجة بتكرار السبب
تلازم السبب والنتيجة حتما
التلال الزمردية
تمثُّل الصفات التشريعية
تمثُّل الصفات التكوينية لله تعالى
التمثُّل الواقعي الميداني الحضاري
تمثُّل تجليات صفات الله تعالى في الأقوال والأفعال، وفي السلوك والصفات
تمثل فزيائيّ
التمثُّلات الحضارية في حركية الخدمة
التمكين في الأرض
التمييز بين الذين يَحْيَون والذين يُحيُون
التناسب بين السبب والنتيجة
التنكر الذهني
التنكُّر لذاتية الإنسان
تهافت التهافت
تهافت الفلاسفة
التوازن الروحي
التوافق والمواءمة والانسجام
التوجيه الجمالي مدخل أساس للحضارة
التوجيه الحركيُّ الحضاريُّ
التوجيه العملي
التوسل
التوسل بالسعي
تيار الإيمان
تيار الحضارة
الثانوية الفنية
الثغرات العاطفية
الثقافة العالمية
ثقافتنا الرصينة
ثقة المعلِّم في المتعلم
الثنائيات الاختزالية
ثنائيات الحياة: المادة والروح، الدين والسياسة، العلم والفن
الثنائية الإقصائيةً الجدلية
ثنائية الإنسان والطبيعة
ثنائية الخالق والمخلوق الفضفاضة
الثنائية الكلاسيكية
الثورة المعرفية
الجاهزية الذهنية
الجدل الكلاميّ
جدلية الدنيا والآخرة
جدلية الكيف والكمِّ
جدلية المادة والروح
جدلية الهداية والضلال
جذور المعنى لثقافتنا المِلّية
الجذور الموغلة في الدنيا
جذورنا المعنوية والروحية
الجرم العقديُّ
جريدة زمان
الجماعة
جماعة الخدمة

الجماعة الدينية
الجمع بين الفعل والدعاء
الجمع بين القلب والعقل والجوارح
الجمع بين المسطور والمنظور
الجمع بين الوجدان والفكر والعمل
الجهاد
جوامع الكلم
جيل الحداثة
جينوم الفكر
الحاجيُّ
حال الدهشة والحيرة والبكاء
حال المداخلة في الأشياء
حالة الانفصام
حالةَ المتلقي النفسية والاجتماعية والمعرفية
الحبُّ الشديد لرسول الله
الحداثة وما بعد الحداثة
الحدس المعنوي الباطني الإيماني القلبي
الحرفية واللفظية والنصية
الحركة
الحركة الاجتماعية
الحركة المشتركة
الحركة من الواقع إلى العقل، ومن العقل إلى الواقع
حركة وحركية ضمن عالم الأسباب
حركة وحركية في عالم الأسباب
الحركيُّ
الحركيات الإسلامية

حركيةٌ من اللسان مباشرة إلى الجنان والقلب
الحركية والفكر
حركيةٌ وفكرٌ قادران على تغيير الذات والآخرين
الحرية للتعلُّم
حساسية كلِّ شيء بالظروف الأولية لنشأته
حسن التصرف في الأشياء
حضارة الرشد والرشاد
حضارة الفكر والفعل
حضارة القلب والعقل والمادة
الحضارة والتطور والتفوق كلها نتائج لأسباب معيَّنة
الحفاظ على الثوابت والمنطلقات
حفنة من المجانين
الحقائق
الحقل المعرفي والحضاري
الحقيقة
حقيقة كنه صفات الله تعالى
حكم الإيمان
الحلول العملية المجرَّبة
الحملات الفردية
الحوار الرياضيُّ والمعرفيُّ
الحوار والتسامح وتقبُّل الآخر
حياة الألفاظ في فكر الأستاذ
الحيز الطبيعي/المادي
حين يصير الإعلام نظيفا
خارج دائرة الزمن
الخبرة

خدمة الخلْق إرضاء للحق
الخرافات
الخروج من دائرة الحكم الشرعي
الخريطة الإدراكية
الخريطة الجينية الإدراكية للمؤسَّسة
الخريطة الشمولية لجوانب الخدمة
خزينة الأستاذ الثقافية
خزينة البراديم كولن
الخصلةُ التي تحقّق ذاتية الشيء
الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي
خَضِرُ التخطيط
الخطُّ التصاعديُّ الديناميكيُّ الحركيُّ
خطُّ الزمن
الخط الفاصل/الواصل بين الفكر والفعل
خطَّ المسير والمصير في فكر الأستاذ
الخطّ الممتدّ من الكون إلى الحياة
الخلاف مصدر الغنى الفكري
الخلل في عجز المسلم وليس في قوّة الكافر
الخلوة الماورائية
خوارم المروءة
خيط فهم الكون
الداعي
الدرس عوضا عن الكلام
الدعاء
دعاء جوشكن
دعُوا الشمس تسطع بهدوء
الدعوة بالحال
الدلالات الخفية العميقة القلبية الخاصَّة
دلالة الأسماء والأحكام والصفات
الدلالة الاصطلاحية التخصُّصية
دليل الخطاب
دمىً تمثل فلسفة حياة الآخرين
الدنيا ليست بدار شكوى بل دار تحمُّل
دوامات الفوضى
الدور الفلسفي
الدينامو
الذاتية
ذاتية اتباع الأسباب
ذاتية التغيير
ذروة الحركة والفعالية
الذكر
الذكر والفكر
الذوق الجماليّ
رأس مال الحضارة
الراسم للخطوط العريضة
الربط بين الأسباب والنتيجة صفةٌ لازمة للخدمة
الربطُ بين القلب والحركة
رجل القلب
رحلة تتبع الأسباب
الرحمة والشفقة سببان في التأثير الإيجابي
الرحمة والشفقة سببان في القدرة على تحويل المخطَّطات والبرامج إلى واقع وحياة وإمكان
رسالة الإحياء

الرشد الاجتماعيُّ
الرشد الجزئي الخاص بمجال معيَّن
الرشد الجماعيُّ
الرشد الحضاريُّ
الرشد الخُلقي والعاطفي والديني
الرشد الشامل لكلِّ مناحي الحياة
الرشد الشامل هو منتهى الديانات
الرشد الفرديُّ
الرشد المدنيُّ
الرشد النظامي الخلقي الجمالي
الرشد النفسيُّ
الرشد ثمرة للجهد
الرشد جميعه من روح الإسلام
الرشد لا يكون إلا بالصبر
الرشد يأتي باتخاذ الأسباب بعد إدراكها
الرفض المطلق
رقَّة الروح
رهافة الحسّ
الرهبانية
روح التاريخ
روح الدين
روح العدالة في الشريعة الفطرية
روحية النفير العام
الرؤى الكونية
الرؤية الاختزالية الظاهرية العقيمة
الرؤية الحسية الظاهرية اللغوية العقلية
الرؤية الفكرية المتناسقة
الرؤية الكونية لخليفة الله في الأرض
رؤية تجلّيات الأسماء الحسنى
الرياضة النفسية والإيمانية
الرياضيُّ يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكريًّا
الرياضيات صنوُ الإيمان
الرياضيات وسيلة وأداة للتفكير السليم
الزعيم الروحيُّ
السبب الذاتي للتخلف والتبعية
سجن النفس
سداد المسلك في علَّة ما أنت بصدده
سرُّ الدعوة
سرٌّ تنتظره الدنيا
سرُّ قيام الحضارات
السرد الزمني النمطي
سعادة الزبون، لا رضاه فقط
سُلافة الحضارة
السلبيات
سلسلة الأسباب
سلَّم الاحترام، لا سلَّم التسلُّط
سلَّم الشعارات والاعتبارات
السمت الإيمانيّ التربويّ الأخلاقيُّ
سمفونية الحفر
سمو الذوق
السمو العقليّ والحركيّ
السنن الإلهية في لخلق
سنن الله تعالى تلزمنا بالتخطيط

السؤال المحوري
سورة الرشد: الكهف
سوق الكلام رائج في عصرنا
السياسات والمشاريع المستقبلية
السياق
السياق القرآني
شاشة الوجدان
شباب الخدمة
شروط التخطيط ثلاثة: الرسوخُ في العلم، والحكمةُ، والحركيةُ
الشعارات الشكلية الجامدة
الشعائر
الشكل الحلزوني في التحليل
الشكل المنهجيِ الأكاديميِ العميق
الشكل في مواجهة المحتوى
شمولية النظرة
الشمولية في التعريف
الشمولية والحركية وإرادة الفعل وإدارته
الشيء بذاته
الشيوعي المتطرِّف
الصراع المذهبي
صفاء القلب
الصفات القرآنية سبب كلِّ حضارة
صفات ورثة الأرض
صفة الإسلام
الصِّفة البشرية
الصور الإدراكية
الصور الشاملة الكونيَّة المركَّبة
الصور المجازية
الصور المعرفية
الصور النمطية
الصورة البلاغية
صياغة الأهداف بناء على الغايات
الضراعة
ضرورة الفن لإقامة صرح حضاريٍّ
الضروريُّ
ضغط الساعة واليوم
الضمير الجمعيّ
الطاقةِ الفردية
الطاقة الكامنة
الطبيعة/المادة
الطبيعة المادية والإنسانية
الطريق الثالث بين النسقين المغلق، المفتوح
طريق الحضارة الوحيد، هو التربية والتعليم
الطريقة الصوفية
طريقة تنظيم النص
طقوس الالتحاق
ظاهرة ارتباط الأسباب بالمسببات في عالم الأنفس والآفاق
ظاهرة الاستعمار
ظروف الاستعمار الفطرية والطبيعية
الظروف الزمانية والمكانية
العادة أورثت عقولنا الاعتقاد بالتلازم بين السبب والنتيجة

عالَم الأشخاص
عالَم الأفكار
عالَم الامتداد
عالَم الأنفس
عالَم الجماعات
عالِم الدين، بالدلالة التقليدية السكونية
عالِم الدين، بالدلالة الحضارية الحركية
عالَم الرياضيات المفعمة بالأسرار
عالَم المعتقدات
العالَم ينقسم إلى منظومتين: منظومة نبوية، ومنظومة فلسفية
العبارات الموجزة العميقة (الحِكَم)
العجز ليس دليلا على العدم
العزلة والمخالطة
عزمُ العمل
العزم والتوكُّل والإنجاز
عشق الخدمة اغترابا
عشقُ العلم
عقبة الاختزال والنمطيَّة والتجزيئيَّة
العقل التوليديّ
العقل الموسوعيّ
العقيدة بين الحفظ، والفهم، والفعالية
العلاقات
العلاقات الافتراضية
العلاقات الشمولية
العلاقات المجرَّدة الكامنة
العلاقة الحلزونية
العلاقة المتشابكة المعقَّدة اللانهائية
العلاقة بين العلم والإرشاد
العلاقة بين العلم والعمل
العلاقة بين الفكر والفعل
العلاقة بين القرآن والقلب
العلاقة بين النموذج والواقع
علم الجرح والتعديل
علم المناخ
العلم النافع
العلم النظريّ
العلم بمدلوله الاستقرائي
العلم دقيق، أمَّا الفنُّ فصادق
العلماني الإقصائيُّ
العلوم التقليدية
علوم السلوك
العلوم العصرية
العلوم المنطقية والعقلية
العلوم الميتافيزيقية
العلوم الوضعية
العلوم والتكنولوجيا
على كلِّ مسلم أن يسير وفق هدف ومخطَّط
العمق الفكري
العمق والسعة
العمل الجماعيُّ
العمل الخاطئ
العمل بالتخطيط
عملية التحليل

عملية التعريف
عملية التعريف: الاسم، فالفكرة، فالمفهوم
عملية تطوير المنظومة العلمية للمؤسَّسة
العناصر الإنسانية المركَّبة
العناصر البسيطة
العِندية
العنصر الأساس في الأدب هو المعنى
العوالم الثلاثة: الله، والإنسان، والكون
الغالب والنسبي
الغاية
فاعلية العقيدة وقوَّتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي
فاعلية المعنى في النسق الفكري للأستاذ
الفراعنة الصغار
الفزياء الكمومية
فشل المنظومة البشرية الفلسفية
الفعالية
الفعل الحضاريِّ البنائي التربوي
الفعل المجرَّد
الفعل المنظَّم
فقه الأولويات
فقه التحيُّز
فقه الحضارات
فقه الرشد
فقه العبادات
فقه مراتب الأعمال
الفكر الإقصائيُّ التبريريُّ
الفكرُ الرياضيُّ
الفكر العام
الفكر العربي المعاصر
الفكر العمليُّ البنائيُّ الحضاريُّ
الفكر القرآني التربوي الأخلاقي
فكر القوانين الرياضية
الفكر المجرَّد
الفكر المضمونيُّ
الفكر الممنهج
الفكر شمولي
فكرٌ يسنده فعل، وفعل يسبقه فكر
فلسفة التربية
فلسفةِ الحياة
فلسفة العلوم
فلسفة حياةٍ ذاتية
الفن سبب من أسباب الرشد
الفنُّ طائر فكريٌّ
الفنُّ، المفتاح السحري للحضارة
الفهم الشموليُّ الكونيُّ للإسلام
في البدء كان الحفر
فيزياء الوجود وكيمياؤه وحياتياته وفضائياته
القابليات المحدودة
القابلية للاستخفاف
القابلية للاستعمار
القانون الإلهي
قانون الزمن
قانون العلية والمعيَّنية

القبول المطلق	كتاب الكائنات
القدر الجبري المهيمن في الكون	كتاب الوجود
القدرات الخلاقة للشعوب المسلمة	الكفاءة والفعالية، معًا، بكلِّ المقاييس
القدرة البلاغية	كلّ تخلف منشؤه الإعراض عن كلام الله تعالى
قدرة تفسيرية عالية	كلّ سبب اليوم سيؤدِّي إلى نتيجة حتمية غدا
القدرة على الإنتاج (CP)	كلّ سبب لا بدَّ أن يؤدِّي إلى مسببه، والكلَّ من خلق الله تعالى
القدرية والجبرية	كلُّ شيء مخلوق بنظام محكم
القراءة الاختزالية	كلُّ نتيجة اليوم لها سبب
القراءة الوصفية	الكلمة أهمُّ واسطة لانتقال الأفكار
القرآن الكريم تجلٍّ لصفات الله تعالى	الكليّ والمطلق
قطب الناسوت	كليات العقيدة
قطعة جليد سقطت في الماء واستسلمت للذوبان	كلية الإلهيات
قلوب تشرَّبت المحبَّة	كهف بيكون
القناعة الخاطئة	كهوف الأوهام
القواسم المشتركة بين المسلمين	الكون الزماني والمكاني
قواعد الشريعة الفطرية	لا شيء خُلق عبثا
قوالب بشرية	لا يجوز من السياسة إلاَّ ما وافق روح الشارع
قوانين الكون وسننه	اللافاعلية
القوانين والعلاقات	اللدنية
القوة الجاذبة إلى المركز	لسلسلة الأسباب قانون يحكمها
قوة تفسيرية عالية	لكلِّ شيء دور في سلسلة الموجودات
قياس الفارق بين المأمول والمعمول	الله سبحانه خالق الأسباب والنتائج
قياس الفارق بين ما ينبغي أن يكون وبين ما هو كائن	الله وحده هو الذي يعلم كلَّ سبب وكلَّ نتيجة
القيم الذاتية	ليس كلُّ الناس يدرك أسباب الأمور، ولا أسباب أسباب الأمور
الكابسولات المغذية للروح والفكر	

الليونة والمرونة في الوسائل والآليات
ما بعد المعرفة
ماريونات الشعوب
مأزق اللاافعالية في الفكر الإسلامي المعاصر
ماقبلياتِ الإنسان
الماورائيات
مبادئ التعلم
المبادئ الستة
مبادئ الشرع الحنيف
المبادئ أو القواعد
المبادئ والمنطلقات
مبدأ الريبة
المبدأ المنهجيّ
المتزمِّن
المثال التاريخي التعجيزي
المجال المعرفيّ
مجالس الصحبة
المجانين
مجاهدة النفس
المجتهد في رسم الخطط والمقترحات
مَجمع الفيروسات ومأوى المكروبات
محاورات فكرية حضارية
محاورة معرفية ابستمولوجية
محاولات النهوض والإصلاح
محور الوجدان
المحور الوهبي
محورية أسماء الله الحسنى
محورية أسماء الله تعالى وصفاته
مخارج المدركات
المخالفة الحضارية
المخالفة الفقهية
مختبرات تركيب وتحليل لمنطقنا ومحاكمتنا
العقلية الذاتِيَتَين
المخطَّط الاستراتيجيّ البعيد
المخطَّط النظريّ
مخطَّط فتح الله للتربية والتعليم
المخيَّمات الصيفية للعلوم الشرعية
مداخل العلم والمعرفة
المدارس العلمية
المدارس النظامية الرسمية
مدارس برج
مدارس ذات مقاييس عالمية
مدارس فام (FEM) لصناعة الإنسان
مدارس فام لصناعة الإنسان
مدارس لفلسفة حياتنا الذاتية
مدارس من العالَم الملائكي!
المدخل العقديّ
المدرسة الفكرية
المدرسة الفلسفية
المدرسة المضمونية
المدرسة بديلا عن المهرجان
مدرسة ديفلين
مدرسة شنايدر
مدرسة في المنهج والموضوع

المدركات الحسية والعقلية
المدركات الدلالية واللغوية
المدرَكات الواعية الفاعلة
المدعوُّ
المدَّعون الكبار
المدلول
مدلول الورع الانعزاليُّ، الجزئيُّ، النمطيُّ
مدلول الورع الحركيُّ، الشموليُّ، الإبداعيُّ
المذهب الديني
المذهبية
المذهبية فقه لا عصبية
المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك
مراصد للحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان
مراعاة الحال والمآل
المراقبة
المراقبة الإعلامية اللصيقة
المرجعية الكامنة المادية
المرجعية المتجاوزة
مرحلة التمثُّل الميدانيّ
مرحلة المفاهيم
مرحلة الميلاد النظريّ
مرحلة النضج البشري
مرحلة النضج الطبيعي
مرحلة النضج المادي
مرحلة النضج المعرفيّ
مرحلة النضج المعنوي

المرشد
مركز بحوث فتح الله كولن
المرونة والليونة
المستعجِل
مستويات المعرفة
مسلك الدعوة إلى الله
مسلم غير راشد
المسلَّمات
مشاريع الأستاذ
مشاريع كولن التربوية
المشروع الحضاري الشمولي العالمي
مشكلات الحضارة
مشكلة التصنيف
مشكلة الحدِّ الفاصل
مشكلتا التصنيف والحدِّ الفاصل
المشوار التعلُّمي-العملي، الفكري-الحضاريّ
المشي في السبات، والتكلم في النوم
مصادرنا الذاتية
المصدر الوحيد للفن هو مخافة الله تعالى والنظر إلى بديع صنعه
مصدرية السنة النبوية
مصدرية القرآن الكريم
المضامين المباشرة
المطيافية
معادلة الحضارة
المعارف (Les savoirs)
المعالجة الحقيقية لا تكون في الأسباب

الخارجية بل في الأسباب الداخلية الذاتية
مُعامِل الحضارة
المعاني الخارجية العقلية العامَّة
معايير أكاديمية وعلمية
المعايير المألوفة
معايير خلقية وسلوكية
المعتقدات (Les croyances)
المعرفة الإنسانية القصيرة والقاصرة
معرفة الحق سبحانه حق المعرفة
المعرفة، والتعارف، والاعتراف
معضلة الفرد المسلم تكمن في خمسة أمور: الثقافة، الأخلاق، التخطيط، التنظيم، التنفيذ
معطيات الظروف والبيئة العامة
المعلِّم الكريم هو الذي يمنح الكرامة للتلميذ
المعلومات
المعنى الشامل
معهد المناهج
المعية الربانية
المعيَّنية/المعيَّنية إلى حدٍّ ما
المغالطاتِ
المفاهيم الكلية الإسلامية
المفاهيم والمصطلحات
المفتاح الطلسميّ لخزائن الحقِّ اللانهائية
مفهوم المخالفة
المقارَبات
مقاربات الفعالية والتفعيل
المقالات الحدسية الوجدانية التحليلية العفوية
مقام الفهم والاستقراء لأسرار سنَّة الله
مقاييس العالم الحديث
المقاييس المعروفة
مقاييس مشاريع الخدمة
مكُّوك الإرادة والمنطق
الملائكية
مَن أحبَّ تعلَّم وعلَّم
مِن الجسد إلى الروح
مِن الشريعة إلى التصوف
مِن العزلة إلى المخالطة
مِن الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود
مِن الفوضى إلى النظام
مِن الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء
مِن المادَّة إلى الطاقة
مَن ضيَّق أفقه أبعده الله عن أسباب النصر
مَن لا فنَّ له شبه حيٍّ، وشبه ميِّت
مَن وسَّع فكره يسَّر الله له سبل التمكين
المناسبات بين البشر
المناسبة بين السبب والنتيجة من لوازم التكليف
المناظير الكلاسيكية
مناهج بحوث الفعل
المنبع اللانهائي للضوء
المنبه
المنتَج (P)
منتدى أبانت
منتدى البحث العلمي
منتدى الصحفيين

منتدى الفنِّ والثقافة
منتدى المرأة
منتدى أوراسيا
منتدى حوار الأديان والثقافات
منزلة المراجعات
المنطق العملي
المنطق القرآني المتعالي
منطق الكون والوجود يوجب التخطيط
المنطق والفكر الرياضيّ
المنطلق من القرآن الكريم، وسنَّةِ المصطفى الأمين
المنطلق/المنطلق الأخلاقي التربوي
المنطلقات المتجاوزة المتعالية المطلقة
المنطوق المسكوت عنه
منظور الإنسان
منظور المضمون
منظومة الأسباب سنَّة من سنن الله تعالى
المنظومة الاستنباطية
المنظومة الذاتية الرشيدة
المنظومة الفكرية القرآنية
المنظومة المعرفية الرشيدة
المنظومة الوضعية
منهج الذكاءات المتعدِّدة
منهج الرشد
المنهج السلوكي
مهرجان البكاء
المهندس الراسم للخريطة

مهندسو العقل، وعمَّال الفكر
مهندسو عالمنا الفكري
الموازنة التي في الأرض والسماء
موجات الحسِّ المؤقت
الموجّه
مؤسَّسة الخدمة
الموضوعية والذاتية
موقع خلافة الله تعالى
مؤمن غير ناضج
المؤمن لا يسقط وإن اهتزَّ
ميزان الألم
الميلاد الأول
الميلاد الثاني
الميلاد الحقيقيّ
ميلاد حضارة إسلامية هي حضارتنا الذاتية
الناتج الحضاري
النبي سيِّد المخطِّطين
نحت النموذج
نحو عالمنا
النذير
النزعة الربانية
نزعة السِّلم
نسبة الارتباط بالله في كلِّ حركة وسكون
النسبية
نسج فقرات الحياة على العشق والحبّ
النسق التسلُّطي السُلَّمي الأحادي الاتجاه
النسق الحواري الحر المتعدد الاتجاه

النسق المغلق
النسق المفتوح
النشاط الدائميّ الموَّاج
نشوة العبادة
نظام الإسلام الأخلاقي والتربوي
نظام الزمَر
نظام العلوم واحد خالقه الله تعالى
نظام فكري وفلسفة ملّية
النظام والقانون
النظرة التبسيطية التسطيحية العقيمة
نظريات التعلُّم الكلاسيكية
نظريات الكفاءة واللاكفاءة
نظرية التعليم
النظرية التوحيدية الحضارية الشمولية
نظرية الفوضى
نظرية القابلية للاستعمار
نظرية المعرفة
نظرية كلِّ شي
نقطة الطاقة اللامتناهية
نقطة العزم (enercie)
النماذج التحليلية أو الكامنة
النماذج التفسيرية المركَّبة
النماذج الفاعلة الفعَّالة
النماذج المعرفية
نموذج أفق القرآن الساحر
نموذج اقبلني يا رسول الله
النموذج الاختزالي
النموذج الإدراكي لدى جماعة الخدمة
النموذج الافتراضي
نموذج الإنسان
النموذج التفسيري
نموذج الحسَّاس المرهف
النموذج الدوغماتي
نموذج الرشد
نموذج الشمس والظل
نموذج العابد والمعبود
نموذج القلم
نموذج القماش الزاهي
النموذج الكولوني
نموذج المجانين
النموذج المعتاد
نموذج المهندس
النموذج النظري
نموذج النمل
النموذج الواقعي البشري
نموذج إنسان الفكر والحركية
نموذج وارثو الأرض
النهايات
الهجرة بمعناها المعاصِر
الهجرة للدعوة
الهدف المنضبط
هلمّ إليَّ يا إنسان
وا إنسانيتاه
وارثو الأرض

الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية
الواقع الآني
الواقع التاريخي
الواقع اللفظي
الوجدان
وجود الصقر، ينمّي مهارات العصفور
وجودنا الحقيقي لا يتمُّ إلاَّ عبر الحركية والفكر
وحدة الفكر والتطبيق
الورع بدلالة الهجران والترك والاعتزال
الوسائل
الوصف العشوائي
وضوح الرؤية
وقف الصحفيين والكتَّاب
وكالة جيهان
ونحن نبني حضارتنا
ونحن نقيم صرح الروح
يثبت للمتناهي الصغر ما ثبت للمتناهي الكبر
اليوم يوم الفعال

ثبت

المشاريع العلمية المقترحة

الإنسان في الرؤية الكونية للأستاذ فتح الله كولن

تحليل مقال هذا موسم البكاء تحليلا معرفيًا

الحد الفاصل ومشكلة التصنيف في البراديم كولن: الإنجاز يكتمل بعد سنين، وفي إطار فريق للبحث

الصورة المجازية عند كولن: عمل أدبي للأطفال

العلم عند كولن، بحث أكاديمي

العمل عند كولن، بحث أكاديمي

في مدارس كولن هل من مواد تعلِّم التخطيط؟ وهل من مقرَّرات وبرامج للتخطيط؟

قاموس بمعاني المفردات التي يستخدمها الأستاذ

قاموس حكَم الأستاذ فتح الله كولن

قاموس نماذج الأستاذ فتح الله كولن

مخطَّط فتح الله للتربية والتعليم: جمع، وتحليل

المقرَّر التربويُّ في مختلف الفنون، في المؤسسات التربوية لمشاريع الخدمة

موسوعة المصطلحات والمفاهيم والتعريفات في فكر الأستاذ فتح الله كولن

نظرية المعرفة عند فتح الله كولن مقارنة بالمصلحين الآخرين

البراديم كولن

فتح الله كولن ومشروع الخدمة

على ضوء نموذج الرشد

"البراديم كولن" ليس مفهوما مرادفا لـ"الأستاذ كولن" بشخصه وفكره، وبخصوصياته وميزاته؛ لكنَّه يرمز إلى الصيغة المركبة بين "فكر الأستاذ" و"مشاريع الأستاذ"، بين "النموذج النظري" و"تطبيق النموذج فعليًّا" فالأستاذ كولن في هذا البراديم هو المحور طبعا، وهو القلب، وهو المحرِّك؛ غير أنه ليس الدائرةَ كلَّها، ولا الجسدَ جميعَه، ولا الآلةَ برمَّتها... هكذا كان، وهكذا ينبغي أن يُعرف ويعرَّف.

"البراديم كولن" ينبِّه إلى حقيقة عميقة، وهي أنَّ الأستاذ في مسيرته وكتاباته وتوجيهاته، لم يكن يرسم التفاصيل ويصوِّر الجزئيات واحدةً واحدةً، ولم يكن يُدافع عن تراتبيَّة قاتلةٍ لمعنى الحياة ولمدلول الإنسان، شأنَ بعض التجارب الحركية التي تصنع قوالب بشرية متشابهة، متنكِّرة لذاتية الإنسان ولخصوصياته، وضاربة عرض الحائط اختلاف البيئات والأنساق الاجتماعية والفكرية والحضارية؛ فالأستاذ كان بمثابة "المرشد"، و"الموجِّه"، و"المنبه" و"الراسم للخطوط العريضة"، تاركا كلَّ إنسان يُعمل عقله التوليديَّ، ويبدع في فهم النصوص بمراميها ومقاصدها، ويتفنَّن في تطبيق ذلك على واقع الحياة، حسب تخصُّصه، ومداركه، وطاقته... ولهذا، وبسببه، تحوَّلت كلمات قليلة -نسبيا- إلى مؤسَّسات لا تُعدُّ ولا تحصى، ولا تزال تولد كلَّ يوم، في كلِّ مكان، وبكلِّ شكل، في سلسلة رياضية متسارعة.

ISBN 978-975-315-385-0
9789753153850
www.daralnile.com
دار النيل

فتح الله كولن ومشروع الخدمة

د. محمد باباعمي